المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة

لوسيان غولدمان

العلوم الإنسانية والفلسفة

ترجمة : د. يوسف الأنطكي
مراجعة : د. محمد برادة

١٩٩٦

هذه ترجمة لكتاب لوسيان غولدمان Lucien Goldmann

" Sciences humaines et philosophie "

الذي نشـــر في طبـــعــــتـــه الأولى سنة ١٩٥٢ عن دار : PUF ،

واعــيــد طبــعــه سنة ١٩٦٦ عن دار Doneel Gonthier وقـــد

اعــتــمـــدت في التـــرجـــمـــة على الطبـــعـــة الثـــانيـــه .

مقدمة المترجم

صدر كتاب غولديان «العلوم الانسانية والفلسفة» سنة ١٩٥٢ عن طبعة PUF وأعيد طبعه سنة ١٩٦٦ عن دار Donoel Gonthier . وقد أضيف للكتاب فى طبعته الاخيرة مقال حول البنيوية التكوينية والابداع الثقافى ومقدمة للطبعة الجديدة تم الاعتماد فى الترجمة على الطبعة الثانية التى يمكن أن نقول عموما أنها لم تضف للطبعة القديمة جديدا ذلك أن الاساس الفلسفى الذى صدر عنه غولدمان ، هو نفسه الذى ظل يحكمه طيلة حياته ، ولذلك فما يمكن أن نعتبره اضافة حقيقية فى المقدمة والمقال المذكورين ، يكمن فى أن الاولى جاءت لتعلن عن تغير فى وضعية للحوار ، فى حين أن الثانى جاء ليخصص أكثر التصور البنيوى التكوينى للابداع الثقافى عامة وللابداع الادبى على وجه الخصوص .

أما بقية الكتاب ، فتنقسم الى ثلاثة فصول ، ومقال عن التعبير والشكل وتذييل .

أهتم الفصل الاول من الفصول الثلاثة بتحديد موضوع الفكر التاريخى ، ونركز الثانى على معالجة مشكل المنهج فى العلوم الانسانية ، أما الفصل الثالث فقد خصص لمناقشة القوانين البنيوية الكبرى فى الفكر الماركسى وهى الحتمية الاقتصادية والوظيفة التاريخية للطبقات الاجتماعية ومفهوم الوعى الممكن ، أما التذييل ، فيمكن اعتباره

اختزالا خطاطيا لما سيطوره غولدمان فيما بعد في كتابه «الاله المختفي» بصدد مسرح راسين وفكر باسكال ، ويمكن ان نعتبر مقال الشكل والتعبير اعادة تحديد لمفهوم الرؤية للعالم واثارة لبعض القضايا المهمة حول مفهوم الشكل .

نسجل من جهتنا ، أن الكتاب يمكن تقسيمه الى قسمين بالنظر الى المواضيع التى تطرق لها، ينتهي القسم الاول منهما بانتهاء الفصل الثاني من الكتاب ويمكن القول أن الموضوع الذى اثار اكثر اهتمام غولدمان ، في هذا القسم ، هو السوسيولوجيا ، ويشكل القسم الثانى بقية الكتاب وباطمئنان يمكن أن نؤكد أن الادب كان هو الموضوع الذى حظي بالنصيب الاكبر من المناقشة مضيفين بطبيعة الحال المقال الذى الحقه بالطبعة الثانية للبرهنة على ذلك ، نقف بأختصار على أهم محتويات الكتابه :

موضوع الفكر التاريخي بالنسبة لغولدمان هو الوقائع الاجتماعية وهذه الوقائع لا تشكل ظواهر مفردة ينعزل بعضها عن البعض الاخر بل هي ظواهر مترابطة تطبعها خاصية الكلية كما أنها ظواهر لا يمكن فهمها جيدا الا عن طريق ادراجها ضمن سيرورة زمنية محددة ليست هذه الظواهر في حقيقة الامر ، سوى النتاج الطبيعي لسلوك الافراد وسلوك الافراد هذا لا تتجزه ولا يمكن ان تتجزه الذوات المعزولة ، ان سلوكي هو بالضرورة سلوكي جماعي والانا ممقوت كما عبر باسكال بطريقة استعارية اذن ففي خلفية كل سلوكي تكمن «النحن» بوصفها الفاعل الحقيقي للفعل ، هذا الفعل بدوره لا يمكن ان يأخذ وضعية اعتبارية حقة الا اذا كان له تأثير على وجود وبنية المجموعة .

اذن فسلوكي المجموعة منظورا اليه في ماضيه وحاضره ، ومستقبله ، ومن حيث تأثيره على بنيتها ووجودها هو الذى يشكل موضوع الفكر التاريخي .

ولكن هل يختص التاريخ وحده بهذا الموضوع ؟ عن هذا السؤال يجيب غولدمان بأن السوسيولوجيا تشترك مع التاريخ في موضوعه ذلك ان كل واقعة اجتمعية تعتبر تاريخية والعكس وينتج عن هذا أنه ليس بامكاننا أن نتصور تاريخا منفصلا عن السوسيولوجيا ، ولا سوسيولوجية منفصلة عن التاريخ ، فالرصد الحقيقي للوقائع لا يمكن أن يتم الا بواسطة تاريخ سوسيولوجي أو سوسيولوجية تاريخية .

أما بصدد المنهج الذى يجب أن يتسلح به المفكر لدراسة هذا الموضوع فهو المنهج الديالكتكى الذى يستجيب لخصوصية الموضوع نفسة ، ذلك أنه يتيح امكانية دراسة السلوكات الانسانية فى بعدها الزمنى وفى خاصيتها التفاعلية ، أما المنهج الوضعى الذى تبنته العلموية فيجب ان يبعد لانه يشىء الظواهر معتقدا آن العلم الحقيقى هو الذى يجب ان يحرر من كل تدخل فلسفى .

لهذه النقطة الاخيرة سيخصص غولدمان الفصل الثانى من كتابه مبينا الفرق بين العلوم الاجتماعية والتاريخية وبين العلوم الفيزيائية الكيميائية .

ان موضوع العلوم الفيزيائية الكيميائية هو الطبيعة وهدفها الاساسى هو البحث عن الثابت والنسقى والمتكرر، ولذلك لا يصعب عليها ان تدرس الظواهر باعتباره اشياء خارجية لا ترتبط بالانسان وبوعى المجموعة ، أما موضوع العلوم الانسانية فهو السلوك الانسانى ولذلك فان آى تحريف علموى يسعى الى الخلط بين الموضوعين سيؤدى حتما الى نتائج مضللة ، لان ذات المفكر ستكون حاضرة بالضرورة اثناء معالجته لموضوعه، فلكى يضبط تسلل احكامه الجاهزة المسبقة ، عليه ان يقننها ويعيها، باختصار عليه أن ينطلق من تصور فلسفى يحدد خطوات بحثه وآن يكون واعيا بالموقف الايديولوجى الذى يصدر عنه، ولهذا يجب آن نفصل بدقة بين الموضوعية فى العلوم الفيزيائية الكيمياتية وبينها فى العلوم الانسانية فاذا كانت الموضوعية ممكنة فى العلوم الاولى نظرا لان موضوعها فرض ذلك فان الموضوعية فى العلوم الانسانية لها طابعها المميز الذى لا يتنافى مع الادماج الواهى لذات المفكر فى الموضوع المدروس ولذلك فان آى علم انسانى يتقصد استعارة المناهج الوضعية بهدف تطبيقها على موضوعه مدعيا انه بعمله ذلك يبعد التشويش الايديولوجى اللاعلمى فانه سيقع فى مشكل اكبر هو اشتغال الايديولوجيا فى لا وعيه وتأثيرها فى بحثه بشكل ضمنى يمكن أن يغلف حقيقة الوقائع .

انطلاقا من هذا التصور يناقش غولدمان السوسيولوجيا اللاماركسية والسوسيولوجيا المعاصرة .

فى مناقشته للتيار السوسيولوجى الاول ، بين غولدمان خطأ الطرح الدوركايمى الذى يعتقد ان علم الاجتماع يجب ان يدرس الوقائع «من الخارج باعتبارها «آشياء»

وأن يتقيد بمنهج الشك الديكارتي محاولا ان يقترب أكثر من وضعية العالم الفيزيائي . ان تدخل احكام القيمة في السوسيولوجيا لا يرجع كما يعتقد دوركايم ، الى صغر سن هذا العلم بالقياس الى سن الرياضيات والفيزياء والكيمياء ، بل يرجع الى القصد الواعي للمفكر بابعاد كل تدخل غير مشروع لهذه الاحكام واذا كان دور كايم يذهب الى حد أقصى في اخضاع الموضوع السوسيولوجي للاكراه المنهجي العلموي ، فان ماكس فيبر ، الذي يبدي غولدمان اعجابه الكبير به ، بطرح المسألة بكثير من الدقة ، فمن المستحيل بالنسبة له ابعاد احكام القيمة عن البحث حيث يتعلق الامر بالعلوم الانسانية ، ولذلك يجب ان نجعل هذه الاحكام وسائل مفيدة في البحث عن الحقيقة الموضوعية غير ان عمل فيبر لا يمر دون نواقص لانه يرى أن أحكام القيمة تتدخل فقط في اختيار وبناء الموضوع ، ويمكن بعد ذلك التخلي عنها لصالح الموضوعية والصرامة العلميتين مبنيا الخاصية المغلوطة لهذا الوهم ، أكد غولدمان مرة ثانية على ضرورة الادماج الواعي لاحكام القيمة في كل بحث في العلوم الانسانية .

ان تحقيق المثال الدوركايمي الذي يقضي بمعالجة الوقائع انطلاقا من المنهج الديكارتي ، وخصوصا من النقطة الثانية فيه ، سيعتبر هاجسا منهجيا عند السوسيولوجيين المعاصرين وخصوصا عند جورج غورفيتش الذي ساق غولدمان تجاهه نقدا خاصا. ودون أن نقف على التفاصيل نقول أن غولدمان ادرج كل اعمال هذا التيار من موتوغرافيات واحصائيات وقياسات اجتماعية وميكروسوسيولوجيات ، ضمن ما اسماه بالمناهج الوضعية وأكد ان انصار هذه المناهج «ينبنون ضمنيا، وقبل البداية في عملهم ، موقفا تجاه النظام الاجتماعي القائم الذي يعتبرونه طبيعيا وعاديا بل ويبدو لهم غير محتاج للتبرير» يجب لكي نفهم الطبيعة الايديولوجية لهذين التيارين ان نربطهما حسب غولدمان ، ببنياتها التحتية اذ يمكن رد الاول الى النزعة التفاؤلية الديكارتية ، ويمكن ربط الثاني بالتزايد المتعاظم أكثر فاكثر للهيمنة الرأسمالية .

ان الوقائع الاجتماعية بدورها ، لا يمكن ان تفهم الا عن طريق رصد بنياتها التحتية من هنا أهمية مفهوم الطبقة في النسق الغولدماني هذا المفهوم والمفاهيم الاخرى التي ترتبط به هو الذي يشكل محور الفصل الثالث من الكتاب .

ينحى غولدمان ، فى هذا الفصل ، عن الفكر الدياليكتيكى الرأي الذى يقول بالهيمنة المطلقة للعوامل المادية (الاقتصادية) على مجموع الحياة الانسانية ، ان البنية التحتية لها دون شك أهمية مؤكدة فى تشكيل تصورات وأفكار الانسان ولكن هذا لا يلغى اهمية العوامل الايديولوجية (الافكار والمعتقدات) آن الدياليكتيكة حسب غولدمان يعنى التفاعل بين البنيتين التحتية والفوقية وبعد انتقادة للفهم الخاطىء لمفهوم الطبقة فى السوسيولوجيا المعاصرة وخاصة عند بيتيريم سوروكان Sorokin وغورفيتش، قدم تعريفا للطبقة يحددها كالتالى . تتعرف الطبقة انطلاقا من وظيفتها فى الانتاج وانطلاقا من علاقاتها مع الطبقات الاخرى وأخيرا انطلاقا من الوعى الممكن الذى يشكل رؤيتها للعالم .

وهكذا يمكن ان نميز فى فرنسا تحت حكم لويس الرابع عشر على الاقل خمس طبقات عبرت عن رؤيتها للعالم على المستوى الفلسفى والادبى : هنا أولا طبقة كبار الاقطاعيين وقد عبرت عن رؤيتها للعالم «مذكرات» دوق سان سيمون و«أمثال» دوق الروشفوكو ، وهناك نبالة البلاط وقد تم التعبير عن ابيقورية هذه الطبقة على المستوى الادبى فى مسرحيات موليير، وهناك نبالة الرداء ، وفى هذه الطبقة ستتطور فى فرنسا الرؤية التراجيدية التى عبرت عنها مسرحيات راسين وأفكار باسكال وهناك الطبقة الصاعدةمن اعضاء الشعب الميسورين، ويتمظهر التعبير عن ذهنية هذه الطبقة فى فلسفة ديكارت ومسرح كورناى وأخيرا هناك صغار الشعب الذين يتكلمون عبر خرافات لافونتين . ان هذه التعبيرات الفلسفية والادبية هى التى تشكل روية هذه الطبقات للعالم ، وليست هذه الرؤية سوى التصعيد المتماسك لوعيها الممكن الى حدوده القصوى من التجانس والوحدة ، الا ان هذا الوعى لا يمكن ان يفهم بصورة جيدة ، الا اذا تم ربطه بوعى اخر هو الوعى الواقعى الذى يحدده غولدمان بأنه خلاصة لمجموعة من الشروط والحيثيات التعويقية والتحريفات التى تمارسها الطبيعة ووعى الطبقات الاخرى على امكانيات تحقق الوعى الممكن للطبقة الصاعدة .

ان التعبير عن هذه الاوعاء لا يمكن ان يتم الا عبر شكل محدد ، وقد اخذ على غولدمان فى كثير من الاحيان اهماله للشكل واعطاؤه الاهمية الاولى للمحتوى ، دون ان ننفصل عن اساسيات هذه المؤاخذة ، نسمح لانفسنا ان ننتبه فى المقال الذى

خصصه غولدمان للشكل والتعبير الى احد الاراء المهمة التى تقربه من اسلوبية سبيتزر التكوينيه لقد انتبه الى التناغم والتوازن الزمنى فى الكوجيطو الديكارتى ورأى ان تناغم زمنى :

pense donc je suis يعبر عن النزعة التفاؤلية للعقلانية الديكارتية وانتبه من جهة ثانية الى أن الصعود العمودى للبداية والسقوط المفاجىء للنهاية فى جملة باسكال: Le silence eternel des espaces infinis n'effraic.

يكشفان جوهر الرؤية التراجيدية الا أن غولدمان مر بسرعة على هذه الملاحظة ليعود من جديد الى معالجة مفهوم الرؤية للعالم وما يهمنا هنا هو التأكيد على أن المعالجة الاسلوبية للاعمال الادبية لم تكن غائبة تماما عن غولدمان ، بل كانت فقط ثانويةوما كان يهمه أكثر هو رصد البنية الدالة الكلية .

ان التقسيم الذى اقترحناه لكتاب غولدمان بدأ يتوضح لمجرد دخولنا فى الفصل الثالث من الكتاب ، وبعد تطرقنا لمقاله عن التعبير والشكل توضح هذا التقسيم أكثر والان سنتعرض للتذييل الذى خص به الكتاب والذى يعتبر كما قلنا وكما أكد غولدمان نفسه جردا مختصرا لاهم محاور كتابه الذى سيظهر سنة ١٩٥٦ بعنوان : «الاله المختفى» .

فى البداية ، لا شىء يمنع من اقامة تعالق بين كتابات باسكال وراسين من جهة والاحداث الدينية والاجتماعبة والسياسية للعصر من جهة آخرى .

انطلاقا من هذا الافتراض يمكن ان نميز فى فكر باسكال بين مرحلتين على الاقل

تتميز الاولى بانفصال باسكال عن الدياتات بصفة عامة واهتمامه بالرياضيات أساسا وتتميز الثانية النى بمكن ان نسميها تراجيدية بأولية الاخلاق والرهان والاتصال بالجانسينية ان الرحلة الثانية من فكر باسكال تتعالق مع الاحداث التى عرفتها فرنسا ابتداء من ١٩٥٧ وآهم هذه الاحداث الاضطهاد الذى مورس على رهبان بور رويال من طرف الاسكندر السابع .

ونفس الشيء يمكن تسجيله بالنسبة لراسين ، وقد قابل غولدمان بين سنوات ظهور مسرحيات راسين وبين الاحداث السياسية والدينية التى عرفتها هذه السنوات وهكذا فان ظهور مسرحيتي «العزلة» و«الاسكندر» جاء موافقا لرغبة راسين العبثية فى الحصول على الامتيازات الكنسية ، وظهور تراجيديات راسين الثلاث النى ترفض الوفاق مع العالم يوافق توبة تورين .

أما باجازيت فتعتبر مسرحية للوفاق لانها تطابق المصالحة بين الجانسينية والسلطة ، وتوافق مسرحية مينربدات بداية العرب ضد هولندا آما ايفيجينى فتقابل تحالف الامبراطور مع الاسبان والهولندين.

ويعود راسين الى التراجبديا بمسرحية فيدر التى توافق التمردات الشعبية فى البروطان والمانش وبوردو، وتوافق مسرحة ايستير الثورة الانجليزية وأخيرا فان أتالى اعتبرته عند غولدمان مسرحية للاله الحاضر وللانتصار الداخل – عالمى للخير على الشر . وسيسعى غولدمان الى تطوير هذه التعالقات سنة ١٩٥٥ فى المقال الاخير من الكتاب بىن غولدمان بشكل نظرى ، علاقة البنيوية التكوينية بوصفها تصورا علميا للحياة الانسانبة ، بالابدا ع الثقافى موضحا فى نفس الوقت الاسس الابيستيمولوجية التي تسند نظريته .

ويمكن ان نقول عموما ، أن المقال تركز أساسا حول الذات فى الابدا ع الثقافى عن طربق الكشف عن التصور البنيوى التكوينى الذى برى أن الذات الحقيقية هى الذات الفوق فردية أو الذات الجماعية معارضا بذلك المقاربة التحليلية النفسية عند فرويد التى تقول بفردية الذات وانعزالها.

وقد بين غولدمان حدود نظريته فى هذا المقال كاشفا عن الطريقة التى تنزاح بها عن المقاربات الاخرى وضعية كانت أو وجودية أو تحليلية نفسية أو بنيوية شكلانية .

يفسح المقال الاخير امكانية لابراز أهم اختلافات غولدمات عن باقى المناهج النقدية السائدة ، وبذلك يكون غولدمان بعمله هذا ، قد حدد نظريته من مستوى ثانى ، مستوى لايجابه النظرية مباشرة عن طريق التوضيح والشرح والتعليق، بل عن طريق رسم الحدود التى تفصلها عن باقى النظريات الاخرى.

ان أهم التباس يجب أن يرتفع كلما تعلق الامر بالحديث عن غولدمان ، هو عدم الخلط بين نظريته البنيوية التكوينية وبين سوسيولوجية الادب التقليدية ، وقد أكد غولدمان غير ما مرة أن الاختلاف ليس بين هذين التصورين .

ففي الحين الذى تقدم فيه سوسيولوجية الادب التقليدية تصورا مبسطا حول العلاقة بين الواقع المجتمعي والعمل الادبى، يسعى غولدمان الى ايلاء الاعتبار للخصوصية المعقدة لهذه العلاقة .

ان العلاقة تقوم حسب هذه السوسيولوجيا بين محتوى الاعمال الادبية ومحتوى الحياة الاجتماعية ليصير الكون التخييلي، من هذا المنظور، مجرد استنساخ لمجريات الواقع وهو تصور نقع معه حتما فى نظرية الانعكاس الالى التى تربط قيمة أى عمل بقدرته على الرصد الوافى لادق تمظهرات الواقع ، ويبقى على المؤلف فى هذا التصور ، آن يعيد تجربته اليومية محاولا ان يلغى من عمله جنوح للخيال، وآن يمنع كل التغييرات التى يمكن أن تطرأ على هذه التجربة فى العمل الادبى.

ان العمل الجيد بهذا المعنى ، سيصبح هو العمل الذى يكشف أكثر عن نقص الخيال المبدع عند كاتبه .

أمام هذا التصور ، يقوم غولدمان نقط الاختلاف التالية :

١- ان العلاقة لا تتم أولا بين محتوى الاعمال الادبية ومحتوى الحياة الواقعية ، بل بين البنية الذهنية لمجموعة اجتماعية معينة والبنية الكلية الدالة للعمل الفنى أو الادبى المبدع .

٢- ان تصور سوسيولوجية الادب التقليدية لا يميز بين الاعمال الجيدة والاعمال الرديئة آى بين الاعمال التى تعبر عن رؤية متماسكة للعالم والاعمال التى ليست كذلك ، فكل عمل يعيد تجربة كاتبة ويعيد انتاج الواقع يعتبر مهما حسب هذا المنظور ، وهكذا يتم وضع الاعمال المتماسكة والموحدة والاعمال المشتتة والهزيلة على صعيد واحد .

٣- تفرض هذه السوسيولوجيا تحديدات صارمة على انطلاقات الخيال فى الاعمال الادبية جاهلة بذلك مشكل تماثل البنيات والحال أنه «يمكن لكون تخيلى ، غريب عن

العالم التّجريبى تماما فى الظاهر كخرافات الجن مثلا، ان يكون مماثلا تماما فى بنيتة لنجربة اجتماعية بعينها . . » [1].

٤- لا يعتبر العمل فى البنيوية التكوينية مجرد انعكاس للواقع بل هو تعبير متجانس عن أقصى التلاؤم مع الحقبقة الذى يمكن لمجموعة اجتماعية ان تصل اليه اى عن وعيها الممكن الاقصى وعن رؤيتها للعالم .

٥- وأخيرا ، فان تجربة الفرد ليست الا وجها جزئيا فى الابداع اذ ان المبدع الحقيقى هو «النحن» هو الذات الجماعية النى تلائم رؤيتها للعالم بنية العمل الفنى.

بمكننا اذن ان نفصل انطلاقا من هذه النقط الخمس ، بين التصور البنيوى التكوينى والتصور السوسيولوجى التقليدى .

الا ان النقطة الاخيرة تعتبر عند غولدمان نقطة مركزية ينفصل بها ايضا عن التصورين الوجودى والتحليلى النفسى.

فاذا كانت الوجودية ، انطلاقا من مفهومها حول الحرية والالتزام ، ترى ان الادب اختيار فردى حر يلزمه بالضرورة أن يكون ملتزما بقضايا مجتمعه ، وتهتم انطلاقا من هذا ببيوغرافية الكاتب ، فان البنيوية التكوينية فى الوقت الذى تقترب فيه من مفهوم الالتزام السارترى ، تريد ان تبتعد عن مفهوم الحرية الفردية للكاتب ليس فالكاتب الا فردا يندغم ضمن مجموعة يشاطرها وتشاطره نفس القضايا ونفس الحلول ولذلك فهو لا يعبر عن فرديته مؤسسا بذلك حريته الخاصة ، بل يعبر فى العمق عن ذات فوق فردية تمتلك بنية مقولية متجانسة ، من هنا فان الاهمية التى يجب ان تعطى للبيوغرافية يجب ان تكون نسبية ، ففى الحد الذى تسمح فيه هذه البيوغرافية بالقاء الضوء على البنية الكلية ، تكون قد قدمت عنصرا مساعدا يمكن أن يفيد استدعاؤه فى تفسير العمل ، ولكن فى الحد الذى بتم فيه استقدام هذه البيوغرافية بغاية اعطائها مركزا بؤريا فى التفسير، فان الامر قد نؤدى الى بعض المازق المنهجية : ماذا سيكون الحال مثلا اذا كان الامر يتعلق بدراسة عمل أدبى مات كاتبه منذ مدة بعبدة ؟ وجوهر هذا الانتقاد هو الذى يوجهه غولدان ايضا الى المقاربة التحليلية النفسية التى تراهن على الاهمية المطلقة للفرد فى الابداع الادبى والفنى والتيولوجى .

---

(١) ل. عولدمان ١٩٧٠ ت مصطفى المسناوى .

بيتدأ غولدمان فى مناقشته لهذه المسألة ، يعرض نقط الالتقاء بين التصورين البنيوى التكوينى والتحليلى النفسى مؤكد ان التحليل النفسى فى هذه النقط بالضبط يعتبر بدوره بنيوية تكوينية ، سنختصر هذه النقط انطلاقا من مقال غولدمان «الذات فى الابداع الثقافى» الذى نشر فى كتابه . «الماركسية والعلوم الانسانية» . يشير غولدمان الى أنه وضع هذا المقال بقصد توضيح الفرق بين السوسيولوجيا الدياليكتيكية والتحليل النفسى .

تتركز النقط المشتركة فى أن :

١- كلا من الاتجاهين يؤكد الا شيء يعتبر خاليا من المعنى على المستوى الانسانى.

٢- ان كلا من البنيوية التكوينية والتحليل النفسى يدمجان الموضوع المدروس فى كلية نسبية تسمى بنية.

٣- ان هذه البنية ليست قارة ولكنها تتدرج ضمن سيرورة تكون ، وليس بالامكان فهمها وتفسيرها الا انطلاقا من هذه السيرورة [٢].

أما نقط التباين فتتلخص فى نقطة اساسية تتفرع عنها نتائج فرعية ان أهم انتقاد يمكن ان يوجه الى فرويد والى التحليل النفسى الذى يستند على الفرويدية هو اعتباره للذات الحقيقة فى الفكر والسلوك ذاتا فردية معزولة لا ذاتا جماعية متعددة ، وفرويد بهذا لا ينفصل عن الانا الديكارتى أو الفيختى او الانا المتسامى للكانطيين الجدد يحدد غولدمان نقط الاختلاف على الشكل التالى :-

١- يقتصر التحليل النفسى على تجميع « الوثائق الشفوية »والبيوغرافية التى يحتاجها المحلل النفسى لتحليل المريض هذا التصور يطرح نساؤلا اساسيا ما قيمة تفسير تحليلى نفسى لعمل كاتب لم يعرفه المحلل فقط ولا يمتلك عنه الا بعض الشهادات من الدرجة الثانية ؟

٢- لم يصل هذا التحليل قط الى الالمام بمجموع العمل ، بل يقتصر فقط على تفسير عنصر منه أو بعض عناصره .

٣- النقطة الثالثة ، وليست الا وجها اخر للملاحظة السابقة ، هى ان التحليل النفسى حين يحلل بعض عناصر العمل ، يتصورها كما يتصور المحلل الاعراض المرضية

---

(٢) انظر تفصيل ذلك فى غولدمان ١٩٧٠.

، ولا يرصـد قط الخصوصية الادبية والفسفية التى تعتبر سمة مميزة لكل عمل ادبى مهم [٢] .

ومن جهة ثانية فان البنيوية التكوينية ، التى تتجاوز هذه المأزق، تنتبه الى مقولة المستقبل التى تعتبر غائبة تماما عن الفكر الفرويدى ، ذلك ان مستقبل الفرد فى هذا التصور ينتهى بعد موته ، والحال ان قيم الجماعة لها امتداد فى الماضى واستمرار فى المستقبل حسب التصور الدياليكتيكى.

لقد اشرنا فيما قبل الى أن ادراج البنية ضمن سيرورة تطور ، تعتبر نقطة مشتركة بين البنيوية التكوينية والتحليل النفسى ، وسنرى الان كيف أن غولدمان يوجه نقدا خاصا لما يسميه البنيوية الشكلانية فى هذه النقطة بالذات .

نسجل فى البداية ان اخر مقال فى الطبعة الثانية من الكتاب المترجم قد ادرج سنة ١٩٦٦ وهى سنة صدور عدد مهم من المقالات والكتب التى قاربت انطلاقا من المنظور البنيوى العديد من القطاعات الابداعية والفكرية . واذا اكتفينا بمن أحال عليهم غولدمان نفسه ، فاننا سنجد ان السنة عرفت صدور العدد ٨ من مجلة Communi-cations الذى نشر فيه كل من بارث وغريماس ، وفى السنة نفسها نشر فوكو كتابة Les nots et les choses ونشر سنروس Strauss كتابة "Mythologiques du miel aux cendres" ونشر التوسر Althisser كتابه "Pour Marx" "Live, le capital" ونشر لاكان Lacan أجزاء كتابه "Ecrits". أن هذه السنة التى يمكن ان نعتبرها بحق السنة المؤشرة على نسبة المفاهيم الغولدمانية وعلى نسبة تصوره ككل ، وظهرت الى حد ما من خلال مقال البنيوية التكوينية والابدا ع الثقافى ، أهم انتقاد يوجهه غولدمان للبنيوية التكوينية . فاذا كانت البنيوية التكوينية تعطى ثقلا خاصا للاهمية الجوهرية للبنيات بالنسبة لفهم التاريخ فانها تؤكد بالاضافة الى ذلك على أن هذه البنيات يجب ان ترتبط دائما بالانسان وبالسلوك ، بل يجب ان تعتبر خاصية جوهرية لسلوك الذات الفوق – فردية . من هنا اهمية مفهوم البراكسيس فى المنظور

---

(٢) نظر نفصيل ذلك في مقال غولدمان «البنيويه التكوينيه في سوسيولوجية الادب» ضمن كتاب جماعى بعنوان «البنيويه التكوينيه» لوسيان غولدمان.

الغولدماني ان البنية عن طريق ارتباطها بسلوك الناس تعتبر الان تطورا لبراكسيس سابق وسيتغير حتما لتصير براكسيسا لاحقا ، ويمكن ان نقول باختصار ان النبية تخضع لسيرورة تحولية ويجب ان نتوقف عن اعتبارها بنية ثابتة مستقلة عن السلوك الانساني «وللأسف يقول غولدمان ، فان لكلمة بنية وقع سكوني ، ولهذا فهي غير مضبوطة بصرامة يجب الا نتكلم عن البنيات – فهذه الاخيرة لا توجد في الحياة الاجتماعية الا نادرا ولوقت قصير جدا – بل عن سيرورة التبنين " (٤).

الا أنه يصعب علينا ، يرى غولدمان ، ان نقوم بدراسة سيرورة التبنين هذه من وجهة نظر اسلوبية ، واذا كانت البنية تتعرف في تعارضها مع التشتت ، فان التبنين يتعرف في تعارضه مع انهدام التبنين.

اذن فغولدمان ينطلق من اعتبار يرى فيه ان كل المقاربات البنيوية تقوم برصد الجانب السانكروني هاملة بذلك الجانب الدياكروني ، ويسلم من جهة ثانية بصعوبة تطبيق تصوره ، حول هذه النقطة بالذات ، علي المظاهر الاسلوبية .

واعتقد ان التسليم بالصعوبات التي يواجهها المنهج، ليس الغاء لهذه الصعوبات ان الوضعية الحقيقية التي كان على غولدمان ان يتخذها تجاه الصعوبات كهذه ، هي مجابهتها وابراز قدرة المنهج على تذليلها ، وبالفعل فقد حاول غولدمان بعض ذلك في دراسته عن مسرح جونيه Genet لكنه لم يذهب بمشروعه الى أبعد الحدود كما ان الهاجس النظرى لغولدمان في هذه الدراسة ايضا ظل هو تعقب مفهوم الروية لعالم . ولذلك فان انتقاد البنيوية له ، من أنه يهتم فقط بالمحتوى دون اعطاء كبير اهمية للشكل يظل قائما ، بالرغم من أن غولدمان يؤكد على ان عمله ليس الا درجة آولى من الشكلنة وعلى ان تخصصه يفرض عليه فقط استخلاص البنية الدالة للاعمال الادبية والبيتولوجية .

واضح من خلال انتقاد غولدمان للبنيوية ان الامر يتعلق بمواجهة بين تصورين يسعى كل منهما الى اثبات فرضياته وتصوراته ، وهذا واضح من خلال اسلوب غولدمان السجالي نفسه ، وهو عكس ما لاحظناه أثناء مناقشته لسوسيولوجية الادب

---

(٤) نفســـه ص ٢٧ .

الميكانيكية وللنقد الوجودى وللتصور التحليلى النفسى . ونريد ان ندلل بهذه المواجهة على بداية تراجع المد البنيوى التكوينى ، أمام التصور البنيوى عامة وأمام التطويرات التى ستخضع لها البنيوية التكوينية على يد تلامذة غولدمان الذين نذكر منهم اساسا جاكى لينهارت Jacques Leenhardt وبيير زيما P.Zima ومشيل زيرافا M. Ziraffa .

نستطيع الان بعد هذا الجرد الواضح الاختصار أن نقف بسهولة على أهم مرتكزات التصور البنيوى التكوينى ، ولكن هذه المرة ، ليس عن طريق رسم الحدود بينه وبين التصورات الاخرى ، بل عن طريق تقديمه كتصور مستقل ومتميز.

تنطلق البنيوية التكوينية ، باعتبارها تصورا علميا للحياة الانسانية ، من الفرضية التالية . كل سلوك وكل فكر يعتبران محاولة لتقديم جواب دال عن وضعية محددة يعيشها افراد فئة اجتماعية معينة ، بشكل يجعلهم يصطدمون بنفس المشاكل والعوائق ويحلمون بنفس المثالات والمطامح ، كما ان هذا السلوك من جهة ثانية يعتبر محاولة لخلق توازن بين الذات الفاعلة والموضوع المفعول.

انطلاقا من هذه الفرضية ، يرى غولدمان ان هناك بنيات مقولية او بنيات ذهنية هى التى تحكم سلوك المجموعة الاجتماعية وفكرها ، وهذه البنيات لا يمكن ان نقول عنها انها واعية او لا واعية بالمعنى من المعانى بالبنيات العضلية والعصبية التى تتحكم فى حركاتنا واشاراتنا . ان الامر اذن يتعلق بوعى جمعى يشترك فيه افراد المجموعة الاجتماعية ، وبالرغم من ان غولدمان يشير الى أن هذا المصطلح يثير بعض الالتباس ويفضل عليه مفهوم « وعى المجموعة » شريطة ان يصاحب قدر المستطاع بمجموعة من التخصيصات مثل العائلى ، الحرفى، الوطنى أو الطبقى الخ ، فان هذا المفهوم يمكن ان يعرف كالتالى هو ميل مطابق لاحساسات وتطلعات وافكار واعضاء الطبقة ، ميل يتطور بالتحديد انطلاقا من وضعية اقتصادية واجتماعية تولد نشاطا ذاته هى المجموعة الحقيقية أو الممكنة »[٥] .

ان تحديد الوعى الجمعى باعتباره كذلك يقودنا الى مسألة الذات فى الفكر والفعل التى أكدنا فيما قبل انها جماعية بالضرورة . ان هذه الذات الجماعية هي التى تبين

---

(٥) ل. غولدمان ١٩٥٦ ص ٢٧ .

خطأ التصور الذى يرى فى الفرد ذاتا مطلقة فى الفعل وكان الامر يتعلق بأن الضمير 'انا' ليس له جمع اى ليست له 'نحن'. ولهذا يفضل غولدمان أن يتكلم عن "المجموعة الذات" التى تعتبر المحرك الاساسى لفاعل الفعل .

الا ان هذه المجموعة تنقسم حسب غولدمان الى قسمين كل قسم يقابله وعى جمعى خاص .

١- هناك أولا مجموعات كالعائلة والمجموعات المهنية التى لا تسعى الا الى بلورة بعض المواقف داخل بنية مجتمعية معطاه ، ونسمى الوعى الذى يطابق هذه المجموعات وعيا ايديولوجيا .

٢- هم هناك المجموعات الاجتماعية المتميزة التى يسعى وعيها وسلوكها نحو اعادة تنظيم كلى لكل العلاقات الانسانية ولعلاقات الانسان مع الطبيعة .

من هنا يتضح ان الوعى الفردى لا يمكن ان يكون الا تشويشيا وخليطا لا يطبعه التماسك والانسجام ويتبع ذلك أن دراسته تصعب بل تتعذر «سيكون صعبا للغاية أن ندرس وعيا فرديا ، بالتحديد بسبب خاصيته الواحدية والمعقدة» (٦).

وما يمكن دراسته بالفعل هو العلاقة بين الوعى الممكن والوعى القائم عند مجموعة اجتماعية معينة . فكل فئة اجتماعية تمتلك وعيا بصدد القضايا والاشكالات التى تواجهها وفى نفس الوقت تمتلك نموذجا مثاليا عما تريد أن تكونه عن الوضعية التى تطمح الى الوصول اليها ، اذن «فعندما نريد دراسة وقائع الوعى الجماعى أو بدقة اكثر درجة التلاؤم مع الواقع لدى وعى مختلف الفئات المكونة لمجتمع ما ، فانه يلزم البدء بالتمييز الاولى بين الوعى القائم بما له من مضمون ثرى ، متعدد ، وبين الوعى الممكن باعتباره الحد الاعلى من التلاؤم الذى يمكن ان تدركه الجماعة بدون ان نغير طبيعتها »(٧).

فالمجموعة انطلاقا من هذا التصور تسعى الى الدفع بوعيها الممكن الى درجة عليا من الاستثنافى الذى يستطيع صهر كل طموحات مجموعته فى علم فنى أو فلسفى

---

(٦) انظر مقال غولدمان ضمن الكتاب الجماعى المذكور ص٢٢.

(٧) غولدمان ١٩٧٠ ترجمة برادة ص ٢٧.

مميز وكلما كان الفرد خلاقا وعبقريا ، كلما تمكن من التعبير بشكل ملتحم عن وعى طبقته الممكن الاقصى ، ولذلك فان بيوغرافية هذا الفرد وقصده الواعى لا يحتاجهما المحلل الذى يسعى الى استخلاص بنية العمل الدالة ، أما فى الحالة التى لا يكون فيها هذا الفرد عبقريا بمعنى الكلمة فان بيوغرافيته وقصده الواعى قد يفيدان وقد لا يفيدان ولذلك يجب الا نعطيهما أهمية حاسمة ونهائية فى التحليل.

اذن فالفرد يبدع كونا متخيلا يعبر به عن رؤية معينة للناس وللطبيعة تمظهرها الفئة الاجتماعية التى انصهر مع مشاكلها يسمى غولدمان هذه الرؤية : رؤية للعالم ويعرفها كالتالى : «هى بالتحديد هذا المجموع من التطلعات والاحاسيس والافكار التى توحد اعضاء مجموعة معينة(وفى الاغلب طبقة اجتماعية) وتجعلهم فى تعارض مع المجموعات الاخرى » (٨) .

فكل عمل ادبى أو فنى متميز هو فى العمق تعبير عن هذه الرؤية وتجسيد لها شريطة ان ينظر الى هذا العمل فى كليته مادام هيغل يؤكد ان «الحقيقى هو الكل» . ولهذا فالفكر الدياليكتيكى يؤكد ان الفكر بصفة عامة لا يتقدم فى خط مستقيم الا اذا انطلق من الجزء الى الكل ومن الكل الى الجزء أى الا اذا أدرج فى محيطه المحتضن son nilieu ambiant وتم النظر اليه فى علاقته به.

ان الوعى بهذه العلاقة وبخاصيتها المعقدة يقودنا الى فكرة تماثل البنيات عند غولدمان وتعتبر هذه المقولة أهم مقولة شغلت هذا المفكر فى كتابه " من أجل علم اجتماع للرواية " وتقوم على الفكرتين التاليتين : مسألة التقابل بين البنية الروائية الكلاسيكية وبين بنية التبادل فى الاقتصاد الليبرالى الحر ، ومسألة توازى التطورات اللاحقة لهاتين البنيتين ، ويمكن أن نعتبر مفهوم تماثل البنيات مفهوما محوريا عند غولدمان طالما أن العلاقة بين الادبى والمجتمعى هى التى تشغل أكثر اهتمام المفكر .

---

(٨) غولدمان ١٩٥٦ ص٢٦.

ان التأرجح بين الادبي والمجتمعي ، يساوقه على مستوى المنهج تأرجح بين الفهم والتفسير. لنسجل في البداية أن شكل المنهج بالنسبة لغولدمان هو " مشكل تقطيع المعطى الامبريقي الى كليات نسبية مستقلة بما فيه الكفاية لكي تعمل كإطار لعمل علمي[9]. ويصور هذا المنهج كخطوات اجرائية تتم عبر مرحلتين . مرحلة استخلاص البنية الدالة من العمل ، ويجب أن يكون التحليل في هذه المرحلة تحليلا محايثا يقتصر على النص وحده ولا شيء غير النص ، أما المرحلة الثانية فهي ادراج هذه البنية ضمن بنية أوسع تسمح بتفسير البنية الاولى ، تسمى المرحلتان : مرحلتا الفهم والتفسير ، اذن فالانطلاق من الاولى الى الثانية هو انطلاقا من الادبي الى المجتمعي ، الا أن المرحلة الاولى فقط هي التي يتم فيها تقطيع المعطى الامبيريقي الى كلياته النسبية .

تلك اذن هي أهم مرتكزات البنيوية التكوينية عند غولدمان ، وقد تطلب جردها الكشف عن شبكتها المفاهيمية والتي حددها سامي ناير Sami nair في كتاب " البنيوية التكوينية : لوسيان غولدمان " وهو كتاب للمجموع ، على الشكل التالي البنيات المقولية (الذهنية) ، الكلية ، الهوية الجزئية للذات والموضوع ، الرؤية للعالم ، الوعي الممكن، الذات الفوق – فردية ، تماثل البنيات ، الفهم ، التفسير ، التحليل ، المحايث ، التشيؤ. واضح اذن ان مقولة التشيؤ ، هي وحدها من بين هذه المقولات – المفاتيح ، التي لم تتم الاشارة اليها في العرض السابق ، وذلك لان هذه المقولة استغلها غولدمان أساسا في كتابه " من أجل علم إجتماع للرواية " الذي صدر سنة ١٩٦٤ ، دون أن يتوسل بها بشكل جوهري ، في باقي دراساته الاخرى ولكن هذا لا يمنع من أنه خصص لها مقالا في كتابه " بحوث جدلية " وتطرق لها في العديد من المقالات الاخرى.

يرى غولدمان أن البروليتاريا والمنظرين الذين يحاكمون العالم انطلاقا من وجهة نظرها " يجدون أنفسهم بالقوة ، أكثر من أي أحد اخر ، وربما لوحدهم ، في حالة رفض التشيؤ واعادة الخاصية الانسانية لكل المشاكل الفلسفية، الدينية والاخلاقية، الخ[10] .

اذن ففي المجتمع الرأسمالي التكنوقراطي تفقد كل القيم خاصيتها الانسانية وتعوض بقيمة مطلقة ووحيدة هي قيمة التبادل ، ويسعى الوعي البروليتاري الى تجاوز

---

(٩) غولدمان ١٩٥٦، ص ٢١ .

(١٠) غولدمان ١٩٥٨ ، ص ٩٨ .

هذه القيمة واستبدالها بقيم انسانية حقيقية ، وهذا فان ابطال اندريه مالرو بوصفهم ابطالا اشكاليين كانوا يسعون بشكل منحط الى تأصيل قيم انسانية فى مجتمع متهرىء القيم ، كما أن الهيمنة البارزة لوصف الاشياء فى الرواية الجديدة ، وخاصة عند روب غرييه ، تؤشر على التشيؤ الحقيقى للقيم فى المجتمع الرأسمالى .

فمقولة التشيؤ اذن فرضها الموضوع الدروس ، ولهذا فهى لم تحتل مركز الصدارة فى أعمال غولدمان الاولى التى هيمنت فيها مقولة الرؤية للعالم ، وحتى سنة ١٩٦٤ سنة صدور " من أجل علم إجتماع للرواية " ، نجد ، سواء فى كتابات غولدمان المتكاملة " كالاله المختفى أو فى الحالة التى تتشكل من مقالات ك " بحوث جدلية " ، أن المقولة التى تتكرر هى مقولة " الرؤية للعالم " ، ولكن ابتداء من هذه السنة نجد أن غولدمان تخلى عن هذه المقولة ليستبدلها بمقولات أخرى كالتشيؤ والتناظر homologie والتبادل Echange ، واعتقد ان هذا هوالسبب الذى دفع سامى نابر Sami Nair[11] الى تقسيم نتاج غولدمان الى مراحل : فهناك مرحلة تمتد من ١٩٤٨ سنة صدور " المجموعة الانسانية والكون عند ايمانويل كانط " حتى سنة ١٩٥٨وهناك مرحلة تمتد من ١٩٥٨ حتى ١٩٦٨ ، واعتقد أن الامر لا يتعلق ، كما يرى نابر ، بالتقسيم المرحلى بل بالموضوع الذى يخضع للتحليل ، وهكذا فان مسألة مراحل الفكر الغولدمانى لا تستند الى مبرر ، اذ أن المشروع النظرى للمنكر ظل هو هو ولم يتغير سوى الموضوع الذى خضع للدراسة اذ كان فى الاول هو المسرح الراسينى والفكر التيولوجى الباسكالى ، ثم أصبح فبما بعد هو الرواية الجديدة وروايات مالرو ، فالمسألة مسألة تغير مفاهيم المقاربة علما بأن هذه المفاهيم بمجملها تنتظمها الشبكة المفاهيمية الماركسية . يبقى اذن ان نتساءل عن المقصود بمفهوم المرحلة عند نابر ، هل يعنى به فقط تغير مفاهيم غولدمان أم يعنى به شيئا اخر ؟

وكيفما كان الحال فان الأساس النظرى لغولدمان وكذلك المفاهيم الاجرائية التى ترتبط به ، ظل ثابتا فى معظم كتاباته وهذا ما يدفعنا الى البحث عن تدليل على هذه الفرضية ، عن طريق ادراج الكتاب المترجم ضمن النتاج الغولدمانى ككل محاولين تعقب مفاهيم هذا المفكر انطلاقا من سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٧٠ سنة وفاته .

---

(١١) انظر تفصيلا لذلك في سامي نابر ١٩٧٧ .

معلوم ان اول كتاب بلور فيه غولدمان نظريته هو كتاب " المجموعة الانسانية والكون عند كانط " . صدر هذا الكتاب سنة ١٩٤٨ وخصصه غولدمان للفكر الفلسفى الكانطى محاولا تجريب منهجه الدياليكتيكي على النسق الفلسفى لهذا الفكر ، ودون أن نقف عند دقائق هذه الدراسة التى نعترف اننا لم نتمكن من الحصول عليها ، نقول استنادا على الكتاب المترجم أن كانط ، حسب غولدمان ، لا يمكن أن يفهم بشكل موضوعى الا اذا ربطنا فلسفته ببنيتها الاجتماعية التحتية ، وهذه البنية التحتية نفسها ، لا يمكن أن تفهم بوضوح ، الا اذا ربطناها بفكر هذا الفيلسوف ، فالدياليكتيك يتيح لنا امكانية رصد علاقات التأثر والتأثير بين عمل كانط وبين الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تشرطه . وهكذا فالفكر الكانطى ، يهم بشكل جيد اذا اعتبرنا هذا المفكر فيلسوفا للوضعية التراجيدية التى وجدت البرجوازية الالمانية للقرن الثامن عشر نفسها فيها ، هذه البورجوازية بابتكارها لفكرة " الخير المتسامى " كانت تطمع فى ثورة لم يكن بمستطاعها القيام بها أبدا ، ولم يكن كانط الا المعبر الاستثنائى عن رؤيتها للعالم وعن وجهة نظرها حول مجموع الواقع .

وقد أعاد غولدمان صياغة تصوره هذا ، بشكل نظرى ، سنة ١٩٥٠ من خلال المقال الذى نشره فى مجلة "Metaphisique et ethique" وأعيد نشره فى كتاب " بحوث جدلية " تحت عنوان : " المادية الدياليكتيكية وتاريخ الادب "

يلخص هذا المقال العديد من طروحات غولدمان والعديد من مفاهيمه التى توقفنا عليها فيما قبل ، ويؤكد كذلك انفصاله البين عن مثلث هـ . تين taine الذى يفسر العمل الادبى انطلاقا من البيئة والجنس والعصر ، ودون أن نسقط فى الاحترار والتكرار ، نشير الى أن هذا المقال قدم بشكل خطاطى مجمل المفاهيم التى سيشتغل بها غولدمان فيما بعد فى دراساته التطبيقية كالرؤية للعالم التى عرفها بوصفها " نسقا من التفكير يفرض نفسه ، فى بعض الشروط ، على زمرة من الناس توجد فى أوضاع اقتصادية واجتماعية متشابهة ، أى على بعض الطبقات الاجتماعية " (١٢)

وكمفهوم العبقرية ومفهوم الذات الجماعية الخ التى سوف لن نتوقف عليها بتطويل لاننا قمنا بذلك سابقا . ما يهمنا من هذا المقال هو كونه يعتبر زمنيا المقال الذى سبق

---

(١٢) غولدمان ١٩٧٠ II ترجمة برادة ، ص ١٥ .

مباشرة الكتاب الذى قمنا بترجمته ، ويبلور مثله مثل الكتاب المخصص لكانط ، نفس المفاهيم ونفس الطروحات .

واذا امكن أن نعتبر كتاب غولدمان الاول تطبيقيا ومقاله الثانى نظريا ، فان كتاب " العلوم الانسانية والفلسفة " يمكن أن يعتبر ، فى شطره ، حسب التقسيم الذى اقترحناه ، مناقشة مستفيضة للتيارات السوسيولوجية التى كانت مهيمنة فى تلك الفترة ، وفى شطرة الثانى بلورة لاهم مفاهيم البنيوية التكوينية فى النقد الادبى بشكل يدفعنا الى اعتباره مشروعا خطاطيا يظهر ومنذ ١٩٥٢ مجمل المفاهيم الغولدمانية لا التى بلورت قبله ولا التى ستتبلور بعده ، ولعل السبب فى ذلك هو أنه تقريبا هو كتاب غولدمان الاول الذى كشف عن موقفه السوسيولوجى عامة وبصفة أدق عن موقفه الفلسفى وتصوره للتاريخ ، وعن موقفه من سوسيولوجية الادب خاصة بوصفها فرعا من علم الاجتماع العام . وبذلك فالكتاب يشمل تحديد العام والخاص أو اذا أردنا أن نستعين ب سامى ناير قلنا أنه هو الكتاب الذى يشمل كل المواضيع التى يرتسم حولها المتن النظرى لغولدمان وهى : الفلسفة ، سوسيولوجية الادب وسوسيولوجية السياسة[١٣] .

واعتبارنا له مشروعا خطاطيا ينطلق من أنه كتاب يختزل كل المواقف التى سيطورها غولدمان فيما بعد سواء بشكل تطبيقى فى كتابيه " الاله المختفى " من أجل علم اجتماع للرواية ". وبالرغم من أنه تخلى فى هذا الأخير عن مفاهيم كالرؤية والوعى الجمعى وغيرهما ، فان مفاهيم ماركسية أخرى حددت سنة ١٩٥٢ وتم التوسل بها فى هذا الكتاب كمفهوم الطبقة ومفهوم البنية التحتية ومفهوم الكلية ومفهوم الايديولوجيا ومفهوم تطابق الذات والموضوع أى الانطلاق على المستوى المنهجى من مجموعة من المواقف الخ ، أقول سواء بشكل تطبيقى فى الكتابين المذكورين ، أو بشكل نظرى فى كتبه الذى جمع فيها مجموع مقالاته ككتابيه " بحوث جدلية " التى صدر سنة ١٩٥٨ و"الماركسية والعلوم الانسانية " الذى صدر سنة ١٩٧٠ . علما بأن " نظرية " هذه الكتب ، ليست الا جزئية ، لانها بدورها تشمل بعض التطبيقات التى يمكن أن نعتبرها بعامة سريعة تكرارية .

(١٣) انظر سامي ناير ١٩٧٧ .

الا أن الكتاب المترجم وان كان يتميز بخاصيته الشمولية التى تتلخص فى كونه يعطينا فكرة شبه متكاملة عن غولدمان السوسيولوجى والفيلسوف والناقد الادبى ، فان مع ذلك يجب الا يحجب عنا الخاصية الايديولوجية للكتاب ، بل يجب أن يدفعنا الى أن نناقش غولدمان بنفس سلاحه وأن نتساءل عن البنية التحتية التى تحكمه والتى تؤطر رؤيته للعالم .

لن تكون هذه البنية التحتية سوى الفلسفة الماركسية ، ولن تكون الرؤية التى يعبر عنها غولدمان سوى رؤية البروليتاريا ، التى ترى فى السوسيولوجيات العلموية ، سوسيولوجيات تسعى الى تهميش الانسان وفعله وترى فى التحليل النفسى علما يسعى الى تشتيت تكتل المجموعة وتأسيس انعزالية الفرد لكى يسهل هزمه ، وترى فى الفلسفات العقلانية والفينوسيولوجية والوجودية ، فلسفات متجاوزة يجب أن نتخلص من هيمنتها ، والا فما معنى أن يخصص عنوان مطلق العمومية ك " العلوم الانسانية والفلسفة " لكتاب لا يناقش فى الواقع من العلوم الانسانية الا التاريخ والسوسيولوجيا ويكاد يلغى تقريبا علم النفس والانتروبولوجيا ، ولا يناقش من الفلسفة الماركسية ولا يتحدث الا عرضا عن الفلسفات الاخرى ؟ فالفلسفة عند غولدمان اذن هى الماركسية والعلم الانسانى الوحيد بالنسبة له هو السوسيولوجيا التاريخية أو التاريخ السوسيولوجى، وبسهولة يتم التركيب نحن إذن بصدد المادية الدياليكتيكية والمادية الجدلية .

دون أن نتتبع تمظهرات هذا الطرح فى الكتاب ويمكن للقارىء أن يتتبعها سواء فى المختصر الذى قدمناه عن الكتاب أو فى الترجمة - نريد أن نرجع الى الفكرة التى نروم نطويرها هنا وهى تتبع المسار الفكرى الغولدمانى عبر نتاجه الخاص .

اذن فاول كتاب صدر لغولدمان بعد الكتاب المترجم هو كتاب " الاله المختفى (دراسة للرؤية المأساوية فى أفكار باسكال وفى مسرح راسين) " ، ويعتبر هذا الكتاب هو المحك التجريبى لمفهوم الرؤية العالم . فبعد فصل أول خصصه غولدمان لعلاقة الاجزاء بالكل وعلاقة الكل بالاجزاء ، وهى فكرة تطرق لها أيضا فى الكتاب المترجم ، خصص الفصل الثانى لمكونات رؤية العالم عند باسكال وهى : الله والانسان والعالم

وربط هذه المكونات بمقاطع " الافكار " مبينا أن فكرة الرهان هى الفكرة التى كانت تهيمن على باسكال الفرد الخلاق الذى كان يعبر عن اخلاقيات بور رويات التى تلتقى فى العمق باخلاقيات الجانسينية المتطرفة التى حيدت Neutraliser ملكية القرن السابع عشر كل حقوقها وهمشتها . ونفس الرؤية يستخلصها من مسرح راسين مميزا فيه بين مجموعة من المسرحيات توازيها بعض الاحداث الاجتماعية المحددة كما اشير لذلك فيما قبل ، على أن مسرحيات راسين التى ترفض الوفاق مع العالم وتلتقى باخلاق الجانسينية هى المسرحيات الثلاث التالية . اندروماك بريطانيكوس ، بيرينيس التى يقابلها تاريخيا حدث توبة تورين .

لا يهمنا هنا عرض أفكار غولدمان أو الوقوف بتفصيل عند أهم القضايا المثارة فى الكتاب ، بل ما يهمنا بالفعل ، هو أن المفاهيم التى أثارهاالكتاب المترجم بشكل مختصر ، فصل فيهاكتاب "الاله المختفى " ، وهذا يدعم الرأى الذى ندافع عنه أى اعتبار كتاب " العلوم الانسانية " مشروعا خطاطيا لنسق غولدمان الفكرى ككل .

ونفس الشيء يمكن أن نسجله بسرعة اذا انتقلنا الى كتاب غولدمان " بحوث جلدية " الذى صدر سنة ١٩٥٨ أى بعد صدور " الاله المختفى بسنتين .

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات ، وهذه المقالات اما تعريف ببعض مقولات الفكر الماركسى كمقال " التشيؤ " مثلا ، واما تكرار لبعض القضايا العامة المتعلقة بالبنيوية التكوينية كمقال " المادية الدياليكتيكية و تاريخ الادب " ومقال " ملاحظات حول الجانسينية : الرؤية التراجيدية للعالم و نبالة الرداء " و مقال "هل كتب الرهان " من أجل المتحرر " ؟ و غيرها من المقالات التى لا يمنعنا من ايراها الا خوف التطويل و خوف التكرار .

نأتى الان الى الكتاب الذى تخلى فيه غولدمان عن مفهوم الرؤية للعالم ليستبدله بمفهومى تماثل البنيات و التشيؤ ، مثيرا بذلك عند بعض الباحثين بعض الالتباسات المتعلقة بتقسيم غولدمان الى مرحلتين . مرحلة ١٩٥٦ و مرحلة ١٩٦٤ ، صحيح أن غولدمان أكد أن الاندفاع المتصاعد لهيمنة السوق هرأ القيم الانسانية الحقيقية وشيئها وعوضها بقيمة التبادل التى تعتبر مظهرا خاصا للمجتمع الرأسمالى ، وصحيح أنه

حاول أن يبحث عن التناظر بين بنية الرواية الكلاسيكية و بنية التبادل فى الاقتصاد مستلهما من لوكاتش مفهوم البطل الاشكالى[١٤] ، ولكن يجب أن ننتبه أيضا ان غولدمان بالرغم من استبداله لمفاهيم بأخرى ، ظل بصدر دائما عن منهجه الدياليكتيكى الماركسى بل إن الكثير من المفاهيم التى بلورها قبل سنة ١٩٦٤ اشتغلت فى كتابه عن سوسيولوجية الرواية بشكل واضح كما أكدنا فيما قبل ، فالامر اذن يتعلق بتغيير فى الموضوع الخاضع للتحليل ، نتج عنه تغيير لبعض المفاهيم مع ان المفاهيم الاولى والثانية تخضع بمجملها لمرجعية واحدة . هذا فضلا عن أن بعض كتب غولدمان التى ستلى كتاب من " أجل علم اجتماع الرواية " ستعود لمقولة رؤية العالم وتلغى فرضية غولدمان نفسها التى تقول بامكانية غياب كل وعى جمعى فى المجتمع التكنوراطى . ان هذا يدفعنا الى التساؤل التالى : هل غير غولد مان موقفه فى سنتين حين عاد الى التوسل بمفهوم رؤية العالم فى دراسته عن مسرح جان جونيه سنة ١٩٦٦ ؟ لا يتعلق الامر هنا فيما اعتقد تغير فى المواقف كما تريد أن تثبت ذلك مقولة " المرحلة التى قال بها كل من سامى نابر و بيير زيما[١٥] ان الشبكة المفاهيمية لغولدمان ظلت ثابته طيلة حياته ، وطرأعليها تغير لم يغير فى جوهرها سنة ١٩٦٤ ثم تمت العودة اليها بعد ذلك ، وهذا يفسر على المستوى الكمى أيضا ، فمعظم كتابات غولدمان ، باستثناء " من أجل سوسيولوجية للرواية " نسبيا ظلت تردد فى نفس المفاهيم وتكررها وتقلب فى تعريفاتها مما جعلنا نعتبر اللجوء الى مفهومى التشيؤ الشبه تام quasiy-totale والتماثل لا يشكل مرحلة قائمة الذات عند غولدمان ، والا فكيف نسلم من الاضطراب اذا سلمنا بمقولة " المرحلة " ونحن نعلم أن غولدمان عاد الى مفاهيمه الاساسية بعد مدة وجيزة ؟ هل سنعتبر كتاب ١٩٦٤ مرحلة وحده ؟ أم سنعتبر كما فعل نابر الحيز الزمنى الممتد من ١٩٥٨ حتى ١٩٦٨ يشكل مرحلة واحدة بالرغم من أننا نعلم أن سنة١٩٦٦ سجلت العودة الى مفهوم الرؤية للعالم ؟ هذه بعض العوائق التى يمكن أن تصادفنا إذا أخذنا بمقولة المرحلة ، وللتخلص منها يجب أن ننظر الى نتاج غولدمان باعتباره كلية متجانسة ، يشكل الكتاب المترجم مشروعها الخطاطى على المستويين الفلسفى والنقدى .

(١٤) انظر تفصيل ذلك فى غولدمان ١٩٦٤.

(١٥) انظر تفصيل ذلك زيما ١٩٧٧.

كيف عاد غولدمان الى مفهوم الرؤية للعالم سنة ١٩٦٦ ؟فى دراسته لمسرحية Paravents لجونيه بين غولدمان كيف أن البروليتاريا لم تعد تستطيع كطبقة قيادة الثورة ، ولذلك فقد تخلت عنها لصالح بعض المجموعات الاجتماعية الهامشية التى تصارع ضد الهيمنة التكنوقراطية للمجتمع الرأسمالى ، هذه المجموعات الاجتماعية تتشكل من الطلبة وبعض مثقفى اليسار المتطرف والمجرمين ، فهؤلاء هم الذين بلوروا فى مسرح جونيه قيما جديدة على المستوى الاستيطيقى .

وهكذا فان سعيد بطل المسرحية يعتبر إيجابيا يعبر عن رؤية هذه الطبقة للعالم ، والمسرحية ككل ، حسب غولدمان ، تعتبر أحد الاعمال المتفائلة التى أحياها الإيمان بامكانية المقاومة ضد الانظمة القمعية (١٦) .

وهكذا يتم الجمع بين كل المفاهيم عن طريق إدراجها ضمن كل متجانس لتشتغل الرؤية للعالم بجوار مفهوم التشيؤ وليشتغلا معا بجوار مفهوم البطل الإيجابى.

بيِّن اذن أن تجاور المفاهيم يلغى مقولة " المرحلة " ويقضى أيضا على القول بنشاز مفاهيم سنة ١٩٦٤ ، ويدعم من جهة ثانية الافتراض الذى يقول بوجود مرحلة واحدة فى الفكر الغولدمانى يعتبر كتاب ١٩٥٢ أحد أبرز انطلاقاتها .

وأخيرا فإن كتاب غولدمان الذى صدر سنة ١٩٧٠، أى سنة إنتهاء مسيرتيه الفكرية والحياتية أعنى " الماركسية والعلوم الانسانية " ، ظل يردد نفس مفاهيمه السابقة ويؤكدها ولندلل على ذلك نشير الى أهم مقالات هذا الكتاب : هناك أولا المقال الذى صدر به الكتاب : " سوسيولوجية الأدب : وضعيتها الاعتبارية ومشاكل المنهج " ثم هناك ، مقال حول " الوعى القائم والوعى الممكن " وآخر حول " الذات فى الابداع الثقافى " ومقال " استيطيقا لوكاتش الشاب " وغيرها من المقالات التى تلتقى كلها فى نقطة أساسية تلتئم عندها كل مفاهيم غولدمان هى الرؤية للعالم (١٧).

---

(١٦) انظر، نفسه .

(١٧) أشير الي أنني راعيت في الكتب التي تتشكل من مقالات سنوات الصدور ، مع العلم أن الكتاب قد يصدر في السبعينات ويعود تاريخ بعض مقالاته الي الستينات أو الخمسينات، الا أن ذلك لم يطرح أي مشكل بالنسبة لي طالما أنني انطلق من فكرة وحدة المفاهيم الغولدمانية . أما الكتب التطبيقية فلا تطرح أي اشكال لان سنوات صدورها هي بالتقريب سنوات انجازها .

ان ثيوثية المشروع الغولدماني ، هي التي دفعت بعض تلامذته الى اغنائه ، وتطويره ، وسنحاول أن نتطرق الى أسس هذا المشروع و الى التطويرات والتجاوزات التي خضع لها .

على أن هذا التطرق لا يريد التوقف التفصيلي ، بل يرمي فقط الى الوقوف بايجاز على أهم متركزات المقاربة السوسيولوجية للأدب في أسسها وفي الاغناءات التي خضعت لها .

لننطلق مع سامي ناير ، من القول بأن الاساس النظري في عمل غولدمان يتشكل أساسا من عمل ماركس ومن ابيستيمولوجية جان بياجي التكوينية ومن استطيقا لوكاتش .

لا جدال في أن فلسفة ماركس هي التي تشكل القاعدة النظرية لغولدمان ، ولن نحتاج الى عناء كبير للتدليل على ذلك ، إذ أن النظرية الماركسية ومنهجها الديالكتيكي ومفاهيمها الاجرائية تبدو واضحة الورود في عمل غولدمان ككل . وهو نفسه يؤكد ، تقريبا عبر جميع كتبه ، ما يدين به لهذه الفلسفة ، ويكفي للبرهنة على ذلك أن نؤكد ان المفهوم المركزي في عمل غولدمان أي مفهوم " الرؤية للعالم " . . تم استقاؤه من كتاب ماركس " العائلة المقدسة " هذا فضلا عن مفاهيم أخرى كالبنية التحتية والبنية الفوقية والوعي والتشيء والكلية الخ ، فالنسق الفلسفي الماركسي حاضر بكل كثافته اذن في نتاج غولدمان ، وهذا يدفعنا الى الانتباه الى المسألة التالية : لا يحضر ماركس في غولدمان الا باعتباره فيلسوفا لا باعتباره صاحب مجموعة من الآراء حول بعض الأعمال الأدبية ولهذا فإن ملاحظات ماركس حول حكاية " أسرار باريس " لشو مثلا لا يمكن ادراجها ضمن الأساس النظري الذي أثر في غولدمان الشيء الذي يدفعنا الى اعتبار البنيوية التكوينية تستلهم الماركسية فقط على الصعيدين التصوري والمنهجي.

وإذا كان الامر كذلك بالنسبة للماركسية ، فان غولدمان يستلهم بياجي على المستوى الابيستيمولوجي التكويني ، مؤكدا مع هذا الأخير ، ان " السلوك النفسي المحرك لكل فرد ، يكمن في علاقاته مع الوسط المحتضن ، وقد قسم جان بياجي تأثير هذه العلاقات الى سيرورتين متكاملتين : استيعاب الوسط لطرق التفكير والفعل عند

الذات ، وتكيف هذه الطرق مع بنية العالم المحتضن ، حين يمتنع هذا الاخير عن أن يستوعب " (١٨).

اذن فنظرية الذكاء عند بياجي تنتهى الى ايلاء الاعتبار لخاصية التفاعل بين الفرد ومحيطة وهونفس ما يذهب اليه غولدمان حين يؤكد على الخاصية الدالة لسلوك الذات الجماعية و علاقة هذا السلوك بالوسط الاجتماعي .

اذ كنا قد رصدنا ، باختصار شديد ، تأثير كل من ماركس و بياجى على البنيوية التكوينية على المستويين الفلسفى والايبسمولوچى ، فان استحقاق جورج لوكاتش الاهم على غولدمان ، هو اسداده له بأهم مفاهيمه الاستطيقية.

يرتبط غولدمان ، باستيطيقا لوكاتش الشاب أى بكتاباته الاولى : بالروح والاشكال "١٩١٠ و ب " نظرية الرواية " ١٩٢٠ و ب " التاريخ و الوعى الطبقى " ١٩٢٣ و انطلاقا من هذه الكتابات يقسم غولدمان المسار الفكرى للوكاتش الى ثلاثة مراحل : مرحلة الرؤية التراجيدية ، مرحلة الرؤية الطوباوية ، مرحلة الرؤية الماركسية الثورية (١٩) ويؤكد أن استعادة الارث اللوكاتشى تعتبر من الزم ضروريات الفكر الغربى فى القرن العشرين ، ولذلك يقدم عمله كتركيب لاستيطيقا هذا المفكر محاولا أن يصهرها فى نسقه الخاص .

ويمكن أن نعتبر مرحلة الرؤية التراجيدية أى مرحلة " الروح والاشكال " قد أمدت غولدمان أساسا بمفهوم " الشكل " الذى احتفظ عند هذا المفكر بنفس دلالته وعوض بمصطلح " البنية المتماسكة الدالة " ، أما عن مضمون كتاب " الروح والاشكال " فهو بوضوح يعالج فقط العلاقة بين الروح الانسانية و المطلق ، ويعالج " الاشكال " التى تعبر عن مختلف الصيغ المتميزة لهذه العلاقة (٢٠) ومن جهة أخرى يمثل الكتاب (بضم الثاء) باعتباره تركيبا بين فكرتين أساسيتين استقاهما لوكاتش من الفينومينولوجيا ومن تصور دلثى وهما : فكرة الجوهر اللازمنى وفكرة الدلالة اللتين ستنتج عنهما أهم فكرة فى نسقه فيما بعد وهى فكرة الجوهر باعتباره بنية دالة . نستنتج اذن لندل على

---

(١٨) غولدمان ١٩٥٦، ص ٢٥ .

(١٩) انظر تفصيل ذلك في غولدمان ١٩٦٣ (ضمن كتاب لوكاتش " نظرية الرواية ") .

(٢٠) غولدمان ١٩٦٣ ، ص ١٦٠ .

تأثير لوكاتش فى غولدمان على أن البنيات الدالة حسب هذا الاخير هى رؤيات العالم التى يتم استخلاصها من بنية العمل الموحدة .

واذا كنا قد اعتبرنا أن مفهوم الشكل هو الذى ألهم غولدمان بشكل أساسى من مرحلة الرؤية التراجيدية عند لوكاتش فاننا سنعتبر مفهوم البطل الاشكالى هو الذى أثر أكثر من المرحلة الطوباوية على تفكير غولدمان . ان الرواية بالنسبة للوكاتش هى أهم شكل أدبى يمظهر عالما لا يعرف الانسان فيه هل هو غريب أم أليف ولذلك فإن بطلها يعتبر" كائنا اشكاليا ، مجنونا أو مجرما ، لانه يبحث دائما عن قيم مطلقة دون أن يعرفها ويعيشها بامتلاء ، ودون أن يستطيع ، بواسطة هذا نفسه ، تقريبها " (٢١)

وبذلك تتعرف الرواية ، وهو نفس التعريف الذى يتبناه غولدمان ، بانها هى قصة البحث المنحط عن قيم أصيلة فى مجتمع منحط بواسطة بطل اشكالى . ليتم بعد ذلك استغلال هذا المفهوم فى دراسة روايات مالرو .

وأخيرا فان مفهوم الوعى هو أهم مفهوم سيستخلصه غولدمان من المرحلة الثورية الماركسية أى من كتاب " التاريخ والوعى الطبقى " . ان لوكاتش بدوره استقى هذا المفهوم من ماركس وانجلز وفصل فيه بين مفهومين فرعيين هما : الوعى المغلوط الذى تسعى الرأسمالية الى تأكيده عن طريق الدفاع على نظام الاشياءالقائم ، والوعى الصحيح الذى تبلوره الطبقة العمالية والتى و هى تؤمن بسيرورة التحول وبالبراكسيس ، تلغى عن النظام الاجتماعى أية ثبوتية مطلقة ، فالوعى الطبقى اذن هو وعى المجموعة لا وعى الافراد المعزولين . ويرتبط هذا الوعى عند لوكاتش بما يسميه " الامكانية الموضوعية " التى تنفتح عن المستقبل وتسمح لمعرفة بعض الظروف المستقبلية اذا انطلقنا من فهم صحيح للظروف الراهنة (٢٢).

واضح أن هذه المقولة (الوعى) تتبأر فى عمل غولدمان ، من خلال تحديده لمفهومى الوعي القائم والوعي الممكن الذين يعتبران مركزين عنده لارتباطهما الوثيق بمفهوم الرؤيا .

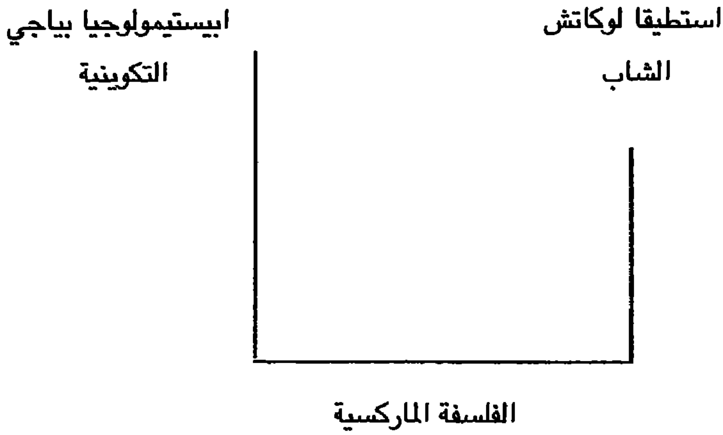
---

(٢١) نفسه ، ص ١٧٦ .

(٢٢) انظر تفصيل ذلك في ج . لوكاتش ١٩٢٣ وخاصة الصفحات ٧٠- ٨١ .

وكخلاصة عامة نقول أن الحضور اللوكاتشى فى غولدمان ، ينبع من وعى هذا الاخير بأهمية هذا الحضور وضروريته فى الفكر الغربى ، كما يرتبط فى تلاؤم المواقف النظرية والمنهجية عند لوكاتش مع منطلقات غولدمان وتصوراته ، بشكل جعله يستلهمهما ويغنيها ويطورها ويختبر قيمتها التجريبية ، كما ستخضع مفاهيمه ومنطلقاته هو نفسه للدحض والتطوير .

نستطيع اذن ان نتبين أسس التصور الغولدمانى عن طريق تمثيله فى خطاطة تشتمل على قاعدة وعمودين :



ولكن هذا يجب أن لا يدفعنا الي انكار تأثير مفكرين اخرين علي غولدمان كما صرح هو بذلك نفسه ، كهيغل وكانط ورونيه جيرار ، و غيرهم ، الا أن تأثير ثلاثي اعلاه ظل هو المهيمن علاوة علي أنه يختزل كل التأثيرات الاخري .

الان و قد بينا باقتضاب أسس تكوينية غولدمان ، نستطيع أن نتكلم ، من خلال بعض النماذج علي الاغناءات التي أضافتها اليها أعمال بعض تلامذته .

لقد أشرنا فيما قبل أن النموذج الغولدماني ، بدأ يعرف الانحسار ، تقريبا منذ باية الستينات وهى السنوات التى عرفت ازدهاراً واضحا للمقاربات البنيوية الا ان هذا الانحسار لا يعني الالغاء الجذري لهذا النموذج ، بدليل استمرار غولدمان في اصدار مؤلفاته خلال هذه السنوات بالذات ، بل يعني فقط أن البنيوية التكوينية بفهمها الخاص لمقولةالشكل استمرت في الاهتمام بمستوي المدلول محيلة بذلك مستوى الدال

الي درجة ثانوية . و هذا هو جوهر الانتقاد الذي وجهته لها البنيوية التي وقعت بدورها ، و ان بشكل اخر ، في نفس المأزق بتهميشها لمستوي المدلول . و هكذا " فاولئك الذين يأخذون الرواية علي أنها واقعة فنية أدبية مستقلة ، بوصفها كذلك ، عن "الواقع " ، يتهمون اراديا السوسيولوجي باختزاله الرواية الي مادتها و تكونها ، في حين أنهم بدورهم سيتهمون باسم السوسيولوجيا ، بالشكلانية الخالصة " (٢٣)

في هذا الاطار ، يمكن أن نسوق بعض أعمال تلامذة غولدمان الذين سعوا من جهة الاستمرار في تبني الطرح الغولدماني الذي ينظر الي كل عمل فني في علاقته بالمجتمع ، و من جهة أخري الي الانتباه الي بعض المظاهر الشكلية و التقنيات التي تتميز بها الاعمال الادبية و الفنية عموما . و هكذا سنقف عند كل من زيرافا و لينهارت و سنعتبرهما متأثرين بالسرديات البنيوية ، و سنقف من جهة ثانيةعند بيير زيما الذي استفاد من سيميائيات غريماس الخطابية و من شعرية باختين . اذا كان مفهوم الشكل عند كل من لوكاتش و غولدمان يعتبر واقعة محتوي و يتجدد باعتباره كلية أو بنية متماسكة دالة ، فان ميشال زيرافا ، و هو يلتقط ، رأي هنري جيمس يؤكد أن " الشكل وحده هو الذي يصون و يحفظ المادة " (٢٤) ، و يري أن هذا المبدأ و ان كان استيطيقيا في الظاهر ، فان مع ذلك محل بدلالات سوسيولوجية ، لان جيمس و هو يقرره ، لم يكن يشير فقط الي أولوية الاسلوب و هكذا ، فان الشكل يعني تركيب الرواية و تنظيمها الداخلي ، و هو بهذا المعني لا يستقل عن الواقع . "ان الشكل القبلي للرواية (للكتابة) يوجد في المجتمع ، بل ان الكتابة هي التي تعطي شكلا [...] للواقع (٢٥)و لذلك أكد هنري جيمس مثلا أنه قبل الكتابة يبحث عن شكل ملائم في الواقع ويكشف بدقة عن نظامه لتأتي الكتابة بعد ذلك ، باعتبارها تركيبا وطريقة في التنظيم لتعطي للشكل الواقعي شكلا استيطيقا متميزا ، انطلاقا من هذا التصور يستطيع السوسيولوجي أن يستخلص رؤية العالم منظورا اليها في علاقتهما مع الكتابة . ولان مفهوم الشكل يخص في نظر الفنان ، الواقع الاجتماعي كما يخص العمل الفني فانه [أي الفنان] يحلل و يؤول و يحدد المظاهر الاساسية للمعطيات

---

(٢٣) زيرافا ١٩٧١ ، ص ٢١ .

(٢٤) نفسه ، ص ٥٦

(٢٥) نفسه ، ص ٥٧ .

الاجتماعية ، ليحولها بعد ذلك الي كتابه ، و هكذا فالتقطعات الكرونولوجية التي تميز رواية فولنكر : " Absalon! Absalon " تعني الحنين الي النظام الذي اختفي والكراهية.التي يكنها الفنان للمجتمع المعاصر ، كما أن الكاتب يعبر بواسطة بنيتها عن سمة أساسية في الحضارة و التاريخ الامريكيين .

ان رواية لبالزاكي أو لديكنز ، تبدأ غالبا بمشهد أو بواقعةحالية ، ويدخل الحالي بعد ذلك في سيرورة تطويرة ، أما عند فوكز فان الامر يتعلق بفوضى زمنية لا تخضع لاي تعليل أو سببية ، وينتج عن ذلك أن كل صيغة من هاتين الصيغتين السرديتين ، تطابق لحظة معينة دالة من التاريخ الاجتماعي .

وهكذا يبتدء لنا بوضوح ، ان ميشال زيرافا يقرن مفهوم الشكل باعتباره صيغة التنظيم الداخلي للرواية بمفهوم الرؤية للعالم باعتبارها بنية دالة معبرة عن أقصي تلائم المجموعة مع الحقيقة . ويعتقد تبعا لذلك عن طريق تأويل خاص لمقولة الرؤية للعالم عند غولدمان ، ان مفهومة لها لا يختلف عن مفهوم هذا الأخير ما دامت تعتبر من جهة جوابا دالا عن وضعية محددة عن طريق خلق عالم ملموس بواسطة الكلمات ، وما دامت من جهة ثانية تعني الوضوح التصوري المتماسك الذي تعبر عنه المجموعة عبر الفرد .

وغير بعيد عن هذا الطرح ، يقدم جاك لينهارت نقده الخاص لكتاب غولدمان " من أجل علم اجتماع للرواية " .

يريد غولدمان أن يدرس تطور الشكل الروائي في علاقته بالمجتمع ، ويري أن ذلك لا يمكن أن يتم الا عن طريق فكرة التماثل الصارم لبنيات المجتمع مع بنيات هذا الشكل وهكذا يميز في المجتمع الرأسمالي ، الذي تعتبر الرواية مظهرا خاصا له ، بين ثلاث مراحل الرأسمالية الفردانية ومرحلة الرأسمالية الاحتكارية و مرحلة رأسمالية التنظيم ، ليربط الرواية الجديدة بالمرحلة الاخيرة مؤكدا أن اختفاء الشخصية من هذه الرواية واستقلالية الاشياء يناظران علي صعيد البنية المجتمعية تقلص دور الفرد أمام هيمنة السلعة في المجتمع المنتج من أجل السوق .

يسلم لينهارت مع غولدمان أن استقلالية الاشياء تعتبر ظاهرة خليقة بالدراسة ، الا أنه ينبه علي أنها واقعة مضمون لا واقعة شكل ، أما الوصف الذي يمظهر هذه

الواقعة فهو شكل يجب أن يرصد في خصوصيته كما يجب أن تعطاه أهمية متميزة في التحليل لان التساؤل لا يجب أن يقع فقط علي تطور بنية الرواية في علاقتها بالبنية المجتمعية ، بل يجب أن يقع أيضا علي الكتابة الروائية بوصفها تقنية تسعي الي الانسلاخ عن معايير الكتابة التقليدية . ان المشروع الغولدماني ، باعتباره للوصف مجرد تأثير علي هيمنة الاشياء ، يلغي الاهمية الخاصة للكتابة الروائية ذاتها ، وهكذا فان شكل الرواية بدوره اضافة الي مضمونها ، يسعيان معا الي الانزياح عن الاشكال التقنينية التي يفرضها المجتمع من جهة و الكتابة الروائية التقليدية من جهة أخري ، وليست رواية " الغيرة " ل " ألان رون غرييه " الا وجها خاصا من أوجه هذا الانزياح[٢٦] .

فاذا كانت الرواية تسعي الي قول العالم ، فان وسائلها التعبيرية وتقنياتها ، يجب أن تتوافق مع التطور الذي يخضع له المجتمع حتي يكون قولها للعالم منسجما ، واذا كانت الرواية التقليدية تعبر بوسلئل خاصة منها هيمنة السارد الاله ووتيرية السرد الذين يناظران علي صعيد المجتمع شكلا ايديولوجيا محددا ، فان تصدع السرد في رواية " الغيرة " وتغير وضعية السارد ووجهة نظره يعبران بدورهما عن شكل مجتمعي محدد يريد ، علي مستوي التقنية الروائية ، تجاوز الشكل السابق معبرا عن رؤيته الخاصة للعالم .

وهكذا يتبين أن مقاربتي كل من زيرافا ولينهارت يسعيان الي تطعيم المنهج البنيوي التكويني ببعض طروحات ومفاهيم السرديات البنيوية ، وسنحاول الان ، عن طريق التعرض لبيير زيما ، ان نتبين كيف ان العلاقة بين الادبي والمجتمعي سيتم رصدها انطلاقا من النموذج الغريماسي ، وكيف أن بعض مفاهيم غولدمان تم رفضها جذريا من طرف هذا الباحث .

يري زيما ، في اطار ما يسميه بسوسيولوجية النص ، أن تصوره يسعي من جهة الي تجاوز مفهوم " الشكل " كما يصوره لوكاتش لان هذا المفهوم كان يتضمن عند هذا المفكر ايحاءات مثالية وميتافيزيقية ، ويسعي من جهة ثانية الي تجاوز مفهوم " البنية الدالة " عند غولدمان لان هذا المفهوم بدوره يثير بعض المشاكل يتساءل زيما :

---

(٢٦) انظر تفصيل ذلك في لينهارت ١٩٧٣ .

ما المقصود بالضبط بهذا المفهوم ؟ وهل هناك نظرية دلالية تتيح تعريفة ؟ وكيف نختزل النص الذي يتميز بخاصية التعددية الي بنية تصورية واحدة ؟ ان عجز البنيوية التكوينية عن ايجاد حل هذه المعضلات هو الذي يكشف عن هشاشة تصورها . هذا فضلا عن أن مفهوم " البنية الدالة " ليس فقط اشكاليا من منظور علم الدلالة الذي يحلل تعددية النص (تعايش العديد من التشاكلات الدلالية كما قال غريماس) ، ولكن أيضا من منظور نظرية القراءة التي تتساءل حول التلقي المتغير للنص الراسيني عبر القرون "[(٢٧)] وهكذا يقدم زيما تصوره محاولا أن يتجاوز في نفس الوقت سوسيولوجية المضمون التبسيطية والسوسيولوجيا الدياليكتيكية ذات الاحساس الهيغلي : " يمكن لسوسيولوجية النص الادبي أن تتعرف سلبيا باعتبارها مقاربة تسعي في نفس الوقت الي الغاء الوهم المرجعي الذي يميز سوسيولوجية المحتويات والوهم الميتافيزيقي (الفلسفي) الذي يميز بعض المقاربات الدياليكتيكية ذات الاصل الهيغلى "[(٢٨)] .

ان سوسيولوجية النص تريد أن تدرس مختلف المستويات النصية بوصفها بنيات لسانية واجتماعية في الوقت نفسه ، وهكذا استسعي الي رصد اواليات النص التركيبية والدلالية .

يعتبر المحيط الاجتماعي في هذه النظرية عبارة عن مجموعة من " اللغات الجماعية " التي تقوم النصوص الادبية بامتصاصها وتحويلها، هذه " اللغات الجماعية" قابلة للرصد انطلاقا من تحليل مستوياتي اذ أن لكل لغة جماعية فهرسا معجميا مسننا خاصا بها ، كما أن لها من جهة ثانية بنية تركيبية يحكمها مسار سردي يخضع للنموذج العاملي الغريماني ، ولها أخيرا بنية عميقة هي التي تنظم هذا المسار انطلاقا من فعل تصنيفي[(٢٩)] .

ان هذا التصور الذي نعتبره مستفيدا من فكرة الحوازية عند باختين وفكرة الايديولوجية عند كريستقا ، يقدم النص بوصفه سيرورة تناصية تمتص وتحول وتحاكي بسخرية كل اللغات الجماعية التي توجد في المحيط الاجتماعي باعتباره وضعية سوسيولسانية .

---

(٢٧) زيما ١٩٥٨ ، ص ٦٢ .

(٢٨) زيما ١٩٨٢ ، ص ٤٠ .

(٢٩) لسنا هنا في مجال العرض التفصيلي ، انظر بفصيل ذلك في زيما ٨٠ - ٨٢ - ٨٥ .

ان هذا المنهج هو الذي يمكن ، حسب زيما ، من تجاوز " نواقص البنيوية التكوينية التي تكمن بمجملها في عجزها عن تحليل ونقد النص الادبي علي المستوي اللساني : الدلالي والتركيبي والسردي " (٣٠) .

ان التطرق لهذه التطويرات الثلاثة لم يكن يتقصد الوقوف بتفصيل عندها بقدر ما كان يريد ابراز مكامن الضعف التي حاولت هذه النماذج رأيها داخل النظرية البنيوية التكوينية . ولهذا تم الارتكاز علي الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية لكي نظل دائما مرتبطين بصميم الموضوع .

لنحاول الان ان نصوغ أهم النقط التي وقف عندها هذا التقديم :

تم الانطلاق من فكرة أساسية هي أن المشروع الغولدماني كمشروع متميز عرف فترته المزدهرة في الخمسينات وبداية الستينات تقريبا ، ظل من حيث البعد التصوري ومن حيث البعد المنهجي هو هو ، طيلة سنوات انتاجه ، وبما أن الكتاب الذي نقدم ترجمته يقدم تصور غولدمان في مجمل خطوطه (تصور هذا الاخير السوسيولوجي والفلسفي والتاريخي وتصوره لوضعية النقد الادبي) ، فقد اعتبرناه مشروعا خطاطيا لهذا التصور اذ أن أهم المفاهيم الغولدمانية ، لا في اطار السوسيولوجيا عامة ولا في اطار سوسيولوجيه الادب بخاصة ، ثم التطرق لها في هذا المشروع ، أما خطاطينه فتأتي من مروره السريع علي مجمل هذه المفاهيم .

ولهذا تم ، كخطوة اولي ، تلخيص أهم محاور الكتاب لكي تتاح امكانية التعرف علي هذه الخطاطية ، وتم بعد ذلك تحديد البنيوية سلبا بابراز أهم انتقاداتها لتصورات النقدية الاخري ، وثم تحديدها ايجابا بالتعرض لاهم مفاهيمها ، هذا التعرض الذي لم نعتبره نشازا واضافيا لانه ركب كل المفاهيم التي وردت سريعة في السابق . وبعد ذلك تم ادراج الكتاب المترجم ضمن بعض مؤلفات غولدمان ابتداء من ١٩٤٨ . سنة صدور أول كتاباته حتي سنة ١٩٧٠ أي سنة وفاته ، وأخيرا تم ادراج المشروع الغولدماني ككل ضمن سوسيولوجية الادب بصفة عامة لكي تؤكد أن هذا المشروع خضع لتطويرات كما انطلق من أسس .

ومع ذلك ، فهذا التقديم ، يتسم بطابعه الاختزالي وبتسرعه ، الا أن رغبته المتواضعة في تأطير النص المترجم ، قد تغفر له بعض ذلك .

---

(٣٠) زيما ٨٥ ، ص ٦١ .

مقدمة الطبعة الجديدة .

إلي ذكري لوسيان صباغ

يقدم هذا الكتاب مظهرين ، يرتبطان ببعضهما في الأصل بشكل وثيق ، لكن يجب اليوم أن نميز بينهما .

الأول ، المظهر النظري ، لا يطرح في اعتقادي أي مشكل كبير لأنه بصفة عامة ، لازال فيما يبدو لي مطابقا لمواقفي الحالية [1] . وبالمقابل فالمظهر الثاني ، السجالي ، يمتلك بالخصوص قيمة تاريخية لأنه ينتقد المفكرين الذين كانوا يهيمنون علي السوسيولوجيا الغربية حوالي ١٩٥٢ . والحال أن هذه السوسيولوجيا قد تحولت جذريا ، خلال الأربعة عشر سنة الأخيرة ، وتهيمن عليها اليوم تيارات وشخصيات أخري . فالمشكل أكبر أهمية من أن نتصور ، لأول وهلة ، أن مناقشا يجب أن يفرح لأن أولئك الذين سبق له أن واجههم قد فقدوا كلهم أو بعضهم أهميتهم ، في حين أن الحقيقة في الواقع غير ذلك .وفي الواقع ، فإن مواجهة بين خصمين لا تجري قطعا في فضاء خال وقد يحدث ، كما في حالتنا هذه ، أن اختفاء ، أحد المشاركين في النقاش يؤدي إلي تعويضه لا بالتيارات التي يدافع عنها الآخر ، ولكن بإيديولوجيات مختلفة تماما قد تكون لها في أضعف الحالات خاصية أكثر سلبية وقابلية للنقاش من تلك التي سبق له أن صارعها في الماضي .

(١) التغير الأكثر أهمية يتعلق بالانتقال من رأسمالية الأزمة إلي رأسمالية التنظيم ، وهو تغير لم نتصوره سنه ١٩٥١ أثناء تحرير هذا العمل .

وهذا ما ينطبق خاصة على مستوى الفكر السوسيولوجي الفرنسي الذي يهمنا بشكل أساسي .

إن النقاش بين جورج غورفيتش G.Gurvitch وبيننا جرى انطلاقا من خلفية قبول مشترك لمجموعة من القيم الإنسانوية وللخاصية التاريخية لكل واقع اجتماعي .

وبمنظور أكثر اتساعا ، سأقول مطمئناً إن هذين العنصرين شكلا الأساس المشترك للنقاشات الفلسفية الأوربية فيما بين سنة ١٩١٠ وتاريخ سيكون من الصعب تحديده ولكن من المحتمل أن يقع في فرنسا ، بين سنتي ١٩٥٥ و١٩٦٠، نقاشات أهم من مشارك فيها كانت أولا هي الفلسفات الوجودية التي صارت مع هايدغر Heideg-ger وسارتر فلسفات للتاريخ ، والأفكار المسيحية والفكر الهيغلي والماركسي ويتموضع جورج غورفيتش ، المفكر الأصيل والمستقل ، داخل هذه النقاشات بالرغم من نسبويته.

وسيموضع المؤرخون اللاحقون للمجتمع والثقافة الغربيين التحول ، على المستوى السوسيولوجي ، من رأسمالية الأزمة إلي رأسمالية التنظيم ، تقريبا بين سنتي ١٩٥٥ و١٩٦٠ ، وبارتباط مع هذا التحول ، سيحددون الانتقال من سوسيولوجية فلسفية وتاريخية وإنسانية إلى الفكر السوسيولوجي اللاتاريخي اليوم . وبطبيعة الحال ، فهذا الانتقال ليست له خاصية لحظية ، إذ يتعلق الأمر ، في كل التحولات من هذا النوع ، بسيرورة طويلة إلى هذا الحد أو ذاك . والمشكل الأهم هو تحديد طبيعته والفترة التي يتموضع فيها الانتقال الكيفي . لندقق بأننا نسمي رأسمالية متأزمة المرحلة التي ، اهتز فيها المجتمع الأوربي ، باعتبار اختلال السوق الليبرالية نتيجة لتطور التروستات والمنوبولات ، بسلسلة متكاملة من الأزمات الاجتماعية والسياسية البالغة التقارب والتي لم تتجاوز كل واحدة منها إلا بصعوبة لتترك المجال لتوازن مؤقت تماما وسريع الانقطاع من جهة ثانية (الحرب العالمية الأولي ، الحركات الثورية بين ١٩١٧ و١٩٢٣ ، الأزمة الاقتصادية ١٩٢٩/١٩٣٣ ، النزعة الهتلرية ، الحرب العالمية الثانية وفي الهوامش الأوربية للمجتمعات الصناعية ، الفاشية الإيطالية والثورة الإسبانية) . وبالمقابل ، فإننا نسمي رأسمالية للتنظيم المرحلة التي أتاح فيها ابتكار وتطور آليات الضبط الذي يرجع بالدرجة الأولي إلي تدخلات الدولة ، ازدهاراً اقتصاديا متناميا

وقلص بسبب هذا نفسه ، بل وألغى الأزمات الاجتماعية والسياسية الداخلية (٢) . وما يطابق هذا الإزدهار الجديد لرأسمالية التنظيم ، علي مستوى الفكر ، هو قبل كل شيء تعويض فلسفة مركزة إما علي الرعب أو الموت ، وإما بعكس ذلك علي الأمل التاريخي أو المتعالي ، بفكر علموي ، عقلاني ولاتاريخي ، إلا أنه شديد الاختلاف عن عقلاني الأنوار التي أسست فلسفة الطبقة الصاعدة لعامة الشعب، بتخليه [أي الفكر العلموي] عن القيم الانسانويّة و الفردية التي ميزت هذه الأخيرة .

فإذا تركنا جانبا التطور الهام لبحث تجريبي وضعي ، ومحض وصفي ومثير بسبب هذا نفسه للنقاش علي المستوي النظري ، فإن هذا التحول يتضح بواسطة واقعة بالغة البروز :

ففي الحياة الثقافية لأوربا الغربية وبالخصوص في فرنسا ، نجد أن العلوم الاجتماعية (السوسيولوجيات والانترويبولوجيات) هي التي تسعي إلي شغل المكانة الإيديولوجية التي كانت تشغلها سابقا الفلسفة . فإذا تساءلنا عن المفكرين الذين يملؤون اليوم في الحياة الثقافية الفرنسية الوظيفة التي كانت سابقا لبرغسون وما يرسون و برانشفيغ وسارتر وجون وال أو ميرلوبونتي ، فإن الجواب لن يثير شكاً . إنهم قبل كل شيء ليفي ستروس ،الانتروبولوجي ، ورايمون أرون ، السوسيولوجي الذي ابتدأ مع ذلك عمله الثقافي كفيلسوف للتاريخ خلال المرحلة السابقة . فأرون Aron الذي نجد عنده الكثير من بقايا القيم التقليدية التي توافق الرأسمالية الليبرالية والذي يدافع اليوم ، في نفس الوقت عن القيم المتعارضة لليبرالية ولرأسمالية التنظيم ، يبدو أنه يمثل قبل كل شيء ، داخل تطور الفكر السوسيولوجي المعاصر ، ظاهرة انتقال بين فترتين مختلفتين تماما .

وكمنظر ذا مستوى استثنائي له مع المجتمع المعاصر علاقات موسطة بوضوح وبالتأكيد غير واعية وغير إرادية ، بلور ليفي ستروس ، الذي يبدو لنا مثلا بشكل مغاير

---

(٢) لأنه لا زالت هناك بالطبع ، أزمات يتموضع أصلها خارج المجتمع الصناعي ، في حركات إزالة الاستعمار والاستقلال للدول المتخلفة والتي (الحركات) لها أثرها داخل أوربا الغربية (إنها مثلا حالة حروب الهند الصينية وحروب الجزائر بالنسبة لفرنسا) .

للتوجهات الحالية للفكر النظري ، عكس أرون ، نظاماً شكلانياً سعى إلي الالغاء الجذري لكل أهمية يمتلكها التاريخ وتمتلكها الدلالة [٣] .

ويبدو لنا أن ، الواقع الحقيقي الحاسم في تطور السوسيولوجيا الفرنسية ، هو ظهور عدد مهم نسبيا من السوسيولوجيين الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٠ و ٥٠ سنة (بعضهم بالطبعأصغر من ذلك أو أكبر قليلا) ، والذين شغلوا بشكل بدهي ، الأمكنة الهامة داخل النظام الصارم للبحث السوسيولوجي كما تبين خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة في مركز الدراسات السوسيولوجية وأيضا في مراكز البحث المستقلة أو المرتبطة بمؤسسات أخرى ، سوسيولوجيين تشكل شبكة تعالقاتهم والوضعية والتأثير الجامعيين والإداريين ، تنظيما متزايد الصرامة يراقب تقريباً كلية البحث ، ممارساً في نفس الوقت تأثيراً ايديولوجياً علي الحياة الثقافية أضعف بكثير من تأثير المفكرين الفلسفيين للجيل السابق ، وممارساً كذلك تأثيراً إدارياً قوياً ولا مثيل له على توجه البحث .

وقد نتجت عن ذلك مجموعة من الأعمال المتزايدة العدد وأيضاً الشاملة والمتطورة علي المستوى الكمي ، ولكن أيضاً المتزايدة الروتينية والخالية من النضج النظري بالنسبة لمعظمها .

إن دراسة مخصصة للبحث السوسيولوجي المعاصر ، والتي يجب أن تبرز ، بالأساس تياراته العامة ، ستبين ، فيما نعتقد ، إلى أى حد ان العنصر المشترك بين معظم هذه الأعمال هو موقفها اللا إنساني واللا تاريخي واللا فلسفي ، أي موقفها الإيجابي الصريح أو الضمني تجاه المجتمع التكنو قراطي المعاصر .

وبالرغم من أننا لا نحب التقسيم انطلاقاً من العصور والأجيال ، فيجب أن نؤكد في هذه الخطاطة المؤقتة على أنه في فترة معينة ، وفى الجيل الشاب ، نستطيع أن

---

(٣) يجب بالإضافة إلى ذلك أن نقول ، إن الرابط بين الفكر السوسيولوجي ورأسمالية التنظيم معقد و ،لنؤكد حتي نلغي كل سوء تفاهم ، لا إرادي ولا واع بطبيعة الحال · انه كلما ألغى فكر نظري داخل بنيته نفسها وبواسطه المناهج التي يستعمل ، مشكل المعنى ومشكل التاريخ ، كلما تورط صراحة في الدفاع عن النظام الاجتماعى القائم . وكذلك فإن البنيوية الشكلانية غريبة . تماما عن المشاكل الإجتماعية والسياسية ، وتثميناتها الضمنية نتموضع علي مستوي المنهجيه . وأيضاً فإن رايمون أرون الذي حافظ علي العديد من سمات العقلانية الليبرالية لعصر الأنوار ، اتخذ موقفاً بالغ الوضوح لصالح رأسمالية التنظيم . وفي حدود هذه السلسله يتموضع بعض الماركسيين القدماء الذين بعدم استيعابهم تقريباً لمناهج الفكر السوسيولوجي المعاصر ولبنيته الثقافية ، صاروا مدافعين مباشرين وتقريباً مجردين من الذكاء عن المجتمع التكنوقراطي .

نعتقد من جديد أن بعض الشخصيات النظرية قد تأصلت بشكل أكثر بروزاً . فمع موت لوسيان صباغ ، فقدت العلوم الاجتماعية الفرنسية مفكراً شاباً ذا ميزة بالغة الاستثنائية ، مفكرا بشر بآمال كبيرة . وتعطي بعض الأعمال المتأخرة لهذا الجيل نفسه الانطباع لأول وهلة ببلورة سوسيولوجيا نقدية ؛ ولكننا في الواقع ، حين نفحصها عن قرب ، نستنتج أن هذا النقد ، علي الأقل لحد الآن ، ينصب فقط على بقايا المجتمع الليبرالي التقليدي وعلي الأثمان الإنسانية للتحول ، وتقريباً لا ينصب فقط بتاتاً علي المجتمع المعاصر الذي يتشكل ، والذي يعتبر خطيراً بشكل آخرعلي المستويين الفكري والثقافي ، هذا المجتمع الذي يتميز ، من بين أشياء أخرى ، بالانتاج والاستهلاك بالجملة والذي قلنا عنه مرة إنه ، يوشك أن ينتهي بتحقيق " حاملي شهادات اميين " كإنتاج أساسي بالجملة .

هذه التأكيدات تضع الخطوط العامة لمهمة بالغة الإلحاح : هي كتابة عمل مماثل لهذا العمل ، ولكنه يركز على سوسيولوجيي الجيل الحالي . لنكتف ، لحد الآن ، بالإشارة في هذه المقدمة المختصرة إلي أهم المبادىء الفكرية والمنهجية التي يبدو لنا أنها تحافظ علي الخاصية اللاتاريخية للجزء الأكبر من التفكير السوسيولوجي : إن الأمر يتعلق بالقطيعة بين فكرتي البنية و الوظيفة . فإذا كانت البنيات تميز في الحقيقة ردود أفعال الناس تجاه المشاكل المختلفة التي تطرحها عليهم علاقاتهم مع العالم الاجتماعي والطبيعي الذي يحتضنهم ، فإنها تشغل دائماً في سياق خاص ، وظيفة داخل بنية اجتماعية أكثر اتساعاً ؛ والحال ان هذه البنيات ، حين تتغير الوضعية ، لن نستطيع أبداً شغل هذه الوظيفة وتفقد بذلك ميزتها المنطقية ، مما يؤدي بالناس إلي تركها وتعويضها ببنيات جديدة ومختلفة . وهكذا فالرابط المتين بين البنية والوظيفة ، والذي ينتج عن الخاصية المستمرة نسبيا للوظائف و الخاصية المؤقتة نسبيا للبنيات ، يعتبر هو محرك التاريخ ، أو ، لكي نلغي كل سوء تفاهم ، هو الذي يشكل الخاصية التاريخية لسلوك الناس . و بمجرد ما نفصل البنية عن الوظيفة ، نجد أنفسنا إما أمام بنيوية لا تاريخية وشكلانية متجهه نحو البحث عن بنيات الفكر الأكثر عمومية ، وهي البنيات التي يمكن أن نجدها في كل الأشكال المجتمعية ، والتي لم تتأثر قط بالتغيرات التاريخية (من الواضح أن فكراً من هذا النوع يلغى دفعة واحدة بواسطة منهجه

نفسه ، التاريخ من حقل إهتمامه) ، أو ، وليس ذلك إلا الوجه الآخر لنفس العملة ، أمام نزعة وظيفية لا تهتم إلا بالخاصية المحافظة لكل مؤسسة أو سلوك داخل مجتمع معطي ، بإبرازه مبينة مظهره . " الوظيفي " والتي لاتطرح قطعاً مشكل التحول بل إن الطريقة التي تعين بها هذه النزعة ما تسميه " الاختلالات الوظيفية " التي لا تمتلك بالنسبة لها إلا خاصية سلبية لأنها ترجعها فقط إلي المجتمع الذي تدرسه ، دون أن تتساءل فيما إذا كان ما تسميه " إختلالاً وظيفياً " لا يمكنه أن يكون سوي وظيفية جديدة توجد في طور تشكل بالنسبة لنظام اجتماعي جديد أو علي الأقل بالنسبة لوضعية إجتماعية جديدة ، [هذه الطريقة] تدل علي محدوديات هذا المنظور ، محدوديات هي في العمق نفس محدوديات البنيوية اللا تكوينية ، الانغلاق المنهجي تجاه كل بعد تاريخي للوقائع الاجتماعية .

وأخيرا ، فهناك أعمال أخري متأخرة تحاول أن تبحث عن التاريخ وتلح بالضبط علي الخاصية اللا تاريخية لكل من البنيوية اللا تكوينية والنزعة الوظيفية ، ولكنها لا تتساءل حولهما وتعترف لهما بالصلاحية في دراسة التعبيرات الرمزية والعلاقات الإجتماعية مموضعه التاريخ بذلك في حركة مجردة وغريبة تماما عن الحياه الواقعية للناس ، هذه الأعمال بدورها تبدو لنا ، في نهاية الأمر ، لا تاريخية هي كذلك .

وهكذا ففي الوقت الذي إهتمت فيه الأعمال الهامة ، علي مستوي الإبداع الأدبي والفني ، منذ الرواية الجديدة وحتي أفلام كودار Godard وروب غرييه R.Grillet وفيسكونتى Visconti و أنطونيوني Antonioni و ريسناى Resnais ، وبالخاصية اللا إنسانية واللا ثقافية لرأسمالية التنظيم ، وعلي صعوبة التلاؤم معها ، إندمجت السوسيولوجيا المعاصرة في هذه الرأسمالية بشكل متزايد ، وأصبحت علي المستوي النظري ، عنصراً مكوناً من مكوناتها ، بل وصارت في الغالب مدافعة عنها صراحة أو ضمناً . إنه القول ، داخل منظور إنساني ، إلي أي حد يصبح من المهم إنتقاد هذه السوسيولوجيا والصراع ضدها .

ولكن في الختام ، نريد أن نثير مشكلا أخيرا : فكيفما كان خطر هذه السوسيولوجيا ، التي تعتبر هي نفسها من أهم العناصر المكونة لرأسمالية التنظيم

الذي توجد في طور التشكل ، فإن النقاش معها يجب أن يتجه أساسا نحو قيمتها العلمية . هل لها خاصية إجرائية ؟ هل تتيح فهم الظواهر التي تدرسها وخاصة المجتمع الغربي المعاصر الذي ترتبط به بشكل وثيق ؟ والواقع أن الإجابة ، عن هذه النقطة ، ليست سهلة ولا متجانسة . .

لقد قلنا لحد الآن أن أهم التيارات النظرية في العلوم الإجتماعية المعاصرة ، وكذا البحث الوضعي التجزيئى الذي يتكاثر إتساعه ووزنه ، والذي سبق لنا أن إنتقدناه في هذا الكتاب ، يغيبان التحويلات النوعية للبنيات الاجتماعية كما يغيبان البعد التاريخي للوقائع الإنسانية . والحال ، أنه مادامت القيم الجوهرية التي تحيي سلوك المجموعات الإجتماعية معرضة لتغير مستمر وسريع إلي هذا الحد أو ذاك ، فإن هذا البعد كان أساسيا ، سواء بالنسبة لفهم الوقائع المدروسة أو بالنسبة لفهم الفكر السوسيولوجي نفسه الذي تشكل هذه القيم عنصرا أساسيا منه .

ولكن ظهور قيمة السيطرة علي الطبيعة ، منذ قرون خلت ، وهي قيمة دائمة ومشتركة بين مختلف المجموعات الاجتماعية ، أتاح تأسيس متن مهم من العلوم الفيزيائية – الكيميائية اللا تاريخية واللا دياليكتيكية ، لكن التي تعتبر في الوقت نفسه بالغة الفعالية والاجرائية .

وبالمقابل ، فقد أعطت ، داخل العلوم الإنسانية ، كل محاولات التفكير في نموذج العلوم المسماه " محضة " أقل عدد ممكن من النتائج الإيجابية . ويبقى أننا نتواجد اليوم في انعطافة ذات أهمية خاصة في صيرورة المجتمعات الغربية ، وهي ظهور آليات التنظيم الذاتي الاقتصادي ، وأنه وقد كتبنا هذا مؤخراً في مقال خصصناه بالضبط لهذا المشكل ،إذا تكون مجتمع ، مزود بآليات الضبط الذاتي ، وركز قيادة المجتمع بين يدي مجموعة مختزلة نسبيا من المتخصصين في كل المجالات وضمن للاغلبية الكبيرة من الناس ارتفاعا بطيئا إلي هذا الحد أو ذاك ولكن مستمرا لمستوي العيش ، بإغلاقهم في وضع اعتباري يصبحون فيه مجرد منفذين سلبيين أكثر فأكثر ومجردين من المسؤوليات ، فإن السؤال سينصب حول معرفة ما إذا كان ذلك سيؤدي إلي خلق ظرف يتضمن وضعية اعتبارية لعلوم اجتماعية تختلف عن الوضعية التي كانت تميز مجموع التاريخ السابق ، ويقربها من وضعية العلوم الفيزيائية – الكيميائية والطبيعية .

وفي العمق ، ففكرة القطيعة الجذرية داخل الصيرورة التاريخية ، سبق وشغلت بوصفها رؤية مستقبلية أكبر المفكرين الدياليكتيكيين في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . فنهاية التاريخ ولحظة المعرفة المطلقة عند هيغل ، ونهاية ما قبل التاريخ وبداية التاريخ عند ماركس والماركسيين يطابقان فكرة التحول النوعي ، الذي تستطيع بفضله معرفة الإنسان والمجتمع أن تصير موضوعية وشفافة .

ويشكل أقل طوباوية بكثير ، وأقل تفاؤلا (بل وفاقد للأمل أحيانا) أكد أهم الفلاسفة والكتاب المعاصرين وجود تحول مماثل . إذا حاولنا أن نصوغ طبيعته ، في لغة بنيوية ، فمن الممكن أن نخصصها علي أنها ظهور لنظام اجتماعي ، بواسطة آليات الضبط واضحة ومتطورة بما فيه الكفاية ، وأيضاً فإن الحركة التقنية لتحولات الطبيعة ، والعلاقات البين - إنسانية ، فيما تمتلكه مما يعتبر مستقبلاً نسبياً عن هذه التقنية ، لا يستطيعان قطعاً الوصول إلي تحول بارز للقيم الأساسية التي تحكم سلوك الناس في المجتمع . هذه النتيجة سيتم الحصول عليها من جهة بسبب كون الجزء الأكبر من الأفراد ، باعتبار المسؤوليات القليلة التي لازالوا يمتلكونها في عملهم ، وإختفاء الضغط الذي يسببه لحد الآن مستوي العيش الأكثر تدنياً وندرة الخبرات ، لم يعد بطرح مشكل القيم علي مستوي بالغ الحدة بشكل يجعل هذه الأخيرة (القيم) قادرة علي التأثير بفاعلية علي سلوكهم ، في حين نلاحظ من جهة أخري أن القيم التي تمتلكها المجموعة الموجهة ستسمح بضمان التطور التقني دون أن تصادم هذه المجموعة طبيعتها الخاصة ، وأن تقنيات التدخل الإقتصادي والإجتماعي سيتيحان لها إخفاء اللا توازنات الإجتماعية التي يمكن أن تثير تساؤلات حول القيم المهيمنة بواسطة " المنفذين " .

في مجتمع كهذا ، تستطيع القيم (لست متأكداً تماماً من أنه لازال بالإمكان الحديث عن الحكمة علي مستوي القبول الواعي للقيم أن تبلغ وضعية إعتباريةه قابلة تقريباً للإستمرار كالبحث عن الهيمنة التقنية علي الطبيعة في قطاع العلوم الفيزيائية - الكيميائية والطبيعية .

إن السوسيولوجيا اللا تاريخية تستطيع إذن أن تكتسب قيمة إجرائية حقيقية ، وبوصفها قطاعاً مهماً من الحياة الإجتماعية يتميز بثبات المعايير الأساسية التي تحكم السلوكات ، فإن هذا العلم سيهتم بالمظاهر أكثر من إهتمامه بأساس وجوهر الواقع

الإنسـاني ، ولكن مـشكل الجوهر سـيصبح أقل إلحـاحاً لأننا سنكون قد توصلنا إلي جعل هذه التمظهرات مستمرة .

ويبقى أن نعرف ما إذا كان هذا المنظور ، مهما كانت قوة التوجهات التي نتجه نحو هذا المعني ، و مـهمـا كـانت قـوة الحظوظ (أو الأخطار) التي تتـحـقق ، بشكل بالنسبة للمفكرين الذين لازالت تحييهم قيم النزعة الإنسانية الغربية ، شيئا مرغوباً فيه ومقبولا ، أم بالمقابل شيئاً خطيراً للغاية .

إلا أنه كيفما كان اختيار كل واحد منا ، فمن المهم أن ينجزه بوعي ، و هذا يعني، من بين أشياء أخري ، بالنسبة للسوسيولوجي ، أن يجتهد في معرفة دلالة أهم تيارات السوسيولوجيا المعاصرة ، وطبيعة علاقاتها مع الواقع الإجتماعي المعاصر ، ودلالة تأثير هذه التيارات داخل هذا الواقع ، والآطر الإجتماعية التي تستطيع أن تيسر أو العكس تقلص قيمها الوضعية بوصفها وسائل للمعرفة .

لندقق ، دون أن نستطيع تطوير هذه النقطة في هذه المقدمة المختصرة ، بأن نقدنا لرأسمالية التنظيم ، أو حتي نستعمل مصطلحات أخري تعني نفس الشيء ، لمجتمع الإستهلاك أو لمجتمع الإنتاج بالجملة ، لا تريد أن ترجع إلي الوراء وتضع موضع تساؤل الاكتشافات الإيجابية لهذا المجتمع (رفع مستوي العيش ، آليات التنظيم التي سمحت بإلغاء الأزمات البالغة الخطورة ، الخ) ، بالضبط كما أن نقد ماركس للرأسمالية الكلاسيكية ، لم تكن تقوده فكرة إمكانية أو ضرورة العودة إلي مجتمع العصور الوسطي ؛ لكن الأبحاث الواقعية لنظام إجتماعي معين ليست قطعاً سبباً لكي نغلق أعيننا أمام جوانبه السلبية والخطيرة . وسواء أردنا ذلك أم لا ، فإن تطور المجتمعات المصنعة قد خلق وضعيات للتقدم ، والمشكل الذي يطرح اليوم علي السوسيولوجي ، وليس عليه وحده فقط وإنما علي المجتمع ككل ، هو مشكل معرفة ما إذا كان سيقبل توجهات العفوية لتطور موجه نحو بنية تكنوقراطية متزايدة ، أو بالعكس ما إذا لم تكن توجد هناك إمكانية للحفاظ علي كل المكتسبات التي يمكن أن يتيحها تطور مماثل محققاً علي الأقل نوعا من الديموقراطية الإقتصادية . ويبدو أن هذا المنظور يتضمن ، علي ضوء التجارب المعاصرة ، ضرورة تسيير ذاتي للمشاريع الصناعية والمؤسسات الإجتماعية ، تسيير يسمح قبل كل شيء بدمقرطة المسؤوليات ، كوسيلة وحيدة لإخفاء التهديدات الكبيرة التي يتضمنها التطور الحالي .

إلـــى اميـــل بريبـــى .

شهادة عن الإحترام والإمتنان .

مقدمة :

فى بدايتنا لهـذا العـمل ، كنا نريد عنونتــه بـ مــقـدمــة لمشــاكل المنهج في سوسيولوجيا الفكر . وحين إنتهينا من تحريره ، لاحظنا أنه تركز حول مشكل العلاقات بين العلوم الإنسانية والفلسفة .

وكما هو معلوم ، إذا كانت الفلسفة أكثر من مجرد تعبير تصوري عن مختلف رؤيات العالم ، وإذا ، كانت خارج خاصيتها الأيديولوجية ، تحمل أيضا بعض الحقائق الجوهرية المتعلقة بعلاقات الإنسان مع الناس الآخرين وعلاقة الناس مع الكون ، فإن هـذه الحقـائق يجـب أن توجـد بالضبـط فــى قاعدة العلوم الإنسانية وبالخصوص في مناهجها .

كل فلسفة : هي قبل كل شيء ، فلسفة للوعي والفكر (دون أن تكون بذلك مثالية بالضرورة) وقد حاولت فلسفات الطبيعة ، منذ عصر النهضة وحتي شيلنغ و هيجل ، إدخال الفكر والوعي في الكون الفيزيقي ، وقد بدا أن تطورالعلوم الفيزيائية الكيميائية قد برهن علي خطإ هذا الإدعاء . وقدتم هذا التصور علي حساب فلسفة الطبيعة التي كان عليها أن تترك الساحة . وعن هذه التجربة ظهرت فكرة ، صالحة حتي إشعار آخر

بالنسبة للعالم الفيزيقي : لا يصل مجال معرفي إلي العلم الوضعي ، إلا إذا تحررمن أي تدخل فلسفي .[١]

وقد حاولت العلموية تعميم هذا التأكيد علي العلوم البيولوجية والإنسانية ، مدافعة بذلك عن بيولوجيا آلية وعن سوسيولوجيا سلوكية ، وعن تاريخ تجريبي ، وسوسيولوجيا تشييئية ووضعية .

فإذا صدقت ، فإن الفلسفة إرث إيديولوجي لم يعد له أي مبرر للبقاء ويجب أن نتحررمنه .

ولكن إذا كانت الفلسفة ، علي العكس من ذلك ، تحمل واقعيا بعض الحقائق حول طبيعة الإنسان ، فإن كل محاولة لإلغائها تحرف بالضرورة فهم الوقائع الإنسانية . في هذه الحالة يجب علي العلوم الإنسانية إذا أرادت أن تكون علمية .

إن دراسة المنهج في العلوم الإنسانية تطرح ، حتي علي مستوي العلم الوضعي ، قضية اللا جدوي أو ، علي العكس قضية القيمه الحالية للفلسفة . وسنفهم ان هذه القضية توجد في خلفية دراستنا .

قبل إنهاء هذه المقدمة ، نريد أن نشكر الأستاذ E.Brechier الذي حثنا علي التفكير في قضايا المنهج ، والذي بدون ملاحظاته كان من المحتمل الا ترى هذه الدراسة النور .

---

(١) في سكرتارية مؤسسة السيكولوجيا ، سمعنا يوماً موظفة تفسر لطالب شاب جاء لقصد التسجيل ، بأن الإحصاء يوجد في مقرر الدروس لكي يمنع تدني السيكولوجيا إلي فلسفة .

مراجــع التقـديم

المراجع العربية :

- البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ، مؤسسةالأبحاث العربية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦.

كتاب جماعي نشر في مجلة آفاق التي يصدرها إتحاد كتاب المغرب تم إعتماد مقالي محمد برادة المترجمين : " المادية الجدلية وتاريخ الأدب " و " الوعي القائم والوعي الممكن " ، ومقال إبراهيم الخطيب : " قراءة سياسية للرواية : " الغيرة " .

- المنهجية في علم إجتماع الأدب : مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر ، الطبعة الثالثة ١٩٨٤.

وهي ترجمة للمقال الأول من كتاب " الماركسية والعلوم الإنسانية " لغولدمان . قام بالترجمة مصطفي المسناوي .

المراجع الفرنسية :

Goldman (L) :

- *Le dieu cahe,* Gallimard , Paris 1956 .
- *Marscisme et sciences humaines* , Gallimard , Paris 1970 .
- *Pour une sociologie du Roman* , Gallimard , Paris 1964.
- *Recherches dialectiques*,Gallimard , Paris 1958.
- *Structuratisme genetique en sociologie de la litteratur, sans: structuralisme genetique* : Goldmann . Presente par : Annie Goldmann , M. lowy, S.Nair,Gonthier1977 .

Lukacs (.G) :

- *Histoire et conscience de classe,* Minuit , Trad : Kostas Ascelos et Jacqueline Bois .

- *Theorie du Roman* , Gonthier , 1963 .

Nair (S) :

- *Forme et sujet dans la creation culurelle , Dans : structruralisme genetique* : Goldmann .

Zima (P) :

- *La mise en scene de la dialectique : Trois modeles dans : structuralisme Genetique* : Goldmann .
- L' *ambivalence Romanesque : Proust , Kafka* , Musil , Edi: verbag Peter lang 1988 .
- *Manuel de sociocritique* , Picard 1985 .

Zeraffa (M) :

- *Roman et societe* , Pur 1971 .

الفصل الأول

الفكر التاريخي وموضوعه

كل واقعة اجتماعية تعتبر تاريخية والعكس . ويتبع ذلك أن التاريخ والسوسيولوجيا يدرسان نفس الظواهر، وإذا استوعب أحدهما مظهرا واقعيا ما ، فإن الصورة التى سيعطيها له لن تكون إلا جزئية ومجردة إذا لم تكمل بمساهمات الآخر . والحال أن الانتقال من المجرد إلى الملموس لا يحصل عليه بجمع صورتين جزئيتين . فلا يمكننا أن نحصل على معرفة حقيقية بالوقائع الإنسانية عبر جميع النتائج الجزئية والمشوهة لسوسيولوجية تشييئية أو سيكولوجية مع نتائج تاريخ سياسى أو بكل بساطة وضعى . فالمعرفة الملموسة ليست مجموعا ولكنها تركيب من التجريدات المبررة . وفى حالتنا هذه ، إذا لم تكن التجريدات مبررة ، فإن تركيبها يصبح مستحيلا . إن الأمر لا يتعلق إذن بالجمع بين نتائج السوسيولوجيا ونتائج التاريخ ، بل بالتخلى عن كل سوسيولوجيا وتاريخ مجردين وذلك بهدف الوصول إلى علم ملموس للوقائع الإنسانية لا يمكنه أن يكون إلا سوسيولوجية تاريخية أو تاريخاً سوسيولوجياً . هذه هى الأطروحة التى نسعى إلى الدفاع عنها من خلال هذه الدراسة .

ولا يمكن للسوسيولوجيا أن تكون ملموسة إلا إذا كانت تاريخية: وكذلك التاريخ ، إذا أراد أن يتجاوز مجرد تسجيل الأحداث ، فيجب أن يصبح بالضرورة تفسيريا . أى ستوسيولوجيا إلى هذا الحد أو ذاك .

تاريخ ، سوسيولوجيا تاريخية ، فلسفة التاريخ ، كل هذا يطرح مشكلا إيبستيموجيا أوليا . لماذا يهتم الإنسان ببعض الوقائع الخاصة والمحددة فى الزمن ؟[1] لماذا يهتم الإنسان بالماضى ؟ وما الذى يهمه بالخصوص فى هذا الماضى ؟

لأول وهلة ، يبدو الجواب بسيطا : موضوع التاريخ هو المعرفة الأكثرصرامة والأكثر دقة بالأحداث فيما يميزها مما هو نوعى و خاص و ذلك دون اعتبار للمصلحة الفردية والجماعية أو للمنفعة العملية . إن المؤرخ عالم يبحث عن الحقيقة ، وهذا هدف وليس وسيلة ، فمن الواضح أن :Adequatio rei et intellectus هو الهدف العام لكل نشاط علمى ؛ أما بالنسبة للوسائل فهى : النزاهة و الشمولية و الروح النقدية و الإخلاص فى العمل دون أن نتكلم عن الفطنة و الذكاء وهما بديهيين .

ومع ذلك فإذا فحصنا ذلك عن قرب ، فإن الأشياء تبدو معقدة . ففى رغبتها فى تأكيد وجودها فى القرنين السادس و السابع عشر بواسطة صراع عنيف ضد كل أنواع التدخلات التيولوجية والإجتماعية ، ركزت الفيزياء المعاصرة بحدة على المطالبة ببحث نزيه . وهكذا ساهمت فى خلق ايديولوجيا علموية جعلت من كل بحث وكل معرفة بالوقائع قيمة ، ونظرت بنوع من الإحتقار إلى المحاولات التى تربط الفكر العلمى بالمنفعة العلمية وإحتياجات الإنسان . كان بإمكاننا أن نقول إن المجتمع المعاصر أعاد اشتراء أخطاء الماضى بتعويض صعوبات رواد العلم بإجلال و احترام و اضعين لكل أولئك الذين استمروا أو دافعوا الآن عن استمرار مهمتهم . إن النتائج النهائية لهذه الأيديولوجيا كانت ، فى العلوم الإنسانية ، هى ظهور العديد من الباحثين الذين يقضون حياتهم فى مراكمة أقصى حد ممكن من المعارف فى مجال ضيق وجزئى معتقدين بذلك أنهم انتروبولوجيون ومؤرخون ولسانيون وفلاسفة . الخ .

ومع ذلك ، فهذا الموقف ، حتى فى زوائده ، كانت له ولازالت جدواه و مبرراته . إن عمل البحث العلمى يحتاج إلى الحرية والإستقلال عن تدخل أجنبى . ويتطلب كذلك من الباحث ، لا التنكر لكل إيديولوجيا ، ولكن بذل كل الجهود التى يستطيعها ، حتى يجعل هذه الأخيرة تابعة لحقيقة الوقائع التى يدرسها فى عمله . والحال أن هذه احتياجات تعبر عن نفسها من خلال المطالبة ببحث نزيه.

---

(١) نعتقد أن التاريخ يعانق الوقائع الماضية و الحاضرة والمستقبلية . ولكن حتى نبعد مناقشة قد تؤدي بنا إلي الابتعاد عن الموضوع الذي يهمنا الآن ، نتساءل الآن فقط ومؤقتا عن السبب الذى يجعل الإنسان مهتما بالماضى . والجواب سيفيد بالأحرى بالنسبة للوقائع التاريخية الحاضرة أو المستقبليه .

أما فيما يتعلق بتقييم سعة الاطلاع يبرر من وجهة نظر مزدوجة : أولا باعتبار الاطلاع كشرط ضروري لكل بحث جاد ، يصبح بشكل طبيعي ، وغير مباشر ، قيمة اجتماعية ولأن تقييم الاطلاع هذا أى ضرورة تعرف الكتاب بعمق على المواضيع التى يكتبون حولها ، يمارس بالطبع ، تأثيرا ملائما على مستوى البحث العلمي ؛ وثانيا ، بواقع أننا لا نستطيع قطعا أن نعرف مسبقا لا الفائدة العلمية ولا الفائدة العملية التى يمكن أن تقدمها مجموعة من الوقائع لم تفحص بعد بكفاية . هناك بدون شك ، فى بعض البحوث التفصيلية ، بعض الاهدار للوقت والطاقة ، ولكن هذه النفقات الصغيرة لا مفر منها فى عمل البحث ، وقد أثبتت التجربة أن الدعم والحرية الكاملة لكل بحث دون مراعاة لمنظور المنفعة العملية الذى يمثله منذ البداية ، هى الموقف الذى يفيد أكثر على مستوى المنفعة نفسه .

ومع ذلك فهذا كله ، يجب ألا يحجب حقيقة إيبستيمولوجية جوهرية ، أثبتها ماركس منذ 1846 فى الأطروحات حول فويرباخ ، وسلطت عليها الضوء فيما بعد الأبحاث السيكولوجية لجان بياجى G. Piaget . إن الفكر الإنسانى ، بصفة عامة ، وضمنيا ، المعرفة العلمية التى تعتبر مظاهره الخاص ، يرتبطان بشكل وثيق بالسلوكات الإنسانية وبتأثيرات الناس على العالم المحيط . فالفكر العلمى ، بوصفه الهدف النهائى لكل باحث ، ليس إلا وسيلة للمجموعة الإجتماعية وللإنسانية عامة .

والحال ، أن المنفعة العملية للعلوم الفيزيائية – الكيميائية ، من وجهة النظر هذه ، تعتبر بديهية . فهذه العلوم تشكل أساس كل تقنية ، فهى ليست فقط وسيلة للتنبؤ كما أراد أوغست كونط A. Comte ، بل تعد أيضاً وسيلة لإنتاج الطبيعة والسيطرة عليها وتغييرها [٢] ولكن هذه البداهة نفسها تطرح مشكل أساس العلوم التاريخية . ماذا يمكن أن تفيد معرفة الأحداث المفردة والمحصورة تماما فى الزمن والمكان خاصة حين يتعلق الأمر بالأحداث الماضية ؟

لنبعد بسرعة الفكرة التى ترى أن المنفعة الأساسية للتاريخ يمكن أن تكمن فى كونه يمدنا بالدروس ، ويعلم الناس الكيفية التى عليهم أن يتصرفوا بها الآن أو فى المستقبل

---

(٢) نضيف أيضا أنه كانت لها في بعض العصور ، في أوروبا الغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلا ، بالإضافة إلى دلك ، وظيفة آخري هى اثبات بعض القيم الايديولوجية ، ومن هنا أهميتها الكبيرة بالنسبة لفلسفة هذه المرحلة .

لتحقيق الأهداف المتوخاة . من الواضح أن الشروط تتغير فى الأغلب رأسا على عقب فنحن لا نتعلم من الحروب القرطاجية كيف نكسب معركة اليوم ، ولا من تاريخ الثورتين الفرنسية والإنجليزية كيف نحل المشاكل التى تطرحها الثورات المعاصرة . فمن وجهة النظر هذه ، تعتبر القيمة النفعية للعلوم التاريخية منعدمة تقريباً ، ويمكن أن نرى فيها هنا الحالة النمطية لعلم شامل ونزيه .

غير أننا إذا فعلنا ذلك سنخلط فيما يبدو ، بين خاصية البحث الفردى النزيهه بالضرورة ، والخاصية المرتبطة بالضرورة بالممارسة وبالحياة هذه الخاصية التى تتصل بكل نسق للمعرفة يتصور فى إطار وظيفته الاجتماعية . غير، أن ما يبحث عنه الناس والمجموعة الاجتماعية فى التاريخ ليس هو الوسائل ، أى الطرائق والتقنيات ، وإنما هو بالأساس القيم والأهداف .

فمشكل الأسس الانطولوجية والإيبستيمولوجية للتاريخ يعتبر مظهرا خاصا من المشكل الانطولوجى العام الذى هو علاقات الإنسان مع الآخرين ، وهو ما سماه بعض الفلاسفة المعاصرين ، انطلاقاً من موقف ديكارتى ، بمشكل "الآخر " ، لكن من الدقيق أن نحدده باعتباره مشكلا ل " النحن " . إن هذا بالطبع ليس مجرد لعب بالكلمات ، ولكنه أحد نقط الانطلاق الأكثر أهمية فى الفلسفة المعاصرة .

لقد كتب ديكارت " أنا أفكر إذن أنا موجود " Ego sum ,ego escisto " . مبرزاً هذه الأنا التى ستبقى أساسا لكل فلسفة عقلانية أو تجريبية عبر الجواهر المفردة ل : لايبنتز والنزعة الحسية لدى التجريبيين والأنا الفيختى بل والمسندات المنفصلة جذرياً عن بعضها عند سبينوزا ، وحتى أيامنا هذه تمكنا من أن نقرأ فى كتاب للنحو للسنة الرابعة هذا التأكيد باعتباره مسلمة : " أنا ليس له جمع فنحن هى أنا وأنت " (٢) . إن " الأنا " حين يطرح ، من هذا المنظور ، يصبح ، باعتباره معطى أولا أساسيا ، ونقطة للإنطلاق وقضية للعلاقات بين الناس ، بشكل طبيعى هو مشكل " الآخر " . وسيصبح " الآخرون " شبيهين بالواقع المادى والمحسوس . إنهم ليسوا إلا كائنات أراها وأسمعها ،

(٢) برونو وهولي ، النحو الفرنسي ، قسم السنة الرابعة ، إلا أن الكاتبين واعيان مسبقا بأن هذا التأكيد ليست له قيمة مطلقة لأنهما يمما : ولكن نحن يمكن أن تكون جمعا حقيقيا . كل التلاميذ أجابوا · نفضل أن نتباري مساء الاثنين . Nous aimons mieux composer lundi soir نضيف أن المثال ليس موفقا ، فـ composer ليس في النظام المدرسي الحالي سلوكا جماعيا ذاته هي المجموعة الحقيقة .

كما أرى حجراً يسقط وكما أسمع سقوطه . وليس من المستغرب إذن ، إذا أكدنا أنه كان للعقلانية والتجريبية تاريخ خارجي ، فليست هناك فى هذين المنظورين ، فلسفة للتاريخ . إن الماضى بالنسبة لهما يعتبر جذريا وببساطة ماضياً ولم تعد له أى أهمية وجودية لا بالنسبة للحاضر ولا بالنسبة للمستقبل .

وعلى العكس من ذلك ، فإن الفكر الدياليكتيكى ، إبتدأ بجملة قد تكون مبالغة ، ولكنها تعد تقريبا بمثابة بيان ، إعلاناً عن تغير جذرى جاء ليتم فى الفكر الفلسفى . فعن " أنا " مونطين و ديكارت ، أجاب بسكال " إن الأنا ممقوت " ، ومن هيغل إلى ماركس ، سيصبح الناس " الآخرين " شيئاً فشيئاً ، لا عبارة عن كائنات أراها و أسمعها ، بل سيصبحون أولئك الذين أعمل معهم فى مجموعة . فلم يعودوا ينتمون إلى الموضوع ، بل أصبحوا ينتمون إلى الذات ، ذات المعرفة والسلوك . وهكذا أصبحت " النحن " حقيقة أساسية ، تعتبر " الأنا " بالنسبة لها لاحقة ومشتقة . وفى أيامنا هذه، صاغ ب . بريخت Brecht وهو من أكبر شعرائنا الثوريين ، هذا الموقف فى كلمات تناولت جملة برونو Bruneau وقلبتها دون أن تقصد ذلك . فقد أجاب الحمال الرأسمالى المستعمر الذى طلب منه أن يضحى فى سبيل مشروعه الذى قدمه له على أنه عمل حضارى : " نحن وأنا وأنت ، ليسوا نفس الشيء " . مما يعنى : أنه ليست هناك نحن ، إلا حين يكون هناك تلاحم أصيل . والحال أن العامل فى المشروع الذى زعم أنه جماعى ، يبحث عن أجرته ، أما الرأسمالى فعن الربح . فالإنتقال من الوضعية الخاطئة ل " الأنا والأنت " إلى " النحن " الأصيلة والواعية ، هو مشكل الأسس الايبستيمولوجية للتاريخ .

فانطلاقا من هنا إذن ، يجب أن نتصور المشكل الذى انطلقنا منه . فالأساس الأنطولوجى للتاريخ هو علاقة مع الآخرين ، هو واقع أن " الأنا " الفردى لايوجد إلا فى خلفية المجموعة . فما نبحث عنه فى معرفة الماضى ، هو نفسه ما نبحث عنه فى معرفة الناس الحاليين . إنها أولا المواقف الأساسية للأفراد والتجمعات البشرية تجاه القيم ، والتلاحم والكون . فإذا كانت معرفة التاريخ تمثل أهمية عملية بالنسبة لنا ، فلأننا تعرفنا من خلالها على أناس ، دافعوا ، فى وضعيات مختلفة وبوسائل مختلفة ، غير صالحة للتطبيق غالبا على عصرنا ، عن قيم ومثالات مماثلة ، شبيهة أو معارضة لتلك

التى نتوفر عليها اليوم ، وإن هذا يجعلنا نعى بأننا نشكل جزءاً من كلٍّ يتجاوزنا ، وأننا نستمر فى الحاضر وأن الناس الذين سيأتون بعدنا سيستمرون فى المستقبل . إن الوعى التاريخى لا يوجد إلا بالنسبة لموقف تجاوز الأنا الفردانى ويعد بالتحديد أحد الوسائل الأساسية لتحقيق هذا التجاوز . إن الماضى بالنسبة للعقلانية ، ليس إلا خطأ تفيد معرفته فى تسليط الضوء على تطور العقل ؛ أما بالنسبة للنزعة التجريبية فالماضى يعتبر كتلة من الوقائع الواقعية والتى ، بوصفها كذلك ، تعتبر يقينية بالقياس إلى مستقبل تخمينى ؛ ووحده الموقف الدياليكتيكى بإمكانه أن يحقق التركيب بفهمه للماضى على أنه مرحلة وطريق ضرورى وصحيح نحو الفعل الجماعى لناس طبقة معينة فى الحاضر لتحقيق تلاحم أصيل وكونى فى المستقبل .

إن الناس يبحثون فى التاريخ عن تحولات ذات الفعل داخل العلاقة ناس – عالم ، إنهم يبحثون عن تحولات المجتمع الإنسانى .

ويتبع ذلك أن موضوع العلوم التاريخية يتشكل من الأفعال الإنسانية فى كل الأمكنة وكل الأزمان شريطة أن تكون لهذه الأفعال فى الماضى أو الآن أهمية بالنسبة ل / أو تأثير على وجود وبنية مجموعة إنسانية معينة ، وضمنيا ، عبر هذه الأخيرة ، على وجود بنية المجموعة الإنسانية الحاضرة أو المستقبلية .

وهذا التعريف لا يشمل فقط الظواهر الجماعية كالحروب الصليبية أو الثورة الفرنسية ، وإنما يشمل أيضا بعض السلوكات والأفعال الفردية كحياة نابليون وأفكار باسكال وحركتى القديس دومينيك والقديس فرانسوا أو حركة كراكوس بابوف . G. Babeuf ولهذا يبدو لنا من الأجدى أن نكشف عن مسألتين خاطئتين توجدان غالباً فى المؤلفات التى تعالج المنهجية ·

١- مسألة تحديد الحدث التاريخى بواسطة تأثيره أو بواسطة القيم ،

٢- مسألة التمييز فى التاريخ ، بين القوى الجماعية وفعل العظماء .

فى ما يتعلق بموضوع تمييز الأحداث التاريخية من داخل كلية الواقع ، هناك أطروحتان يتعارض حولهما المنظرون . فبعضهم يؤكد أن الوقائع تكون تاريخية بواسطة التأثير الذى تمارسه على مجرى الأحداث . وتلك هى أطروحة إدوار ماير E. Meyer الذى رد عليه ماكس فيبر بأن كل الأحداث تمارس تأثيرا قد يكون كبيراً

وصغيراً على الأحداث الأخرى ، ولهذا فلن يكون بالإمكان ، من هذه الناحية ، التمييز بين الأحداث التاريخية والأحداث التى ليست كذلك . ولهذا يعتقد فيبر، منضماً فى ذلك إلى المدرسة الكانطية الجديدة فى هايد لبورغ ، أن المعيار الوحيد لهذا التمييز هو أهمية الأحداث بالنسبة لسلالمنا القيمية وهكذا فإن حدثاً يمكن أن يكون تاريخيا بالرغم من كونه لم يمارس إلا تأثيراً طفيفاً على الناس ، وذلك فى الحد الذى يعبر فيه مثلا عن موقف إنسانى جوهرى تجاه القيم التى لازالت لها علاقة وطيدة بالقيم التى نقبلها نحن الآن .

نلاحظ ببساطة أنه إذا قُبلو تعريفنا ، فإن المشكل سيصبح مفتعلا ، فإذا كان التلاحم الإنسانى قيمة كونية ، صالحة ، لكل الناس ، فإن كل حدث كان له تأثير ولازال على طبيعة هذا التلاحم ، وكل ما يتجاوز الفرد ويلامس الحياة الاجتماعية (التى تعتبر الحياة الثقافية وخاصة القيم جزءاً مكملاً لها) ، يشكل حدثاً تاريخياً .

وهذا المعيار نفسه هو الذى يحدد أهمية العظماء بالنسبة لدراسة التاريخ . هذا الأخير ليس له إلا موضوع واحد ، الحياة الإجتماعية بكل أشكالها ، ويهتم بكل ما كان له تأثير واضح ولازال على المجموعة . وهذا ينسحب أيضا على حياة الأفراد وأفعالهم ، إن حياة الضابط الشاب بونابارت ، الذى إزداد تحت حكم لويس الخامس عشر ، كان من المحتمل أن لا تكون لها إلا أهمية حكائية لو حدّت الظروف من تمكنه وفعله . وكذلك ، فبيوغرافية راسين أو كيركغارد لا تهم التاريخ إلا فى مستوى جد محدود وبطريقة غير مباشرة وذلك عبر الإضاءات التى يمكن أن تلقيها على أعمالها عند الاقتضاء . وبالمقابل فهذه الأخيرة (الأعمال) تعتبر فى حد ذاتها واقعة تاريخية كبيرة الأهمية بالنظر إلى التأثير الذى كان لها ولازال ، فى فترة معينة ، على طريقة التفكير والإحساس عند الناس ألذين يشكلون بعض المجموعات الإجتماعية . وأيضاً فإن بيوغرافية سيد فيودالى فى القرن العاشر أو الحادى عشر ، يمكن أن تكون كبيرة الأهمية بالنسبة للمؤرخ فى الحد الذى تقدم فيه بعض السمات النمطية التى تسمح بفهم الأسلوب العام لحياة الأسياد فى هذه الفترة ، أو بالأحرى تقدم موقفا إنسانياً معبراً تجاه بعض القيم الأخلاقية أو الإجتماعية . وبالمقابل ، فإنها ستبقى تقريباً دراسة إطلاعية مجردة من الأهمية حين تحكى حالة فردية ، ليست نمطية ولا معبرة ، وتمارس تأثيراً جد محدود على حياة مجموعات زمنها .

وهكذا ، فإن ما يؤثر على المجموعة ، يعتبر بسبب هذا نفسه ، واقعة تاريخية ، لأن الحياة الاجتماعية هى القيمة الوحيدة الجماعية التى توحد الناس فى كل الأزمان وكل الأماكن . إن ما نبحث عنه فى الوقائع التاريخية ، ليس بالدرجة الأولى ، هو واقعها المادى ، بل دلالتها الإنسانية التى ، لايمكن أن تعرف بطبيعة الحال خارج هذا الواقع . إن الأهمية التى يمكن أن تمتلكها الدراسة التقنية والتنقيبيةللوسائل والأساليب العسكرية ، التى كسب بفضلها مثلا فريدريك الثانى أو نابليون احدى معاركهما ، تكمن بالخصوص فى قدرتها على إبراز الطاقة الإنسانية والنفسية التى تابع بواسطتها هؤلاء الملوك أهدافهم ، وانعكاسات أفعالهم على ناس تلك المرحلة ، وردود أفعال هؤلاء الناس ، وباختصار كل ما يمكن أن يقيم ، متجاوزاً التفصيل الحكائى والتنقيبى وعبره، علاقة إنسانية إيجابية أو سلبية بيننا وبين ناس الماضى ، (يمكن أن نكتب نيرون أو نيكولا ألأول بدل نابليون) .

وهذا يدل على إختلاف جوهرى بين التاريخ ، الذى يدرس السلوكات الإنسانية ، وبين العلوم الفيزيائية الكيميائية التى تدرس المادة غير الحية . فهذه الأخيرة تنظر إلى الأحداث فى واقعها الملموس فقط على المستوى الخارجى ، أما المؤرخ فيجد نفسه أمام أفعال منجزة بوعى (سواء كان هذا الوعى صحيحاً أو مغلوطاً) ويجب عليه قبل كل شىء أن يعيد البحث عن دلالة هذه الأفعال . فالقول بأنه كان هناك فى سنة 79 بعد المسيح هيجان لبركان Vesuve ، والبحث عن أسبابه المادية ، هو شىء آخر غير محاولة إعادة بناء ردود أفعال سكان هيركيلانوم أو بومبي أمام هذا الهيجان . إن أحد أهم الاستحقاقات فى الفينومينولوجيا وعند أصحاب مدرسة الشكل ، فى ميدان السيكولوجيا ، و تذكيرنا بأهمية هذا الوعى و بالدلالات التى تعطيها له الأفعال والأحداث وبهذا المعنى ، فإن دراسة التاريخ هى قبل كل شىء محاولة لفهم أفعال الناس ، والدوافع التى تدفعهم إلى إنجاز هذا الفعل ، والأهداف التى يسعون إليها ، ودلالة سلوكاتهم وأفعالهم بالنسبة لهم .

فهل هذا فى الواقع هوكل شىء ؟ لانعتقد ذلك . إن ضعف الفينومينولوجيا يبدو لنا كامنا بالتحديد ، فى الرأى الجاهز الذى يقتصر على وصف فاهم لوقائع الوعى (أو لجواهرها حتى نكون مدققين) . والواقع أن البنية الحقيقية للوقائع التاريخية تتضمن ، بالإضافة إلى دلالتها الواعية فى فكر ونوايا الممثلين ، دلالة موضوعية تختلف عن الأولى بشكل واضح .

هل كانت الحروب النابوليونية حروبا دفاعية أم هجومية ؟ هل يتعلق الأمر بتحقيق هيمنة أوربية ، أم فقط بالدفاع عن انتصارات الثورة ضد حكومات النظام القديم ، وفى نفس الوقت ، بمواجهة انجلترا بدولة بورجوازية جديدة يمكن أن تصبح منافسا محتملا؟ إن الجواب يتوقف بالطبع على نتيجة الدراسات المختصة ، وفى كل الحالات، يجب أن تنجز هذه الأخيرة على مستويين ·

أ – مستوى وعى أهم الممثلين ، وخاصة نابليون نفسة ، ولكن أيضا

ب – مستوى العوامل الإجتماعية والاقتصادية والسياسية التى جعلت هذه الحروب تقريبا محتومة ، كيفما كانت نوايا قواد الامبراطورية دلالة هذه الحروب بالنسبة لهم .

وأيضاً فإن إعادة إقامة شرف النبالة وألقابهاالتى كان يجب أن تعوض بشكل ملائم إلى هذا الحد أو ذاك ، فى نية الإمبراطور ، الألقاب القديمة ، وتخلق نبالة مماثلة تقريبا للنبالة القديمة ، لم تستطع قط أن تمحو الاختلاف الموضوعى والجذرى بين نبالة البلاط التى ترتبط بملكية النظام القديم ، ونبالة الامبراطورية التى ترتبط موضوعيا بانتصارات الثورة (إلغاء حقوق الأسياد ، التجارة فى المصالح الوطنية ، قانون نابليون ، الخ .) .

لايستطيع مؤرخ ما أن يفهم البنية الاجتماعية للامبراطورية ، وهو يجهل الرغبة الذاتية لقوادها فى محو آخر ذكريات المرحلة اليعقوبية ، وفى إعادة إقامة النظام الاجتماعى والنبالة وبالعودة إلى الشرعية ، أو وهو يترك فى الظل ارتباطه الموضوعى بالثورة وبالصراع ضد النظام القديم .

إن المستوى المزدوج الذى ينبغى أن ندرس وفقه الأحداث التاريخية والاجتماعية ، يتضمن أيضاً معياراً مزدوجاً بالنسبة لأحكام القيمة التى يجب أن تولى الاعتبار إلى الانسجام الإنسانى والقوة الخلاقة للأفراد ، وكذلك للعلاقة بين وعيهم الفردى وواقعهم الموضوعى . هذا الإعتبار يطرح أحد أهم المشاكل فى كل سوسيولوجيا للفكر ، هو مشكل الأيدولوجيات ، وهو أوسع من أن نتمكن من دراسته بعمق ، ولكنه لن يكون بعيداً عن محور هذا العمل ، كما أنه يعتبر محورا لكل دراسة سوسيولوجية تجهد نفسها فى استيعاب المظاهر الجوهرية للحياة الإنسانية .

الفصل الثاني

المنهج في العلوم الإنسانية

أ - قضية الأيديولوجيات .
ب - وقائع مادية ومذاهب .

وهكذا ، فمن جهة ، ليست العلوم التاريخية والإنسانية، كالعلوم الفيزيائية الكيمائية، دراسة لوقائع خارجية عن الناس ، وقائع عالم يتوجه إليه فعلهم . إنها بالعكس من ذلك، دراسة لهذا الفعل نفسه ، و لبنيته ، وللتطلعات التى تحييه والتحولات التي يخضع لها ؛ ومن جهة أخري ، فباعتبار الوعي ليس إلا مظهراً واقعيا ولكنه جزئى للنشاط الإنساني ، فليس من حق الدراسة التاريخية أن تقتصر علي الظواهر الواعية ويجب عليها أن تربط النوايا الواعية لمثلي التاريخ بالدلالة الموضوعية لسلوكاتهم وأفعالهم.

وتتحصل من ذلك نتيجتان ٠

أ- فباعتبار سيرورة المعرفة العلمية هي نفسها واقعة إنسانية وتاريخية واجتماعية ، فإن هذا يتضمن حين يتعلق الأمر بدراسة الحياة الإنسانية ، تطابقاً جزئياً بين ذات المعرفة وموضوعها . ولهذا يطرح مشكل الموضوعية بشكل مختلف في العلوم الإنسانية عنه فى الفيزياء والكيمياء .

ب - باعتبار السلوك الإنساني واقعة كلية [١] ، فإن محاولات فصل مظاهره " المادية " عن مظاهره الفكرية " ، لا يمكن أن تكون ، في أحسن الحالات ، إلا تجريدات عرضية

---

(١) يتعلق الأمر ، وهذا بدهى ، بكلية ليست إلا عنصرا من الكلية . باس – طبيعة .

تتضمن دائما أخطاراً كبيرة بالنسبة للمعرفة . ولهذا يجب على الباحث أن يجتهد في البحث عن الواقع الكلي والملموس ، حتى وإن كان يعرف أنه لن يستطيع الوصول إلى ذلك إلا بطريقة جزئية ومحدودة ، وعليه من أجل هذا ، أن يدخل ، في دراسة الوقائع الاجتماعية ، تاريخ النظريات حول هذه الوقائع ، وأن يربط ، من جهة أخرى ، دراسة وقائع الوعي بتموضعاتها التاريخية وبنياتها الاقتصادية والاجتماعية التحتية .

إن الدراسة المعمقة لهذين المبدئين الجوهريين للمنهج في العلوم الإنسانية، تتجاوز أطر هذه الدراسة ويجب على الأقل أن نفحصهما قليلا ولن يكون ذلك إلا بشكل خطاطى

- ١ -

بلغت السوسيولوجيا اللاماركسية ، التي ازدادت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، بعد أعمال سان سيمون وكونط وسبنسر التي كانت بالأحرى برامج أكثر منها أبحاثاً ملموسة ، ذروتها مع أعمال دوركايم و الدوركايميين ، وفي المانيا مع أعمال ماكس ڤيبر .

والواقع ، فيما يبدو لي ، أنه لم يكن لهؤلاء مفهوم تام عن الموضوعية ، لأنهم كانوا يوقفونها فقط على الذكاء والفطنة والاستقامة الفردية للعالم ، جاهلين تطابق الذات والموضوع في العلوم الإنسانية ، ونتائج هذا التطابق بالنسبة لطبيعة ومناهج هذه الأخيرة . إن استحقاق جورج لوكاتش J. lukacs (الذي سيصبح ماركسيا فيما بعد) وهو أهم تلميذ لماكس فيبر ، هو طرحه لهذا المشكل بوضوح .

متعرضين له ، بدورنا ، سننطلق من الأعمال الأساسية الثلاثة التي طرحته في القرن العشرين : إ. دوركايم ، قواعد المنهج السوسيولوجي ، ماكس فيبر ، دراسات حول نظرية العلم و ج . لوكاتش ، التاريخ والوعي الطبقي.

لنؤكد في البداية ، أن دوركايم وخاصة تلامذته (٢) ، قد استخلصوا في محاولتهم

(٢) – إن استحقاق الفصل الجذرى بين المعطي والمعياري يرجع بالأساس إلي ليفي برول فى كتابه خلق العادات وعلمها ، وذلك لأن دوركايم ، كان لايزال في كتابة قواعد المنهج السوسيولوجي يدافع عن طرح شهير حول العادى و " المرضى الذي يمكن أن نستنبطه من قواعد السيرة انطلاقا من مجرد الدراسة الموضوعية للوقائع وعلي العموم يبدو أن تلامذته لم يتبعوه في هذه النقطة .

لبلورة سوسيولوجية علمية ، مبدئين (يحتويهما مسبقاً بشكل ضمني عمل ماركس) يشكلان اليوم مكسباً نهائياً في كل دراسة جادة :

أ – إن الدراسة العلمية للوقائع الإنسانية لا تستطيع أن تؤسس منطقياً بمفردها أي حكم قيمة . فالمنفعة " التقنية " للعلوم الاجتماعية تكمن فقط في إقامة أوامر افتراضية (العلاقات بين بعض الوسائل وبعض الأهداف) وفي جعل النتائج التي تستتبع ذلك واعية عبر نسبها لبعض القيم ؛

ب – يجب على الباحث أن يجتهد في الوصول إلى صورة صحيحة للوقائع ، ملغياً كل تشويه يرجع إلى تعاطفه أو نفوره الشخصيين .

حول هاتين النقطتين اللتين تصلحان بالاضافة إلى ذلك ، لكل علم ، ليس هناك أي إختلاف بين مواقف دوركايم و ماكس فيبر و جورج لوكاتش . وسنعتبرهما مسلمة ولن نرجع إليهما في كتابنا هذا .

والواقع ، أنه بعد قبول هاتين النقطتين ، يطرح مشكل الموضوعية في العلوم الإنسانية بكل اتساعه .

صحيح . أن دوركايم يبدو مقتنعاً بأن معرفة هاتين النقطتين كافية لضمان موضوعية البحث . إنه ينتظر من السوسيولوجي أن يدرس الوقائع الاجتماعية " من الخارج " ، " باعتبارها أشياء" ، لكنه لم يتساءل قطعا فيما إذا كان ذلك ممكن إيبستيمولوجيا . لنبدأ بالاستشهاد بمثال أخذ من الصفحات الأولي من كتابه . لكي يبين خطر المفاهيم المسبقة ، كتب دوركايم : " إن نفس غياب التعريف هو الذي دفع أحياناً إلى القول بأن الديموقراطية تلتقي في بداية التاريخ ونهايته . والحقيقة أن الديموقراطية البدائية وديموقراطية اليوم تختلفان كثيراً الواحدة عن الأخرى(ص:٣٨). هذه الملاحظة تعارض بوضوح التحاليل الماركسية للديموقراطية البدائية في المجتمعات غير الطبقية . (الواقع أن هذه التحاليل لم تجهل قطعاً الاختلافات التي تحدث عنها دوركايم غير أنها ، وهي ترسم لنفسها هدفاً هو التركيز على الخاصية التاريخية للطبقات الإجتماعية ، كانت تركز على السمات المشتركة بين المجتمعات البدائية والمجتمع الاشتراكي : الديموقراطية ، غياب الطبقات الاجتماعية ، الخ) . قد [٢] يكون

---

(١) كتبنا " قد " لأن الأمر يتعلق بمسألة تركيز .

دوركايم على صواب في هذه النقطة بالذات إلا أنه ، ثلاث صفحات قبل ذلك ، اقترح كمثال للتعريف " الموضوعي " تعريف الجريمة : " نستخلص وجود عدد معين من الأفعال التي تبرز كلها نسميه العقاب . ونجعل من هذه الأفعال مجموعة خاصة ، نفرض عليها قانوناً مشتركاً ، إننا نسمي جريمة كل فعل عوقب عليه ، ونجعل من الجريمة بحسب تعريفها هذا ، موضوعاً لعلم خاص ، هو علم الإجرام (ص : ٣٥) .

يجب أن نضيف أن هذا التعريف يشمل وقائع بارزة التباين كفعل المسيح وهو يطرد المتاجرين بالدين ، ونشاط طوماس مونزر T. Munzer وكارل ماركس أو لينين من جهة ، ومن جهة ثانية آخر عملية السلب والقتل بقصد السرقة ، وهي وقائع متعارضة علي الأقل كالديموقراطية البدائية والديموقراطية الاشتراكية .

والواقع ، أنه لا يجب أن نرى هنا ضعفا فرديا في التحليل الدوركايمي ، أو تناقضاً كما قال بذلك أحد السوسيولوجيين الذي نسجل له هذه الملاحظة . سنبقي سطحيين إذا فعلنا ذلك . إن التأكيدين يعتبران متجانسين تماماً [لو نظرنا إليهما] داخل المنظور ، المحافظ الذي تبلورت فيه ضمنياً كل سوسيولوجيا دوركايم والذي سيسمح لنا بتفسير الكثير من السمات الأخري لعمله وأعمال تلامذته [٤] . من الطبيعي أن ننتبه سوسيولوجية محافظة للنواقص المنطقية لبرهنة ثورية وأن ترتكب نفس الأخطاء المنطقية حين تدافع عن قيمها الخاصة . إلا أنه ، من وجهة نظر علمية ، لا يمتلك النصان المستشهد بهما نفس القيمة .

فبالنسبة لدوركايم ، يعتبر تدخل أحكام القيمة في البحث السوسيولوجي مجرد بقايا ستزول ، ترجع إلي صغر سن هذا العلم بالقياس إلي الرياضيات والعلوم الفيزيائية – الكيميائية . فقد كتب ، وهويتكلم عن قاعدته الأساسية : معالجة الوقائع

---

(٤) سيعترض علينا بدون شك . أ – بأن هذا التعريف بالنسبة لدوركايم تعريف مؤقت ، و ب – بأنه هو نفسه تكلم عن جرائم تلعب دورا إيجابيا في المجتمع (ص . ٧٠) وتعتبر شرطا للتقدم . ولكن من جهة ، لم يعلن لا ماركس ولا أنجلز ولا الماركسيين اللاحقين إنهم استنفدوا تحليل الشيوعية البدائية ، ومن جهة أخري تمسك دوركايم بتعريف الجريمة هذا ، وبالجمع تحت نفس المفهوم بين سلوكين يختلفان بطبيعتهما جوهريا
لنسجل كذلك أن دوركايم يعرف الأشكال " العادية " للحياة الاجتماعية بأنها " عامة عند مجموع النوع الإنساني ، وبأنها توجد ، إن لم يكن عند كل الأفراد ، فعلي الأقل عند معظمهم (ص ٥٥) مطابقا بذلك بين " العادي " والواقعي . وكذلك يعرف الواقعة الاجتماعية بواسطة إكراه " المؤسسات " وحبها . فالمؤسسات " تكرهنا ونحصل علي جزائنا من استغلالها ومن هذا الإكراه نفسه (ص xx) .
كل هذا يعكس نفس الايديولوجيا المحافظة التي تثمن النظام الاجتماعي القائم .

الاجتماعية بوصفها أشياء : " ما تطالب به هذه القاعدة ، هو أن يضع السوسيولوجي نفسه في الحالة الفكرية التي يكون فيها ، الفيزيائيون والكيميائيون وعلماء النفس ، حين يدخلون إلى منطقة مجهولة من مجالاتهم العلمية ... والحال أن السوسيولوجي يجب أن يصل إلى هذه الدرجة من النضج الفكري " (ص : ١٦) .

والحقيقة أننا نعرف اليوم أن الإختلاف بين شروط عمل " الفيزيائيين والكيميائيين وعلماءالنفس " ، وشروط عمل السوسيولوجيين أو المؤرخين ، ليس فى الدرجة ، وإنما في الطبيعة ، ففي نقطة انطلاق البحث الفيزيائى أو الكيميائي ، هناك اتفاق حقيقي وضمني ، حول قيمة وطبيعة وهدف البحث ، بين كل الطبقات التي تكون المجتمع المعاصر . إن المعرفة الأكثرملاءمة والأكثر فعالية للواقع الإنساني ، هي مثال لا يصادم اليوم [٥] لا مصالح ولاقيم أية طبقة إجتماعية . وفي هذه الحال ، فإن نقص الموضوعية في عمل عالم معين ، لا يمكن أن يرجع سوى إلي أخطاء شخصية (روح التنظيم ، نقص الذكاء ، مزاج انفعالي ، الطموح ، وإلى حد ما ، نقص النزاهة الفكرية) .

وبالمقابل ، فالوضعية تختلف في العلوم الإنسانية . لأنه إذا كانت المعرفة الملائمة بالوقائع لا تؤسس منطقيا شرعية أحكام القيمة ، فمن المؤكد ، بالمقابل ، انها سيكولوجيا تتيح أو لا تتيح هذه الشرعية في وعي الناس . إن تشبيه الثوري بالمجرم هو من طبيعة تحول القارىء عن الأول ، ووجود مجتمع بدون طبقات في الفترة البدائية، يجعل من التأكيد على أن الناس باستطاعتهم بناء مجتمع آخر بدون طبقات في المستقبل ، تأكيداً محتملاً ، والتحليل الملائم للتناقض بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع المعاصر ، يمكن أن تكون له نتائج سلبية علي الأيديولوجيات المحافظة ، الخ . والواقع ، أنه حين يتعلق الأمر بأهم القضايا التي تطرح علي العلوم الإنسانية ، فإن مصالح وقيم الطبقات الاجتماعية تنقلب رأساً علي عقب . فعوض اتفاق أحكام القيمة الضمني أو الصريح ، حول البحث والمعرفة الملائمة التي توجد في قاعدة العلوم الفيزيائية – الكيميائية ، نجد في العلوم الإنسانية اختلافات جذرية في المواقف ، تتموضع في البداية قبل عمل البحث وتظل غالبا ضمنية ولا واعية . ولهذا فالموضوعية ليست هنا مجرد مشكل فردي ، ذلك أن الأمر لا يتعلق فقط بذكاء الفرد وانتباهه ونزاهته الفكرية وبعض مميزاته وأخطائه الأخري . فهذا الأخير يمكنه أن يتجاوز أفق

---

(٥) – لم يكن الوضع كذلك في القرن السادس عشر والسابع عشر .

طبقته ، ويقبل بمنظورات تطابق مصالح طبقة أخري وقيمها ، وخاصة إذا كان موقفه الجديد هذا يسمح له بفهم أفضل للوقائع : بل ويمكنه كذلك – ليس بالضرورة أن يكون الفرد متجانساً – أن يحافظ علي القيم القديمة و يتعرف علي بعض الحقائق التي تعتبر سلبية بالنسبة لها . ولكننا هنا أمام استثناءات نادرة نسبياً ، وغالباً ، ما يقبل العالم ، بحسن نيه ، المقولات الضمنية لذهنية تعيقه ، منذ البداية ، عن فهم جزء هام من الواقعي ؛ وهو ما ينتج عنه ، وفي بعض النقط الجوهرية ، ان ذكاء العالم وفطنته وحسن نيته الفكري ، سوف لن تؤدي سوي إلي الرفع من [قيمة] رؤية للوقائع مشوهة وأيديولوجية ، وجعل هذه الأخيرة أكثر احتمالاً وإغراء . (٦)

فلا يكفي إذن ، في العلوم الانسانية ، كما يعتقد ذلك دوركايم ، أن نطبق المنهج الديكارتي ، ونتشكك في الحقائق المكتسبة وننفتح بشكل كلي علي الوقائع ، لأن الباحث يواجه غالبا الوقائع بمقولات ومفاهيم جاهزة ضمنية وغير واعية تسد أمامه منذ البداية طريق الفهم الموضوعي .

إن التفاؤلية الديكارتية لدوركايم ، والقيمة القليلة التي كانت لمشكل الأيديولوجيات عنده ، يعبران عن تقليد متفاءل لبورجوازية ، لم تكن نسبياً قد خلخلت بعد بتطور بروليتارية كان بإمكانها أن تعارضها برؤيتها الإشتراكية الخاصة .

والحال أن وضعية البورجوازية الألمانية في نفس الفترة ، كانت مختلفة إلي حد ما . ثورة فاشلة في الماضي ، وهيمنة عنيفة في الحاضرليس لها تقليد ثوري وإنساني . وتهددها مسبقا بروليتارية صناعية متطورة ومنظمة . حزب إشتراكي أقدم وأقوي من نظيره الفرنسي ، والذي أصبح ، بفعل التأثير الشخصي لكل من ماركس وانجلز ، مركزاً عالمياً للماركسية النظرية . لقد تسللت أصداء الحركة والفكر الماركسيين ، حتى إلي الأوساط الجامعية التي لم يعد بإمكانها الحفاظ علي نزعتها التفاؤلية البليدة ، وأصبح من واجبها ، على الأقل عند العلماء الأكثر أهمية واستقامة إيلاء الاعتبار للواقع

---

(٦) لكي نقدم لذلك مثالا، أصبح بالنسبة لنا سهل الفهم بسبب تأخر الزمن ، يمكن لأحد أنصار علم الفلك البطليموسي ، في القرن السابع عشر ، أن يظهر مهارة وفطنية استثنائيتين في سعيه نحو ملاءمة فرضية مع المعطيات التجريبيه ، ويمكن أن يكون ذا استقامة فكرية نموذجية ، يشير إلي نواقص نظريته في تفسير الوقائع ، ويؤاخذ الباحثين الآخرين على المرور بصمت علي بعض الأشياء والاكتفاء بالتخمينات ، الخ . كل هذا لا يجعل من عمله أكثر علمية ، ما دام لم يتراجع منذ البداية عن فرضية ثبات الأرض – ويرفض معارضة مصالح الكنيسة وأيديولوجيتها.

والأفكار الجديدة التي تظهر في المعسكر المعارض . وهذا ما يفسر ، في جزء كبير على الأقل ، الأهمية التي كانت لعمل ماركس بالنسبة لماكس ڤيبر الذي كانت قناعاته المحافظة واضحة ، كما ، يفسر أيضاً أن هذا الأخير كان يتصور – وهو أهم ممثل للسوسيولوجيا الجامعية الألمانية – بوعي العديد من المسائل التي لم تكن موجودة عند دوركايم (٧) .

لقد كان ڤيبر ، بوصفه تلميذا لكانطيي هايدلبورغ الجدد ، ريكرت و فيند لبانه ، وعارفا عن قرب بعمل لاسك Lask الذي تأثر به مرات كثيرة ، واعياً بأنه إذا كان العلم لا يستطيع أن يلغي أو يؤكد منطقياً أي حكم قيمة ، فمن المتعذر إبعاد هذه الأحكام حين يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانية . فلم يعد الأمر يتعلق ، لديه ، بإلغاء كل مفهوم مسبق وكل حكم قيمة ، بل بإدماجهما بشكل واع في العلم ويجعلهما وسائل مفيدة في البحث عن الحقيقة الموضوعية .

ولكي يحقق ذلك ، انضم ڤيبر إلي وجهة نظر المدرسة الكانطية الجديدة في هايدلبورغ . إن الاختلاف بين العلوم الفيزيائية – الكيميائية والعلوم التاريخية ، ليس ، أو علي الأقل ليس فقط ، اختلافاً في الموضوع . إنه بالأساس اختلاف في المنظور . فالأولي تبحث عن قوانين عامة ، والثانية تطمح إلي دراسة موضوعية ، مفسرة وفاهمة للأفراد الفيزيقيين وللفرديات التاريخية والاجتماعية . والواقع ، أن الفردية التاريخية هي حقيقة وليست معطي ، لكنها حقيقة مبنية انطلاقاً من المعطى . ولايمكن لأي علم أن يترجم الواقع بشكل تام . إن العلم يشيد موضوعه عن طريق اختيار يحافظ علي الجوهري ويبعد عن الثانوي . والجوهري بالنسبة للعلوم الفيزيائية – الكيميائية ، هو ما يتكرر ويستطيع أن يندمج في نسق من القوانين العامة . وبالنسبة للعلوم الإنسانية ، فإن الفردية التاريخية تنبنى بواسطة اختيارنا نحن لما هو جوهري بالنسبة لنا ، أي بالنسبة لأحكامنا القيمة وهكذا ، فالواقع التاريخي يتغير من عصر إلي عصر مع تغيرات لوائح القيمة . ومن الواضح ، أن الاختيار ، لا ينصب فقط علي مجموعات

---

(٧) تمتد دراسات ماكس فيبر حول المنهج في العلوم التاريخيه عبر خمسة عشر سنة ، بلور ووضح خلالها فكرة بالتدريج. والمجموع يشكل مجلدا ضخما من ٥٨٠ صفحه سنختار فقط منها الآن بعض الأفكار التي تهمنا خاصه

الوقـائع (الثـورة الفـرنسـيـة، حـرب المائة سنة ، الخ .) ولكنه ينصب أيضـاً ، وبالخـصـوص، علي العناصر التي ، تعـتبر ، داخل هذه المجموعـات ، جوهرية وهامـة بالنسبة لنا (شخصية الزعماء ، انتفاضات الجمهور ، الوقائع الثقافية ، الخ .) .

إن فكرة فيبر الأساسية هي أن أحكام القيمة تتدخل فقط في إختيار الموضوع وبنائه ، ويصبح من الممكن ، بعد ذلك ، دراسة هذه الأخيرة بطريقة موضوعية ومستقلة عن أحكام القيمة ، العناصر المبعدة بوصفها قابلة للإلغاء (مصدر السلاح الذي قتل به قيصر ، الخ .) ويبدو لنا من غير المفيد أن نشير إلي الخاصية المغلوطة لهذا الوهم . فمن البدهي ، أن العناصر المختارة تحدد مسبقاً ، نتيجة الدراسة . إن القيم ليست " قيمنا " ، أو قيم ثقافتنا أو مجتمعنا ، إنها قيم هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك ، فما يلغـيه منظور مـعين علي أنه ثانوي ، يمكن أن يكون ، علي العكس من ذلك ، مـهـما في منظور آخر . والأكثرمن ذلك أن ڤيبر لا يتكلم سوي عن اللاجوهري أو القابل للإهمال ؛ والحال ، أن هناك أيضاً عناصر الواقع الجوهرية بالنسبة لوجود طبقة معينة ، ولكن التي تعتبر دراستها العامية وحتي العلمية متعارضة مع مصالح هذه الطبقة . وهكذا سيصطدم الباحث ، الذي يريد التعرض لها ، بمقاومة قوية داخلية وخارجية .

حول هذه النقطة ، يبدو فكر ماكس فيبر غير مسنود . وبالرغم من أنه عالم دقيق لا يقبل النتائج الغامضة أو الانتقائية ، فإنه أكد دائما أنه يحصر ، بشكل صارم ، المجال الذي تعتبر فيه أحكام القيمة عنصراً مكوناً ، والمجال الذي يجب أن نلغيها فيه [٨] ، فـموقـفـه يوجـد تقريـباً في منتصف الطريق بين الجـهل بالحـتـمـية التـاريخـية لفكر الدوركايميين السوسيولوجي وبين القبول الشامل لهذه الحتمية عند الماركسيين .

حين ظهرت آخر دراسة لڤيبر سنة ١٩١٩ حول هذا الموضوع ، كان جورج لوكاتش ، الذي أصبح حينذاك ماركسياً ، قد حرر جزئياً كتابه الذي خصصه أساساً لشروط وطبيعة المعرفة في العلوم الإنسانية : التاريخ والوعي الطبقي .

(٨) في دراسته الأخيرة – المشهورة بحق – حول نظريه العلم (العلم باعتباره مهنة) ، التي أشارت ، بشكل عابر ، إلي موقفه العدائي الخاص ، صارع فيبر بحده الأساتذة الذين يخلطون تعليمهم بأحكام القيمة . إن الأستاذ الحقيقي يتجنب فرض موقف معين من أعلي كرسيه ، سواء بشكل صريح أو بواسطه الإثارة ، هذه الأخيرة التي بشكل خداعا لترك الوقائع تتكلم من نفسها " (ص ٥٤٣) . "سأبرهن و أنا أحلل أعمال مؤرخينا ، أن الفهم الشامل يتوقف حين يأتي رجل العلم مع حكمه القيمي الخاص " (ص .٥٤٤) نضيف أن آخر اسم تمت الإشارة إليه في هذه الدراسة باعتباره يعكس مثال العالم الموضوعي ، يبدو لنا اليوم كرمز . إنه اسم الاستينيقي الشاب ، الذي كان معروفا بالكاد ، جورج لوكاتش (ص٥٢٢) .

بالتعرض لمناقشة هذا الكتاب ، هذه الموسوعة الحقيقية للعلوم الإنسانية . سنقتصر الآن علي المشكل الوحيد الذي يهمنا ، مشكل الموضوعية . لقد كان لوكاتش يسلم وحتي استنتاجاته الأخيرة بالحتمية الاجتماعية لكل فكر و كذلك بالقانون العام للمعرفة الإنسانية . فكل فكر يعتبر بطبيعته ، مرتبطا بالنسبة إليه بالفعل بشكل وثيق ، بل ليس لنا شرعياً الحق في أن نتكلم عن " علم " للمجتمع أو عن سوسيولوجيا . إن المعرفة التي يمتلكها كائن ما عن نفسه ليست علماً وإنما هي وعي . فليست هناك سوسيولوجيا محافظة وأخري دياليكتيكية ، بل هناك وعي طبقي ، بورجوازي أو بروليتاري ، يعبر عن نفسه علي مستوي وصف الوقائع الإنسانية أوتفسيرها . والواقع أن هذا لم يقده إلي نسبوية معممة لأنه – وسنرجع لهذا فيما بعد – يقبل بوجود حقيقة كونية في الوعي المحدد للبروليتاريا الثورية التي تسعى إلي إلغاء الطبقات ، والتطابق مع الإنسانية و، بالخصوص ، إلي إلغاء كل إختلاف بين ذات الفعل الإجتماعي وموضوعه ، فعل ليس كل فكر إلا مظهراً جزئياً منه (٩) .

لقد تراجع لوكاتش اليوم عن هذه المثالية المفرطة التي وسمها هو نفسه بأنها رؤيوية. فمن غير المجدي إذن ، أن نواجه أطروحته باعتراضات يصوغها هو نفسه . لنحتفظ فقط :

١– بتأكيده علي أن كل فكر تاريخي أو سوسيولوجي يتعرض لتأثيرات اجتماعية عميقة ، غالبا ما تكون غير ظاهرة عند الباحث الفرد ، تأثيرات ليس من الممكن إلغاؤها ، ولكن يجب بعكس ذلك ، جعلها واعية ودمجها في البحث العلمي لإبعاد ،أو علي الأقل لتقليص ، تأثيرها المشوِّه ؛

٢ـ الضرورة ، التي أصبحت ملحة في هذا المنظور ، لإنجاز دراسة سوسيولوجية للعلوم الاجتماعية نفسها و ، بكلمات أدق لإنجاز دراسة مادية دياليكتيكية للمادية الدياليكتيكية .

---

(٩) بعض فصول الكتاب تعالج الانتقال إلي المجتمع الاشتراكي ، عنوانه تغيير وظيفة المادية التاريخية . انظر أيضا ك . ماركس ، أطروحات حول فويرباخ .

-٢-

إذا قارنا السوسيولوجيا اللاماركسية للثلاثين سنة الأولي من قرننا ، سوسيولوجيا دوركايم وموس وڤيبر ، بالسوسيولوجيا المعاصرة ، سنفاجأ بتغير مهم في الأفكار والمناهج . " معالجة الوقائع الاجتماعية باعتبارها أشياء "لقد بين غورفيتش Gurvitch أن دوركايم ، وهذا من حسن حظ عمله بالنسبة لنا – لم يحترم بصرامة هذا المبدأ الجوهري من منهجيته الخاصة وقد تخلي عنه موس كذلك حين تكلم عن صيغة لاعقلانية لفهم الحياة الاجتماعية . ووراء هذه التأرجحات كان يختفي ، في الحقيقة ، مشكل الإيديولوجيات وأحكام القيمة .

والواقع أن صيغة دوركايم لم تكن كلمة عقيمة . فباعتباره سوسيولوجيا قديراً عالج هو نفسه الوقائع الاجتماعية " من الخارج " " بوصفها أشياء " ، عبرت صيغته – وغالبا ما يحدث هذا – عن اتجاه كان عليه أن يتطور باستمرار ، في الولايات المتحدة وأوربا ، وحتي في الأعمال السوسيولوجيا المعاصرة .

إذا قارنا أعمال الدوركايميين وأعمال ماكس فيبر بمعظم الأعمال اللادياليكتيكية المعاصرة ، فإن الاختلاف سيبدو جلياً . أولا ، في المنهج العام ، لأعمال مثل الأشكال الأساسية للحياة الدينية لدوركايم ، الطبقة العاملة ومستويات العيش ، لهالفاش Halb-wachs ، دراسة حول الملكة . L'essai sur le don لموس ،اليمين المقسوم ، لدافي Davy ؛ الأخلاقية البروتستانتية والرأسمالية ، لڤيبر ، فهي كلها غنية في المادة التجريبية الملموسة لكنها ليست كذلك من ناحية النظريات التفسيرية العامة . " فحين تجتمع مجموعة من الباحثين الاجتماعيين " ، كتب نيلزاندرسون N.Anderson، في مقال شامل ، حول السوسيولوجيا الأمريكية المعاصرة ، مسانداً لهذه الأخيرة : " فنادراً ما يناقشون الكثير من النظريات الاجتماعية ، و بالعكس من ذلك ، يناقشون ، بالتأكيد، الكثير من المناهج ... يبدو أن الكثير من أولئك الذين ينشغلون أكثر بالمشاكل الحالية للبحث ، يهتمون بشكل طفيف بالتحاليل النظرية . وهذا لا يعني أن النظرية أهملت في السوسيولوجيات المعاصرة . بل يبدو أنها أيقظت اهتمامات سوسيولوجيين آخرين ابتعدوا بشيء من الافراط عن البحث "(١٠). إنها وضعية تميز كذلك الأعمال

---

(١٠) Soziale welt ، مجلة منشورة باسم جمعية مؤسسات البحث الإجتماعي بألمانيا من طرف البحث الاجتماعي لدورتمون . I . ٢ إبريل ١٩٥٠

الأوربية النموذجية . يكفي أن نقرأ أعمال غورفيتش وڤون ڤييز ، أو نتصفح مقالات كبريات المجلات النظرية ،حتي نتبين ذلك . سنرجع لهذا فيما بعد .

وبالنسبة للبحث الملموس ، فقد وقع ، بالقياس مع المرحلة الكلاسيكية ، تغير عميق في المناهج . لقد اكتشفت طرائق جديدة ، ونقلت أخري إلي مستوي مهم . بحوث ، مونوغرافيات ، احصائيات ، ميكروسوسيولوجيا ، سوسيولوجيات مختصة . -Sociom etries ، الخ ، مناهج كانت لها بالخصوص سمة مشتركة هي التحقيق الملموس للمثال الدوركايمي أي معالجة الوقائع الاجتماعية من الخارج " باعتبارها أشياء " مماثلة لأشياء العلوم الفيزيائية . ومع ذلك فهل المعلومات التي أعطتها لنا عن الوقائع تعتبر أكثر موضوعية ؟ يبدو لنا أن هذا قابل للنقاش ، لأننا ، في معظم الحالات نجد أن أنصار هذه المناهج التي يمكن أن نجمعها تحت اسم الوصفية ، يتبنون ، ضمنياً ، وقبل البداية في عملهم ، موقفاً تجاه النظام الاجتماعي القائم الذين يعتبرونه طبيعياً وعادياً بل وغير محتاج للتبرير .

لا يمكن لأي بحث ولا أية مونوغرافيا ، وهي أبحاث لايمكن فضلا عن ذلك أن نجادل في جدواها ، إذا لم تؤطر في تحليل شامل ، ولم تلامس فترة تاريخية طويلة ، أن توضح عوامل تحول وتغير مجتمع ما ، خاصة وأن تأثير هذه العوامل يتراكم غالبا خلال مراحل طويلة ، دون أن تكون تعبيراته الخارجية قابلة للتأكيد بسهولة . ان الواقعة الاجتماعية واقعة كلية . كما أن الدراسات العالية والتقارير المونوغرافية ونتائج بحث ما ، لا تساوي إلا Rebus sic stantibus ، والواقع أن الأمر يتعلق هنا " بأشياء " تعتبر جوهرية بالنسبة للسوسيولوجي .

إن بحثا ، وسط الفلاحين الفرنسيين أو وسط حرفيي سان أنطوان ، حول الملكية سنة 1789 ، وآخر ، وسط الفلاحين الروس ، حول مستقبل روسيا ، في سنة 1917 ، بإمكانهما أن يعطيا نتائج تختلف تماماً عن نتائج بحث مماثل أنجز اثنا عشر شهراً بعد ذلك .والواقع ، ان هذا التغيرالسريع كان ، في الحالتين معاً ، نتيجة لسيرورة جيلية،من المحتمل أن تفلت من كل مونوغرافيا خارجية ، من صنف تلك التي يدافع عنها اليوم معظم السوسيولوجيين .وذلك لأن الوقائع المسجلة بواسطة مونوغرافية أو بحث، لا تأخذ دلالتها الحقيقية إلا داخل رؤية شاملة تعرف كيف تسائلها وكيف تستخلص منها محتواها الإنساني .

ومع ذلك يجب أن نذهب إلي أبعد من ذلك . فالمعطيات بوصفها كذلك ، تتوقف بدورها ، علي الرؤية الواعية أو الضمنية للباحث . فلا وجود لوقائع خام . ولا وجود قطعاً لبحث كامل أو لمونوغرافيا كاملة . فالبحث يطرح بعض الأسئلة علي الواقع ويختار الوقائع علي ضوء هذه الأسئلة . وبالإضافة إلي ذلك نجد أن الأهمية المعطاه ، داخل الصورة التي يشيدها ، للوقائع المختلفة التي يقبل تسجيلها ، تناسب تلك التي تمثل مشاكل للباحث . وهكذا ، فهناك دائماً رأي مسبق ، أي مجموعة من المفاهيم القبلية التي تقرر:

أ – الأسئلة التي نطرحها علي الواقع وتلك التي لا نطرحها عليه ؛

ب – الأهمية التي نعطيها لمختلف العوامل التي تهمنا ؛

والواقع أن الأمر يتعلق في كل هذا ، بالعوامل التي غالباً ما تكون ضمنية وتحرف بشكل مسبق الكثير من الأعمال التي تدعي الموضوعية .

نضيف أن الميكروسوسيولوجيا بصفة عامة ، والسوسيولوجيا التفصيلية بوجه خاص ، واللذين يمكن أن يقدما إفادة محدودة ولكنها أكيدة (١١) ، شريطة أن يؤطرا في رؤية شاملة ، يصبحان مشوهين بمجرد ما يحاولان – وهي الحالة الأكثر تواترا – فهم العلاقات بين الأفراد الذين يكونون مجموعة جزئية (قسْم مدرسي ، معمل ، قرية) بمعزل عن المجموعات الاجتماعية الأساسية – الطبقات الإجتماعية والأمم – وبمعزل عن التعارضات والتوازنات والتحالفات بين هذه الأخيرة .

لقد تكلمنا لحد الآن ، بشكل عام عن المفاهيم القبلية الضمنية في السوسيولوجيا المعاصرة ، وستتعقد الأمور بمجرد ما ننطلق من بعض الأمثلة الملموسة .

وهكذا ، فإن أندرسون ، في المقال الذي ذكر سابقاً ، قدم مدحاً مضطرباً شيئاً ما السوسيولوجيين الأمريكيين المعاصرين ، فقد كتب : " بالرغم من الأشكال المتعددة للبحث الإجتماعي ، وبالرغم من الإستعمال المتعدد والمتنوع للأخبار المحصل عليها بواسطة هذا البحث ، فإن معظم الباحثين قادتهم نوايا نزيهه . لقد أصبحوا مستشارين مقتدرين للشركات المجهولة ، والأحزاب السياسية ، والتجمعات الخيرية أو الإدارات العامة " (ص : ٦٨) لا يمكننا تصور إعترافا أكثر وضوحا وأكثر إعلاناً للأسس الإجتماعية لبحث مماثل . نتساءل فقط ببعض القلق ، عن نشاط السوسيولوجيين الآخرين الذين لهم إهتمامات غير " نزيهة " .

---

(١١) يمكن ان نستشهد كمثال على الابحاث الوصفية التى يقودها حسن عميق للسوسيولوجيا التاريخية بأعمال الاستاذ Th.G. d'Arhus(الدنمارك)

وخارج أمريكا ، كتب ر . كونيغ R.Konig ، أستاذ السوسيولوجيا في جامعتي زوريخ وكولون ، والذي عرف السوسيولوجيا بأنها " عنصر من سيرورة للتكييف الذاتي الاجتماعي للإنسانية [١٢] واعتبر المشكل الأساسي للسوسيولوجيا هو تكييف الأفراد مع المجتمع القائم ، وليس هو الأزمات والتطورات التاريخية ، واقترح مفهوماً " للثورة الدائمة " ليحيد الثورة الحقيقية (ص : 92) ، كتب . " يمكن أن نقول بشكل جد ملخص ، إن " النقط العشر " ل " البيان الشيوعي " لم تحقق اليوم في جوهرها فقط ، بل إن السياسة الإجتماعية المعاصرة حققت أكبر قدر ممكن من ضمان العمل بشكل لم يحلم به ماركس من قبل . وهذه الجملة لا تنسحب فقط علي الاتحاد السوفياتي ، وإنما تنسحب أيضاً علي الديمقراطيات الغربية التقدمية " . (ص : ٣٩) .

لنضف فقط أنه من بين " النقط العشر " ، هناك إلغاء قانون الوراثة وتأميم الأرض، وأنه في سنة ١٩٤٩ ، التاريخ الذي ظهرت فيه الجملة المستشهد بها ، كان جزء كبير من العمال في فرنسا وإيطاليا وألمانيا يصلون بصعوبة إلي الغذاء اللائق .

نشر ف. ميتز W.Metze في إحدي كبريات المجلات السوسيولوجية الألمانية ، مقالاً بعنوان " شباب وبروليتاريا " فسر فيه كيف أن حالة البروليتاري ليست نتاجاً لوضعية اقتصادية محددة ، ولكنها نتاج لعدم توازن نفسي مرضي . لنستشهد ، بسرعة ، ببعض من طور هذا المقال التي تبدو لنا غير محتاجة إلي أي تعليق [١٣]

" إن وضع البروليتاري ليس شيئاً آخر سوي أنه مشكل حالة ، أي أنه حالة نفسية سلبية ، تقارب تلك التي نعتبرها ، بصفة عامة ، نمطية في طور معين من نمو المراهقة بسلبيتها المستمرة " . (ص : ٤٨) . " نستطيع إذن أن نستخلص ، دون أن نجانب الصواب ، أن الفقر ، ليس هو بذاته ما يجعل من الإنسان بروليتاريا ، بل بالأحري الطريقة التي يكون بها رد فعله هذا الأخير علي الفقر " (ص : ٤٩) . والدليل علي أنه يكفي أن تكون لنا حالة نفسية سويه لكي نخرج من وضعية البروليتاريا ، يوجد ، من بين أشياء ، أخري ، في " الصعود الإجتماعي للعائلات في ألمانيا والذي يستمر منذ عشرات السنين . فمن لازلنا نجده اليوم من رعاع في كل شعب ، هو هذه البروليتاريا

---

(١٢) Rene Konig . Soziologie heute . Regio - Verlag, Zurich, P .121.

(١٣) . Soziale Welt ، السنة الاولي ، الدفتر٢ ، ساير ١٩٥٠ – ص ، ٣٥ – ٥١ .

الوراثية التي لن تهم ، إذا إستثنينا تنظيمات المساعدة الاجتماعية ، إلا النساليين أي العائلات المنحطة التي يوجد ضمنها المتشردون والمجرمون والمدمنون واللااجتماعيون " (ص ٤٠) . وأخيراً استشهد ميتز ، محيلا في ذلك على Tumlirz ، ليبرهن علي أن الصعود الاجتماعي ممكن خاصة إذا ارتبط بوضعية نفسية إيجابية ، بواقع أن " الوعي البروليتاري يعتبر غريباً عن الفتيات السويات والجميلات اللواتي ينتمين إلي الطبقات الدنيا . لأن كل فتاة شابة تطمح مسبقاً للصعود اجتماعياً بفضل محاسنها الجسدية " (ص : ٤٨) يمكن أن نتابع بتطويل . إلا أنه من الأفضل أن نرجع إلي المشكل الذي يهمنا .

-٣-

بمجرد ما نتعرف علي التأثير الواعي ، أو اللاواعي ، لأحكام القيمة علي النظريات العلمية ، تطرح قضية معيار الحقيقة . فهل يجب علي سوسيولوجية المعرفة أن تصل بالضرورة إلي النسبوية ؟ هل تتساوي الإيديولوجيات ، علي الأقل فيما يتعلق بالبحث عن الحقيقة ، وأليست هناك إلا أسباب فردية لتفضيل هذه الإيديولوجيا أو تلك ؟

لقد رفض أهم سوسيولوجيي المعرفة هذه النتيجة . وقد أشرنا فيما قبل إلي أجوبة دوركايم وڤيبر التي بدت لنا غير كافية . ورجع جورج لوكاتش ، في سنة ١٩١٨ ، إلي حقيقة محددة اعتبرها قريبة ، بل ومعاصرة هي الوعي الممكن [١٤] للبروليتاريا الثورية الطامحة إلي إلغاء الطبقات والتطابق مع كلية المجتمع ، وضعية يتطابق فيها العالم بدوره مع ، وعي إنساني عام وأيضاًمع ذات العلوم الإجتماعية و موضوعها ، تطابق ، سيكون تحقيقا للفكرة المطلقة الهيغلية . نعرف اليوم (و لوكاتش يعرف ذلك أيضا) أن هذه الحقيقة المحددة ، بعيدا عن أن تكون راهنة ، كانت تقريباً رؤيوية . وعلي كل حال فبالنسبة لنا ، إن لها علي الأكثر . قيمة مفهوم مثالي لاقيمة حقيقة عملية .

وقد بسط كارل مانهايم K.Mannheim ، فيما بعد ، المشكل مستبدلا موقف لوكاتش بمرافعة دفاعية حقيقية . ففي مكان الوعي المحدد للبروليتاريا الثورية ،

(١٤) ستكون لدينا مناسبة للرجوع ، في الفصل القادم ، الى مفهوم الممكن باعتباره مفهوما جوهريا في العلوم الانسانية.
(الامكانية الموضوعية عند فيبر ، الوعي الممكن عند ماركس ولوكاتش)

اكتشف مجموعة معاصرة تتمتع بوضعية متميزة تتيح لها معرفة ملائمة للواقع ، وهي ال Freischwebende Intelligenz مصطلح صعب الترجمة يمكن أن نترجمه تقريباً ب " فئة مثقفة دون إرتباط " . وبوضوح فهذا الموقف يتجه إلي جعل الحقيقة امتيازاً لبعض الأفراد التي حصلوا علي شهادات في السوسيولوجيا أو تخصصوا فيها . وليس غريباً أن يستقبل كتابه بقبول ، وأن ينظر إليه بوصفه " مبتكراً " لسوسيولوجيا المعرفة ... وفي الواقع ، لا نعرف كيف لايكون للمثقفين ، حين يعبرون في كتاباتهم عن فكر المجموعات الأخري وأيضاً عن وضعيتهم الإجتماعية الخاصة كمثقفين ، منظور أقل جزئية من منظور مختلف المجموعات المهنية الأخري ، محامين وقساوسة وإسكافيين ، الخ . فهم كهؤلاء ينتمون إلي طبقة إجتماعية معينة أو إلي أمة ، الخ ، ولهم مصالح اقتصادية عامة وخاصة وفردية .

ويبدو لنا أن عمل مانهايم ليس مرحلة مهمة في سوسيولوجية المعرفة (فما يتضمنه من أفكار مهمة ، وجد مسبقاً في كتاب لوكاتش : التاريخ والوعي الطبقي الذي استلهمه مانهايم) بل تأكيداً واضحاً للأطروحات الأساسية لهذه السوسيولوجيا .

إن عدم كفاية الحلول التي استخلصناها لحد الآن ، حلول دوركايم وڤيبر ولوكاتش ومانهايم ، يبدو لنا أن الجواب عنها يوجد في التركيب بين مجموعتين من الاعتبارات :

١ - فمن وجهة نظر تأثيرها علي الفكر العلمي ، فإن المنظورات والأيديولوجيات المختلفة لا تتموضع في نفس المستوي . فبعض أحكام القيمة تسمح بفهم أكبر للوقائع من بعضها الآخر . فبين سوسيولوجيتين متعارضتين ، أول خطوة لمعرفة أيهما تمتلك قيمة علمية أكبر ، هي التساؤل عن أية من الأثنتين تسمح بفهم الأخري بوصفها ظاهرة اجتماعية وإنسانية ، وتستطيع إبراز بنيتها التحتية وتوضيح تفككاتها وحدودها ، بواسطة نقد محايد.

ولكي نوضح هذا المعيار ، نستشهد بمثال أشير إليه سابقاً في منظور آخر ، من طرف غورفيتش [١٥] هو فكر كل من سان سيمون وماركس . فوجود تأثير للأول علي الثاني لا جدال فيه . وقد سبق لانجز أن أشار إلي ذلك ؛ ومع هذا فالتشابه يبدو لنا أقل اقتراباً مما يعتقده غورفيتش . لقد أبرز سان سيمون ، بذكاء رائع ، الأهمية

---

(١٥) ج . غورفيش ، الاتجاه الحالى للسوسيولوجيا (ص ٥٦٩ - ٥٨١) .

التاريخية للصراع الطبقي بين البورجوازية والفيودالية ، وهو صراع هيمن علي تاريخ فرنسا منذ القرن الثاني عشر . لقد إنتبه إلي التحالف الفعلي بين عامة الشعب والملكية الي حدود حكم لويس الخامس عشر ، وانتبه إلي تحول السياسة الملكية التي كانت تستند ، انطلاقاً من هذا الملك ، أكثر فأكثر علي النبالة لتجعل منها ثقلاً مضاداً لعامة الشعب الذين تنامت قوتهم باستمرار. إن إمكانية الوصول إلي تحليل صحيح في خطوطه الأساسية لهذه الظواهر ، يعتبر طبيعياً ، عند مفكر كان يكتب ، وهو يعي ذلك، من منظور عامة الشعب والصناع والتجار ، ويري في الملكية المرممة للبوربيين مجرد حليف أو عدو محتمل . ولكن سان سيمون لم يتمكن قط ، بسبب هذا المنظور ، من تصور ولافهم إمكانية التعارض بين البروليتاريا والبورجوازية . فالوفاق بين مصالح هاتين الطبقتين وتطابق هذه المصالح ، كانا يشكلان بالنسبة إليه مسلمة ضمنية وحقيقة واضحة ليس من الضروري مناقشتها أو التدليل عليها. لقد استشف بوضوح عدداً من المشاكل التي تطرح علي الطبقة العاملة : الفقر ، البطالة ، الخ .، لكنه لم يتصور بالنسبة لها إلا حلاً واحداً : تسلم السلطة من طرف الصناع .

وعكس ذلك ، فقد رأي ماركس في الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية ، مفتاح القمة للحياة الاجتماعية المعاصرة ، ورأي فيه في نفس الوقت ، الأمل الكبير للإنسانية ، والقوة التي يجب أن تحقق الاشتراكية .

إذا انحصرنا فقط في المستوي العلمي ، ماهو أفضل موقف لفهم الواقع من بين هذين الاثنين ؟ باختيارنا لموقف ماركس ، يبدو إننا نستطيع إبراز حجة مهمة . ففي منظوره ، نفهم الايديولوجيا السانسيمونية باعتبارها واقعة اجتماعية ، ونفهم بنيتها التحتية وحدودها ، ونفهم أيضاً ، بالخصوص ، الماركسية نفسها باعتبارها إيديولوجية بروليتارية . وعكس ذلك ، فمصالح البروليتاريا والصناع بالنسبة لسان سيمون تعتبر متطابقة ، وكل محاولة لتصور تعارض ممكن بين هاتين الطبقتين لا يمكن أن يكون إلا ديماغوجية أو عملا للمحرضين ، الخ .

وهذا الإختلاف نفسه هو الذي نجده بين السوسيولوجيا التي ندافع عنها وبين عدد مهم من الأعمال السوسيولوجية " الموضوعية " المعاصرة . فنحن نفهم جيداً البنية التحتية لهذه السوسيولوجيا ، كما نفهم الفائدة الجزئية لكن القليلة الفعالية ، لأبحاثها

الملموسة ، والمحدودية المتزايدة القوة لإمكانياتها في فهم الحياة الاجتماعية انطلاقا من تأثير تفاقم صراع طبقي يضع موضع تساؤل حتي العالم البرجوازي نفسه . وبالمقابل ، فالسوسيولوجيون " الموضوعيون " يعجزون اليوم أكثر من أي وقت مضي عن فهم الفكر الماركسي باعتباره واقعة إنسانية واجتماعية ، وكذلك عن المناقشة الجدية ، المنطلقة من الوقائع الملموسة ، لحقيقته وخطئه أو حدوده الجزئيه . ويكتفون بمؤاخذة الماركسية ، بشكل تعميمي ومجرد ، عن خاصيتها " الأخروية " أو " الأحادية الجانب " و" الضيقة " . وهكذا يشوهون فكر ماركس و انجلز بخلق خصم متخيل سهل المواجهة أو يذهبون إلي حد الإدعاء بأن ماركس ، لو عرف بعض الوقائع ، لما كان ماركسياً . والأمثلة تنثال ، لنستشهد ببعضها فقط .

كتب سوركان Sorokin ، جاداً ، أن انجلز " يطابق بين الطبقة الاجتماعية وبعض المجموعات الموحدة الوظيفية " (١٦) ، ووصفه ضمن المفكرين الذين يعتبرون الطبقة الاجتماعية " مجموعة مهنية ، عرقية أو لغوية ، الخ " . (١٧) أما بالنسبة لماركس فقد تلقنا أنه " لم يضبط قط مفهوماً واضحاً بما فيه الكفاية للطبقة الاجتماعية " . وضمن " الماركسيين " ركز سوروكان خاصة علي بوخارين . واستشهد بتعريفه : " الطبقة الاجتماعية مجموعة من الأشخاص الذين يلعبون نفس الدور في الإنتاج و (التشديد منا الذين يحافظون علي نفس علاقات الانتاج مع أشخاص آخرين يساهمون في سيرورة الإنتاج " (١٨) وواجهه باعتراض يبدو مدهشاً علي الأقل : " ليس من الصحيح بشكل مطلق " يقول سوروكان " التأكيد علي أن كل الأشخاص الذين يلعبون دوراً متشابهاً في سيرورة الانتاج ، يمتلكون دخلا وخصائص سيكو إجتماعية وثقافية أخري متماثلة " (١٩) . يجب أن نضيف أن بوخارين ، لو اعتقد ذلك لمرة واحدة ، فإن العنصر الثاني من جملته سيكون عديم الجدوي ، ولوجد بالضبط ليلغي تعريفاً ضيق الفهم وواسع الامتداد بواسطة «الدور الوحيد للإنتاج »؟ وقد حول غورفيتش

(١٦) بيتيرم سوروكان . ما هي الطبقة الإجتماعية . الدفاتر العالمية للسوسيولوجيا ٢ ج ٢ . ١٩٤٧ص ٦٦

(١٧) نفسه ص . ٦٦ .

(١٨) فى الترجمة الفرنسية لكتاب بوخارين ، هناك فاصلة مكان " و " ولكن المعني لم يتغير ، والسياق يبين أنه بالرغم من ميكانيكية بوخارين المشهورة ، فإنه لم يطابق قط بين شيئين .

(١٩) ل . موربنو ، المنهج السوسيوميتري في السوسيولوجيا . الدفاتر العالمية للسوسيولوجيا . ج ٢ ١٩٤٧ .

اخـتلاف النبرة و الاهتمـامـات الموجودة ، بدون شك ، بين كتـابات مـاركس الشـاب و كتابات فترة نضجه ، إلي تعارض جوهري ، وربط كتابات الشاب ب برودون و سان سيمون ، و عارضها بدوغمائية مزعومة تسم المرحلة الثانية ، كل هذا علي مستوي مجرد و وثوقي تماماً ، دون أدني إحالة علي البنية التحتية للفكر الماركسي ، و لا علي الوقائع الاجتماعية التي سعي ماركس إلي تفسيرها و التي بالقياس معها ، كان يجب بالنسبة لنا ، تبيان "دوغمائيتة ". و يخبرنا مورينو بدون حجة تدعمة ، أن " فوق - الأختيار (السوسيومتري) يصبح مماثلا لفائض القيمة الذي انتبه إليه ماركس ... إن صورة مشوهة لظاهرة الربح ، في العلاقات الاقتصادية تعكس صورة مشوهة للاختيارات علي المستوي الداخل شخصي و الداخلي للمجموعات . فالثورة الاجتماعية ، التي تعتبر هي موقفه الصراع الطبقي ، تمثل خطأ في التأويل السوسيولوجي ... سيكون من المهم أن نفحص ما إذا كان هذا المظهر الجديد للمشاكل ، لو كان (ماركس) قد انتبه إليه ، سيغير من نظريته في الثورة الاجتماعية. و يبدو علي العموم (التشديد منا) ، أن مورينو نسب الفعل الثوري لا للوحدات الاجتماعية الكبري فقط ، و لكن للوحدات الصغري كذلك ، للذرات الاجتماعية ، هذه المراكز الأولي للإحالة و النفور القادرة علي جعل الثورة فعالة حقاً و دائمة "(١) . . بالإضافة إلي ذلك ، نقرأ في نهاية دراسة غورفيتش حول ماركس ، أنه « لكي يحافظ علي وجهة النظر الأكثر خصوبة و الأكثر تنوعاً لسوسيولوجيته الأولي ، كان ماركس مرغماً (التشديد منا) علي أنْ يدفع جيداً إلي الأمام نسبويته السوسيولوجية(٢٠). كان عليه ان يعرف أن العلاقات ، بين درجات أو طبقات الواقع الاجتماعي التي قام بتمييزها ، كانت هي نفسها كلية التنوع ، و أن تراتباتها ، باعتبارها قوي دينامية للتغيير ، تنقلب بدون توقف من خلال أنماط المجتمع ... " وهكذا فقط كان بإمكانه " أن يلغي فخ " الحتمية الإقتصادية " الذي سقط فيه في الأخير " (٢١).

في نقدهم لفكره ، لم يؤاخذ كل من مورينو وغورفيتش ، ماركس فقط علي كونه لا يتبني وجهة نظرهم الخاصة التي كان " مرغماً " في " كل الأحوال " علي تبنيها ... لو لم يكن هو ماركس ؟ .

---

(١) ل. مورينو ، المنهج السوسيومترى في السوسيولوجيا الدفاتر العالمية للسوسيولوجيا II 1947

(٢٠) نضيف ، لكي نفهم هذه الجملة ، أن غورفيتش يعين موقفه الخاص باعتباره فوق - نسبوية سوسيولوجيه .

(٢١) ج . غورفيتش ، نفسه . ص . ٦٠٢ .

وهكذا ، فإن إمكانية الاختيار ، من بين مختلف الرؤيات للعالم ، تلك التي لها شكل للفهم أكثر اتساعاً وحدود أقل ضيقاً ، تشكل مسبقاً خطوة مهمة في الاتجاه نحوالمعرفة الملائمة بالحقيقة . وليس من قليل الصواب أن نقول ، إنه حتي هذا المنظور نفسه.يمكن ، مبدئيا – بل وفي الأغلب – أن يحتوي ، بدوره ، علي نوعين من المحدوديات :

أ – تلك التي تنتج عن كون بعض مظاهر الواقع ، الواضحة في منظور رجعي يعد بالتقريب دائماً شديد النقص والضيق ، لا تعتبر كذلك في منظور الطبقة الصاعدة . والحالة الأكثر نمطية التي نعرفها ، هي النقد الباسكالي للعقلانية الديكارتية وللأمل الرياضي الكوني ، وهو نقد لم يكن مفهوماً في القرن السابع عشر في رؤية عامة الشعب؛

ب – تلك التي تميز حتي الوعي الممكن داخل المنظور العام للتلاؤم مع الواقع والتي بوصفها ضمنية ولا واعية ، بالنسبة للمفكر الفرد ، لا يمكنها أن تصبح واضحة إلا بالندريج ، بواسطة التطور اللاحق للتاريخ .

أليست هناك وسيلة لتجاوز هذه الحدود ؟ نعتقد أنه يجب ، في نهاية هذه الفقرة ، أن نولي الاعتبار لعامل ، لا يمكن إلغاء أهميته في عمل البحث ، والذي تركه سوسيولوجيو المعرفة ، عموماً ، في الظل : هذا العامل هو الفرد .

فلا يتعلق الأمر بمجموعة خاصة من المثقفين ، ال Freischwebende Intelli-genz عند مانهايم ولكن بالفرد بدون زيادة ، سواء كان مثقفاً ، عاملاً ، حرفياً أو بورجوازياً . هل يمكنه تجاوز حدود الوعي الممكن للمجموعة التي يعتبر منظورها أكثر اتساعاً وأكثر تنوعاً ؟ في الحقيقة لا نعرف شيئا عن ذلك . فالمشكل نظري خالص . ولم نصادفه قط طيلة عملنا التجريبي في البحث ، وإذا وجد أفراد بهذه الصفة ، فإن فكرهم ظل غامضاً وبدون تأثير ؛ في أقصى الأحوال ، يمكن لمفكر آخر أن يكشف عنهم ، باعتبارهم سباقين ، إلي رؤية لم تصبح إلا لاحقاًحقيقة إجتماعية و روحية . وسيندرج داخل هذه الحالة : كاتب نادي بدولة مركزية في القرن العاشر ، وآخر تمكن من ملاحظة تأثير الحياة الإقتصادية علي الحياة الدينية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ومفكر تنبأ منذ القرن السابع عشر بالصرا ع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية .

ولكننا نريد أن نتكلم الآن ، عن ظاهرة مهمة ، بشكل آخر ، بالنسبة لتاريخ العلوم الإنسانية وتطورها . قدرة ، الفرد ، وذلك إذا تمكن من تحقيق بعض الشروط ، الإستثنائية في كل الحالات ، أن يصل في مجال الفكر العلمي ، إلي معرفة تتجاوز الوعي الواقعي لكل الطبقات الإجتماعية الموجودة في فترته ، وهذا :

أ – بتحقيق تركيب بين عناصر الحقيقة التي تمكن من الانتباه إلي رؤيات الطبقات المتعددة والمختلفة ؛

ب – بالحفاظ علي بعض عناصر الفهم التي تم التعبير عنها سابقاً بواسطة مفكر من المفكرين ، ولكن التي أهملت بعد ذلك تحت تأثير التحولات الاجتماعية ، الاقتصادية أو السياسية .

قبل تحليل هذه الإمكانية ، نقول بسرعة إنها تصلح للفكر العلمي أكثر من صلاحيتها للأعمال الفلسفية أو الأدبية ، التي تقود فيها ، كل محاولة للتركيب بين رؤيات متعارضة للعالم ، إلي النقص في الإنسجام والانتقائية . وعلي العكس من ذلك ، فإن رجل العلم ، يجب أن يفهم إلي أقصي حد ممكن الواقع ؛ وهذا المعيار الوحيد المشروع لمحاكمة قيمة عمله . فإذا كان عليه ، من أجل تحقيق ذلك ، أن يؤكد علي كلية من الوقائع لم يفهم مجموعها ، من طرف أية رؤية للعالم من الرؤيات الموجودة ، فإن عمله سيطرح علي الفلاسفة مشكلا من المحتمل أن يحلوه بعد ذلك حين يخلق التطور التاريخي الشروط الاجتماعية المناسبة لهذا الحل .

كتبنا ، منذ سنتين ، في موضوع العلاقات بين الفرد والطبقة : " دون أن ننظر إلي الفكر والوعي بوصفهما وحدات ميتافيزيقية ، مفصولة عن باقي الحياة الفردية والاجتماعية ، من الواضح أن حرية المفكر والكاتب تعد جد كبيرة وروابطه مع الحياة الاجتماعية جد موسطة ومعقدة ، والمنطق الداخلي لعمله جد مستقل بدرجة لم تقبلها قط النزعة السوسيولوجية المجردة والميكانيكية ... هناك ، بدون شك ، حظوظ كبيرة ، في أن يتأثر فكر فرد ما بالوسط الذي له إتصال مباشر به ؛ هذا التأثير يمكن ، في الواقع ، أن يكون متعدداً ، تكيفاً ولكن أيضاً رد فعل رافض أو ثوري ، كما يمكنه أن يكون تركيباً بين أفكار موجودة في وسط معين وأخري آتية من الخارج ، الخ .

ويمكن لتأثير الوسط أيضاً أن يواجه بل ويقهر بتأثير إيديولوجيات بعيدة في الزمن والمكان . ومهما يكن ، فإن الأمر يتعلق بظاهرة معقدة ، من المتعذر اختزالها في خطاطة آلية " (٢٢) .

إن الكتاب النموذجيين الكبار هم أولئك الذين يعبرون بطريقة متماسكة تقريباً عن رؤية للعالم تطابق الوعي الممكن الأقصى لطبقة معينة ؛ إنها خاصة ، حالة ، الفلاسفة والكتاب والفنانين . وبالنسبة لرجل العلم ، فإن الوضعية تختلف أحياناً . فمهمته الأساسية هي بلوغ المعرفة الشاملة والملائمة للواقع . والحال ، أن الاستقلال النسبي ، الذي تكلمنا عنه سابقاً ، للفرد في علاقته بالمجموعة ، يسمح له في بعض الحالات ، بتصحيح حدود رؤية ما بواسطة معارف ملائمة ، مضادة لهذه الرؤية ، ولكنها منسجمة تماماً مع رؤية واقعية أخري لطبقة مختلفة ، أو تسمح له بتوسيع حدود الوعي الواقعي للطبقة في فترة معطاه بواسطة الامكانيات العامة لهذه الطبقة في مجموع المرحلة التاريخية .

موجها بواسطة وجوده نحو مجال خاص من الحياة الكلية للمجموعة ، هو مجال الفكر النظري ، ومتوجهاً نحو البحث عن الحقيقة باعتبارها قيمة أخلاقية عليا ، ملتقيا في عمله بالنظريات المختلفة التي تتضمن كل واحدة منها قسطاً أكبر أو أقل من الحقيقة ، وجيدا بالخصوص في الكشف عن نواقص النظريات المعارضة ، يستطيع رجل العلم ، في بعض الحالات ، الاستثنائية بدون شك ، خارج الحدود الحالية للمجموعة التي ينتمي إليها ، أن يحقق ، خطوة مهمة في معني الحقيقة الموضوعية .

ولكن ، لكي يصل إلي ذلك ، يجب أن يستجيب لمجموعة من الشروط ، نريد أن نذكر منها باختصار ، تلك التي تبدو لأول وهلة ، أكثر وضوحاً :

١- يجب ألا يعتقد أن صعوبات البحث في العلوم الإنسانية ، لكي تكون كبيرة ، يجب أن تكون علي الأقل من نفس طبيعة صعوبات العلوم الفيزيائية - الكيميائية وأن الأمر يتعلق فقط بالذكاء وبالإرادة الحسنة ...يجب أن يظل واعيا بأنه بالإضافة إلي الصعوبات التي تشترك فيها كل العلوم، فإنه سيصطدم، هنا، بصعوبات خاصة تأتي من تأثيرات يجب عليه أولا أن يكشف كل الأمكنة التي يستطيع أن يشكك فيها بها .

---

(٢٢) انظر لوسيان غولدمان ، المادية الدياليكتيكية وتاريخ الأدب ، في بحوث جدلية . غاليمار.

٢- يجب أن لايتردد في الدخول في صراع مع الأحكام الجاهزة الأكثر تجذراً، والسلطات الأكثر ثباتاً ، والحقائق ، المسلم بها بشكل ظاهري ، وبالخصوص ألا يخاف من أية أرثوذكسية ولا من أية هرطقة ، فالخطران معاً كبيران جداً الأول والثاني .

٣- بما أن تأثير المجموعة علي فكره الخاص وعلي فكر الآخرين يعتبر دائماً ومستمراً، فعلي العالم ألا يعتقد أن الأمر يتعلق فقط بشك منهجي قبلي ووحيد ينصب فقط علي المفاهيم المكتسبة والمفاهيم القبلية الواعية . إن مهمته الأولي يجب أن تكون نقدا صارما وبالخصوص دائماً ومستمراً لنتائجه الخاصة ولخطوات فكره الخاص ، وضعية نقدية يجب أن تصبح سلوكا طبيعيا ، طبيعة ثانية إذا استعملنا كلمة باسكال . فضد المفاهيم القبلية الضمنية ، ليس هناك سلاح فعال يمكن أن يلغيها بالمرة ؛ إن الأمر يتعلق بمعركة صعبة ، يجب أن نعيد ابتداءها كل يوم والتي ترفع إلي درجة مهمة العناصر الجوهرية للمنهج الدياليكتيكي في العلوم الإنسانية.

٤- لكي يفهم ويحاكم كل المواقف ، موقفه الخاص و موقف الآخرين ، عليه أن يرجعها، إلي بنيتها الاجتماعية التحتية وذلك ليتمكن من فهم دلالتها ، وفي نفس الوقت إلي الوقائع التي تسعي إلي تفسيرها أو وصفها وذلك ليتمكن من استخلاص قسط الحقيقة الذي تتضمنه .

نضيف أنه ، حين يحقق هذه المهام ، في حدود إمكانياته ، دون أن نتكلم عن المهام التي تشترك فيها كل الأعمال العلمية عامة (الدقة ، إبعادكل اعتبار شخصي ، الخ .)، حين يمرن حسه النقدي ضد موقفه الخاص ، محاولا تصحيحه في كل الأماكن التي تكشف له فيها أفكاره وانتقادات معارضيه عن نواقص أو تحريفات ، حين يصل إلي الاحساس بأنه نجح في إدماج فكره داخل الحياة الإجتماعية الملموسة ، فإنه سيجد نفسه في الوضعية العامة لرجل العلم ، وضعية من وجد مجموعة من الحقائق التقريبية في انتظار أن يأتي باحثون آخرون بعده ليستمروا في عمله أو يتجاوزوه .

سنفهم ، بعد هذه الإعتبارات ، الأهمية التي تمثلها تجلية ظاهرة الإيديولوجيا بالنسبة ، لإقامة منهجية علمية في العلوم التاريخية والاجتماعية . ويبقي أن نشير إلي بعض العناصر التي تكون هذه المنهجية وتتيح الصراع ضد التحريفات الناتجة عن تأثير المفاهيم القبلية الضمنية .

بعد هذا التلخيص الخطاطي لشكل الموضوعية في العلوم الإنسانية ، التاريخية والاجتماعية ، نصل إلي المبدأ الثاني الكبير في المنهج ، مبدأ الخاصية الكلية للنشاط الإنساني والعلاقة الوثيقة بين تاريخ الوقائع الاقتصادية والاجتماعية وتاريخ الأفكار.

جهل هذا المبدأ الذي يعتبر مسلماً به في الفكر الدياليكتيكي ، بشكل كلي في الغالب من طرف العلوم اللاماركسية . إن المنهج الدياليكتيكي تكوني دائما ، وككل حقيقة إنسانية مادية ونفسية في الوقت ذاته ، فإن الدراسة التكوينية لواقعة إنسانية تتضمن دائماً وفي نفس المستوي تاريخها المادي وتاريخ العقائد المتعلقة بها . ولاشيء أكثر غرابة من الموضوعة التي يكررها دائما معارضو الماركسية الذين يتهمون بإهمال الأفكار والحياة الروحية ، منهجية تعتبر إحدي أطروحاتها الأساسية هي أنه يكفي أن ندرس بجدية الوقائع الإنسانية لكي نجد دائما الفكر إذا انطلقنا من مظهره المادي ، والوقائع الاجتماعية والاقتصادية ، إذا انطلقنا من تاريخ الأفكار .

ويكفي مع ذلك أن نشير إلي البناء العام لمعظم الأعمال الكلاسيكية الكبري في الماركسية . ففي رأس المال Le Capital ، نجد أن جزءاً كبيراً منه تكونه الكتابات التي اشتهرت بعد وفاة كاتبها والتي نشرها كاوتسكي Kautsky تحت عنوان نظريات حول فائض القيمة (في الفرنسية تاريخ المذاهب الاقتصادية) كما نجد أن جزءاً مهماً من مراكمة الرأسمال Accumulation du capital لروزا لوكسمبورغ Rosa Luxemburg قدخصص لتاريخ النظريات حول المراكمة ، في الدولة والثورة L'etat et la revolution للينين ، نجد أن تحليل بنية الدولة لا ينفصل عن تاريخ النظريات الثورية حول الدولة ، وحتي في التاريخ والوعي الطبقي Histoire et conscience de classe للوكاتش نجد أن تحليل الوقائع وتاريخ المذاهب الإقتصادية ، الاجتماعية والفلسفية يرتبطان بشدة .

سيعترض علينا بدون شك ،بأن هناك كثير من الأعمال اللاماركسية التي تفسح مكانا ما لتاريخ الأفكار ، و لكن ، كما لاحظ لوكاتش ، هناك غالباً بينها و بين الأعمال الدياليكتيكية اختلافاً جوهرياً . ففي الأ عمال اللادياليكتيكية ، نجد أن الفصول

المخصصة للنظريات ، حين يتعلق الأمر بأعمال في السوسيولوجيا أو التاريخ ، و بالمقابل الفصول المخصصة للحالة الاجتماعية أو الفترة التاريخية ، حين يتعلق الأمر بتاريخ الأفكار أو الأدب أو الفن (نجد أنها) أجسام غريبة ، إضافية ، ملهمة ، في الأغلب ، بهاجس الاطلاع أو الاخبار العام . و بالمقابل ، فالعقائد بالنسبة للمفكر الدياليكتيكي ، تكون جزئاً مكملا للواقعة الاجتماعية المدروسة ، ولا يمكن أن تنفصل عنها إلا عن طريق تجريد مؤقت ؛ و دراستها تشكل عنصراً ضرورياً للدراسة الحالية للمشكل كما أن الواقع الاجتماعي و التاريخي يشكل أحد العناصر الأكثر أهمية حين يتعلق الأمر بفهم الحياة الفكرية لعصر ما . فتاريخ الفلسفة يعتبر بالنسبة للمفكر الدياليكتيكي ، عنصراً و مظهرا لفلسفة التاريخ ، وتاريخ مشكل ما هو أحد مظاهر هذا المشكل نفسه وأحد مظاهر التاريخ في مجموعه و سلاح للنقد ، و كما قال ماركس ، خطوة نحو النقد بواسطة الأسلحة .

لنختر بعض الأمثلة بالصدفة . كيف نفهم الدين أو العائلة خارج تكونهما و كيف نفصل هذا التكون عن تطور النظريات حول شرعية الفائدة ، حول خطيئة الربا ، حول الزواج وحول الحياة العائلية ؟ و من جهة أخري ليسمح لنا بأخذ مثالين من أبحاثنا الخاصة . من الواضح أننا نفهم بشكل أحسن فلسفة كانط او باسكال إذا ربطناهما ببنياتهما الاجتماعية التحتية ، ولكن من الواضح أيضاً أننا نفهم بشكل أفضل هذه البنيات التحتية ، نفسها إذا ربطناها ، من بين أشياء أخري بفكر هذين الفيلسوفين . ومن جهة أخري فإن هذين الفكرين يفهمان أحسن إذا عارضناهما ، من جهة ، بالمذاهب الفردانية التي سبقتهما و ببنياتها التحتية ، و من جهة أخري ، بالتأويلات المختلفة للعصور اللاحقة و بالأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية التي أثرت فيهما ، وغالباً ، ما حددتها . فكانط Kant يفهم أحسن باعتباره فيلسوفاً للوضعية التراجيدية التي وجدت فيها بورجوازية القرن ١٨ الألمانية نفسها ، هذه البورجوازية التي كانت تطمح في ثورة لا تستطيع القيام بها ، يفهم خاصة إذا قابلناه بتأويل القرن التاسع عشر أي بما أسميناه « سوء تفاهم الكانتي الجديد » الذي عبر فيه إلغاء الشيء في ذاته و إلغاء اخير المتسامي ، عن فكر طبقة بانتسابها لكانط لم تعد تطمح لأي تغيير اجتماعي [٢٣].

---

(٢٣) انظر في هذا الموضوع ل . غولدمان ، المجموعة الإنسانيه والكون عند كانط (puf).

وأيضاً فمن الصعب أن نفهم أفكار Pensees باسكال (و تراجيديات راسين) خارج البنية الاجتماعية لفرنسا في القرن السابع عشر ، أي خارج الوضعية التراجيدية لنبالة رداء موزعة بين أصولها وارتباطاتها البورجوازية من جهة ، وارتباطهاالحاضر بالملكية التي بدأت بالانفصال عن عامة الشعب من جهة أخري ، وموزعة نتيجة لذلك بين فكرها وشعورها : وخارج وجود التيار الجانسيني ، التعبير الايديولوجي الجذري عن رؤية العالم لنبالة الرداء هذه ، وخارج اضطهاد هذا التيار من طرف الكنيسة والملكية . ومن جهة أخري ، فإن الدلالة الحقيقية للفكر الباسكالي تتوضح خاصة حين نقابلها بالتأويلات العقلانية للبورجوازية الثورية (كوندورسي Con-dorcet ، فولتير Voltaire ، الفصل بين إنسان التعويذة وإنسان العجلة) في القرن الثامن عشر ، وبالتأويل المعتدل لفيني Vinet الذي اقترح تخفيف " مبالغات " باسكال، وبتأويل كوسان Cousin الذي رأي في باسكال متشككاً عبقرياً ولكنه خطير وفوضوي ، وهما معاً يعبران عن بورجوازية متمركزة بقوة في السلطة ومعارضة لكل تطرف ؛ وأخيراً ، بالتأويل اللاعقلاني لشيسطوف Shestov ، في القرن العشرين ، الرأي المضاد الصارم للتأويل العقلاني ، كما أن البورجوازية المتدهورة كانت هي الرأي المضاد للبورجوازية الثورية .

وهكذا نفهم لماذا لم يوجد في فرنسا قط تلامذة لباسكال [٢٤] . فالبورجوازية عبر مراحلها الثلاث هذه (الصعود ، السلطة ، التدهور) لم تستطع قط أن تقبل المفكر العبقري لطبقة ولإيديولوجية اختفتا مع النظام القديم .

إن خصوبة هذا المبدأ وأهميته ، لايمكن أن يوضحا إلا بواسطة التحاليل الملموسة التي تتجاوز إطار هذه الدراسة . سنكتفي بتقديم رسم خطاطي لتطور السوسيولوجيا خلال العشر سنوات الأخيرة .

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وحتي حدود ١٩٣٠، أخذت السوسيولوجيا انطلاقاً مغايراً . وهكذا أيقظت العديد من الأبحاث الملموسة الأمل في تطور

---

(٢٤) ليس للغة الفرنسيه حتى إسم مماثل ل : ديكارتي ، هيغلي ، سبينوزي Spinosite تعين به تلامذة باسكال . مباسكالى Pascalisant تشير إلى عالم يدرس باسكال دون أن يقبل بذلك أفكاره . وبالمقابل فليس هناك إسم خاص لباحث يدرس ديكارت دون أن يقبل فكره ذلك أن ديكارت يعبر عن فكر عامه الشعب الطبقة التي خلقت المجتمع الفرنسي المعاصر .

غيرمحدود. تقريبا . فالأعمال الكبيرة للدوركايميين في فرنسا ، وسوسيولوجيا المعرفة في ألمانيا ، مع شيلر Sceler وك. مانهايم ، وأعمال ماكس فيبر التي يجب أن نضيف إليها الدراسات التاريخية والإقتصادية المتطورة والمتأثرة بعمق بالسوسيولوجيا (يكفي أن نفكر في ماتييز Mathiez ، مارك بلوك Marc Bloch ، هـ . ببرين H.Pirenne لامبرخت Lamprecht صومبار Sombart ، ترويلتش Troeltsch) كشفت عن بعد جديد للوقائع الإنسانية . وهكذا إنفتح حقل مهم علي إستثمار وفهم الحياة الفكرية وذهب بعض الباحثين إلي حد الإعتقاد بأن السوسيولوجيا مدعوة إلي تعويض العلوم الإنسانية الأخري .

غير أن الماركسيين ، ينظرون إلي هذا التطور بعين متشككة وحذرة . وأنا لا أتكلم هنا عن نقد بعض النظريات ، عن رفض أو الاعتراف ببعض النتائج الملموسة لهذه الأبحاث . إن اختلافات من هذا النوع تشكل جزءا من التطور العادي للحياة العلمية ونتيجة طبيعية لحرية الفكر والنقد الذي يعتبر ضروريا لتقدم الفكر والمعرفة . إن تحفظ الماركسيين يتجه بالخصوص الي مستقبل السوسيولوجيا الجامعية وإلي حدودها في فهم الوقائع الإنسانية . وأهمية البعد الاجتماعي في دراسة هذه الوقائع الإنسانية ، هذه الأهمية التي سبق لإيديولوجيي البورجوازية ان اكتشفوها في بداية القرن التاسع عشر ، واستعملها العلم الجامعي بوضوح في نهاية هذا القرن وخلال الثلث الأول من القرن العشرين ، كان ماركس قد كشف عنها بدوره وتوسل بها خاصة بوضوح في تحاليله ، وبذكاء خارق منذ ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ، ولكنه وضح أيضاً المحدودية الإجتماعية للعلوم الاجتماعية والتاريخية نفسها واستحالة تجاوز بعض الحدود في فهم الوقائع الإنسانية دون أن نتجاوز أيضاً أطر المجتمع الرأسمالي ونخدم موضوعياً - واعين بذلك أم لا - بهذا البحث نفسه ، مصالح البروليتاريا .

وفي الحقيقة ، فإن الازدهار الكبير للسوسيولوجيا اللاماركسية يطابق مرحلة دقيقة ومحددة في تاريخ البورجوازية الغربية ، مرحلة أحس معها ، منظرون مختلفون ك صومبار ، هيلفردين Hilferding ولينين ، بالاحتياج إلي مصطلح خاص (ذروة الرأسمالية المالية ، الامبريالية) مرحلة سنخصصها هنا بثلاث سمات :

أ - لقد أصبح عجز الفردانية ومواقف التنافس الحر ، في حل المشاكل الاقتصادية السياسية والاجتماعية ، واضحاً بالنسبة للمفكرين البورجوازيين أنفسهم .

فالمغامرات الفردية Les robinsonnades الاقتصادية والأدبية ، التي عبرت بشكل عجيب عن الفكر البورجوازي في بداية القرن التاسع عشر ، تجووزت في نهايته ، ليس فقط بواسطة أنظمة المذهبيين ولكن أيضاً وبالخصوص بسبب التحولات الواقعية للإقتصاد والمجتمع . لقد كانت فترة لرأس المال الممول علي المستوي الاقتصادي ، وللشركات المتحدة والتروستات علي المستوي الإجتماعي ، والتنظيم السياسي والنقابي للطبقة العاملة ، علي المستوي السياسي ، مستوي استغلال العالم من طرف القوي العظمي .وفي الأدب ، من بالزاك Balzac إلي زولا Zola عوض ، غوريو Goriot ، غوبسبك Gobseck ، راستينياك Rastignac ، نوسانجون Nucingen بالمنتج ، الأرض ، المخزن الكبير ، الخ . وفي العلوم الإنسانية ، تركت السوسيولوجيا كعلم للمجموعات المكان للسيكولوجيا الفردية .

ب – بالرغم من بعض التحولات ، فإن البورجوازية الغربية لازالت موجودة علي رأس نظام اجتماعي قوي وقابل للإستمرار ، لم يدخل بعد في طور الانحدار : فهيمنتها قائمة بصلابة ، وتهديدات الاشتراكية نظرية وبعيدة ، وسياسة الأحزاب العمالية والنقابات إصلاحية (بالرغم من إيديولوجيتها الثوربة الظاهر) ، وتعاون الطبقات ، في أوربا الغربية ، يعتبر في النهاية واقعاً . ولهذا فإيديولوجية الطبقة البورجوازية لازال لها ، جزئياً ، محتوي واقعي ووظيفة اجتماعية فعلية ، لأنها تضمن تطور قوي الانتاج ، وتضمن الحضارة في نظام اجتماعي قابل للاستمرار (بالرغم من أنها غير عادلة ومؤسسة علي استغلال الإنسان للإنسان) . وهكذافككل طبقة لازالت تشغل وظيفة اجتماعية حقيقية ، فإنها تستطيع فهم بعض المظاهر الجوهرية للواقع ؛

جـ – ولكي نكون دقيقين ، يجب أن نضيف ، مع ذلك أن إيديولوجية البورجوازية ، وقيمها ، وتصورها للنظام أصبحت محافظة كلياً (كالنظام البورجوازي نفسه) ، وخالفت نوعيا الإيمان المتفائل لبورجوازية ثورية وواعية بضمان سير الإنسانية إلي الأمام بواسطة فعلها .

فقد عوض الإيديولوجيون المتفائلون للبورجوازية الثورية وما بعد الثورية كالكوندورسيان Les condorcets وسان سيمون ليسنج Lessing ، كانط بالمفكرين المتشائمين الكبار ، منذ شوبنهاور Schopenhauer الذي بشر فقط بالامبريالية إلي

بورخاردت Burckhardt وط .مان Th.Mann اللذان عبرا عنها وإلي شبنجلر -Spengler الذي بشر مسبقاً بطور الانحدار . والأسماء الأخيرة كلها المانية أو ذات لغة المانية . وفي الواقع ، فإن المانيا تشكل ، ضمن الدول الغربية الكبري ، المجتمع الأقل توازناً والأكثر هشاشة ، وضمنياً ، الأكثر حساسية تجاه أخطار المستقبل (٢٥) .

ولكن تشاؤمية هؤلاء المفكرين ظلت في الخلف ، إنها تشاؤمية مفكر فيها وليست فقدان أمل حالي ومعيش . كيركغارد أيضاً شاذ منعزل لم يفهم جيداً ؛ وبعد ذلك ؛ مات كافكا Kafka غامضاً وغير معروف . إن طور إندحار البورجوازية هو الذي جعل من هؤلاء ، ارجاعياً ، مفكرين وكتاباً كباراً كما نراهم اليوم . وعلي المستوي الفلسفي ، نجد أن مفكراً نموذجياً ك هيرمان كوهن Hermann cohan في نهاية القرن التاسع عشر لازال يعتقد أنه يدافع ضد كانط نفسه عن الحس الحي للفكر الكانطي ، بإلغاء فكرة الخير المتسامي ، لأننا ، كما يقول هو نفسه " لسنا في حاجة إلي هذا العالم الأفضل " (٢٦) .

إن مجموع الوقائع هذا يفسر إمكانيات وحدود السوسيولوجيا الجامعية خلال المرحلة المدروسة . لقد أعطتنا عدداً من الدراسات الملموسة التي تعتبر مكسباً نهائياً بالنسبة للعلوم الاجتماعية بالرغم من أن تفسير الوقائع الاجتماعية يصطدم في كل هذه الدراسات بعائق منيع : الميل الواعي أوغير الواعي إلي إلغاء كل تفسير بواسطة صراع الطبقات و – باعتبار العلاقة مع الماركسية ومع المادية التاريخية – بميل أقل قوة نحو التقليل من قيمة العوامل الاقتصادية في فهم الوقائع الانسانية . فماكس ڤيبر مثلا الذي وضح العلاقة بين الذهنية والبروتستانتية والرأسمالية ، قبل بشكل طبيعي ، بأن الأولي هي العامل المحدد ، بالرغم من أن الوقائع التي أبرزها ببراعة ، تفسر أيضاً بواسطة الفرضية المعاكسة ، وخصوصاً ، بواسطة فرضية أكثر احتمالاً ، لواقع إنساني كلي ، يتم التعبير عنه في كل مستويات الحياة الاجتماعية . وتقريباً لم يستعمل الدوركايميون قط في تفسيراتهم ، باستثناء كتابين لهاليفاش ، وجود الطبقات

---

(٢٥) – يكفي أن نفكر في الصدى الذي كان للكلمة الشهيرة لبورخاردت في المثقفين الألمان وهو يبشر ب " العهد المرعب للمبسطين ".

(٢٦) هـ . كوهن Kants Begnumeungder Ethik، ص . ٢١٢ . النحن " تشير اى أي حد هو متأكد من أنه يتكلم باسم الطبقة الاجتماعية كلها .

الاجتماعية ، ومن المحتمل أن الميل إلي إلغاء ، هذا المشكل هو الذي دفعهم إلي تخصيص قسم كبير من أعمالهم لدراسة المجتمعات البدائية حيث التمايز بين الطبقات لم يكن قد تحقق بعد . وربما هذه هي الأسباب في الواقع ، التي يجب أن نرجع اليها

قلة المعلومات التي قدمها هذا الحشد من الدراسات حول نمط إنتاج المجتمعات الطوطمية وحياتها الإقتصادية ، غير أنه ، برغم هذه الحدود، فإن دراسات ماكس ڤيبر، دوركايم ، موس ، هالفاش ، ليفي برول ، دافي ، فوكونيه ، تمثل مساهمة هامة في فهم الحياة الإجتماعية وبدون شك فبتراث البحث هذا ، يجب أن نربط دراسات بعض الباحثين الذين يتابعون أعمالهم اليوم . يكفي أن نشير ، في فرنسا ، إلي جـ . لوبرا G.lebras وكل ليفي – ستروس Cl.levi-strauss .

ومن الواضح أنه لم يكن لا لماكس فيبر ، ولا للنزعة الدوركايمية تلامذة ، (هذه الأخيرة تحيا أكثر فأكثر فقط في الأبحاث الأثنوغرافية الخالصة) . فهناك بين سوسيولوجية سنوات ١٨٩٠ – ١٩٣٠ وبين مايسميه غورفيتش في كتاب جماعي أشرف عليه ، " السوسيولوجيا في القرن العشرين " ، قطيعة " جوهرية تبدو لنا موازية للقطيعة الفلسفية بين الفترة المزدهرة للعقلانية وبين الوجودية المعاصرة ، والقطيعة الأدبية بين أواخر الكتاب الكبار للبورجوازية ، الجيديون Les Gides ، ط . مان ، م . مارتان M.Martin du gard والكاتب الكبير في أيامنا ، ف . كافكا ، و ، بالخصوص ، موازية للانتقال الاقتصادي والاجتماعي لبورجوازية أوربا الغربية من الطور الامبريالي إلي طور التدهور .

وباستثناء بعض المختصين الذين يتابعون تقليداً قديماً للأبحاث الملموسة ، فإن السوسيولوجيا المعاصرة تفقد أكثر فاكثر الاتصال مع الواقع .

لقد تكلمنا سابقاً عن عدم كفاية المناهج الوصفية الجديدة للسوسيولوجيا المعاصرة ، عن الفصل بين الفكر النظري والبحث الملموس . العامل المشترك ، في هذه الاتجاهات المختلفة بل والمتعارضة ظاهرياً ، هو الإلغاء التدريجي لكل عنصر تاريخي في دراسة الوقائع الإنسانية ، من هنا ينشأ ، علي المستوي النظري ، الميل المتزايد الوضوح ، لتعويض السوسيولوجيا بنوع من شبه – سيكولوجيا اجتماعية تحرف أكثر الوقائع ، والتي بالغائها لكل عامل تاريخي واجتماعي في الحياة النفسية للأفراد ،

تحاول بالعكس من ذلك ، أن تجعل من هذه الأخيرة مفتاح التفسير للظواهر الكلية وقد نال كونينغ ذلك بصراحة في الكتاب المستشهد به سابقاً ، فبعد أن فسر أننا نستطيع اليوم أن نجمع " في نفس المستوى " طارد Tarde ودوركايم ، معوضاً التمييز بين التمثيلات الفردية والجماعية ب " سيكولوجيا اجتماعية " و " بالتمييز الأكثر بساطة بين محتويات الوعي الفردي الخالصة وتلك التي تتوجه نحو الاجتماعي (Sozialau-gerichtet) . نفهم (أن هذه الأخيرة خاصة " تتميز بإكراه معين " " يصبح في نفس الوقت ، سبباً لتكراراتها المتناهية الدقة ، بحيث أن الواقع التاريخي والاجتماعي ، يبدو في النهاية كعلاقة أخلاقية ذات طبيعة خاصة " (ص : ٢٣) . وهكذا يختزل الواقع التاريخي الاجتماعي ، عند كونينغ إلي تكرار غير محدد للسيرورات النفسية والأخلاقية الفردية . ولن نستغرب حين يستمر معرفاً لوضوح منهجه" . وبنفس ننزع مشكل الأزمة من سياقه التاريخي – الفلسفي العام (-ges chichts philosophisch)

(التشديد منا) ، نوضحه ونرجعه (wird uberbunden) " إلي ظواهر وأوضاع فردية مرسومة بدقة . والدقة المتناهية الحاسمة التي سنصادفها في نهاية تطويراتنا ، ستكون هي ظاهرة (التكيف الخاطيء خاصة ، أو عدم التكيف) " (ص : ٢٣) . إلا أن الأسطر التي أتينا علي الاستشهاد بها ليست مبالغة فردية . لقد كان كونينغ ببساطة ، يعرف بالأسس بطريقة واضحة ومنفتحة ، منهج السوسيولوجيين المعروفين كفون فايز ، في ألمانيا أو مورينو في الولايات المتحدة .

والواقع أن ، ليڤون فايز ، في هذا الإطار ، استحقاق كونه رائداً ، فقد ألغي منذ مدة ، من السوسيولوجيا كل محتوي ملموس للحياة الإنسانية . فالسوسيولوجيا بالنسبة له تكتفي بدراسة ظواهر القرب والبعد النفسية بين الأفراد ، ونفهمه بشكل أكبر ، من خلال ابتدائه لعدد كبير من استعراضاته للكتب المعاصرة (بتسامح كبير من جهة أخري) بالتأكيد علي أنه قد سبق له أن قال نفس الشيء ثلاثين أو أربعين سنة قبل ذلك .

وفي الولايات المتحدة ، إبتكر مورينو عالم القياس السيسيولوجي الذي يعتبر في العمق ، مجهوداً قائماً علي نفس القواعد المضادة للتاريخ كما كان الأمر عند فايز ،نحو

تطـور علـم " كمي " إلـي هـذا الحـد أو ذاك، (وتتـوهم العلمـوية دائماً " الكمي و" القياسات ") [٢٧] .

ويعتقد موريـنو ، أنه وجد فيـهـا نوعاً من التـرياق الكوني الذي يسـمح بتـضليل التحركات المطالبة للعمال ويحل كل المشاكل الإجتماعية تقريباً . لقد كتب في أحد مقالاته : " إن الباحثين الذين يستعملون تقنيات سوسيو - درامية ، يجب عليهم في البداية ، أن ينظموا إجتماعات وقائية ، تعليمية وعلاجية في المجموعة التي يحييون ويعملون فيها ، أن ينظموا حين نطلب منهم ذلك ، إجتماعات من نفس النوع في كل مكان تطرح فيه مشاكل مماثلة ، أن يندمجوا في مجموعات تعاني من صعوبات إجتماعية ملحة أو دائمة ، أن يشتركوا في إجتماعات منظمة من طرف بعض المضربين ، في الانتفاضات بمختلف أنواعها ، في التجمعات والتظاهرات السياسية ، الخ . " [٢٨]

" إن الصعوبة التي واجهتها الماركسية ، يمكن أن تلخص في جملة واحدة : جهلها بالبنية السوسيو - دينامية المستقلة للمجتمع المعاصر " (ص : ٧٦) . " إن التجريب السوسيو - متري يسعي إلي تحويل النظام الإجتماعي القديم الي نظام اجتماعي جديد "(ص : ٥١) . " وكرضيع ، فإن الإنسانية ، لن تنضج إلا خطوة ، خطوة ؛ ولن يكون ذلك إلا في الحد الذي يعيد فيه الوعي السوسيومتري بالتدريج ، قولبة مؤسساتنا الإجتماعية ، وحين تجد الإنسانية بنية إجتماعية قادرة علي أن تصير إطارا لمجتمع كوني (ص : ٧٤) .

وهكذا نستخلص أن الإزدهار الحالي الكبير للميكروسوسيولوجيا ، يعد ظاهرة مخالفة تماماً لذلك الذي ميز سوسيولوجيا سنوات ١٨٨٠-١٩٣٠ . فقد كان هناك ميل إلي تعويض السيكولوجيا الفردية بدراسة المجموعات الاجتماعية ؛ واليوم نلاحظ أن

---

(٢٧) لا نريد بالطبع ، أن ننكر أهمية كل قياس ولا أهمية كل تقدير كمي ، ولكننا نريد فقط انتقاد كل فيتيشيا للقياس ، كتلك التي تم التعبير عنها مثلا في دراسة سوسيولوجية حول " العالم الإجتماعي " في الولايات المتحدة ، والتي كتب أصحابها ، وهم يدرسون دوافع سلوك السوسيولوجيين الأمريكيين " لا نأخذ هنا في الإعتبار التحفيذات " الشخصية " كحب الحقيقة أو شهية المعرفه ، مادامت لا توجد هناك معطيات مقبولة في هذه المادة وليس من الممكن عمليا أن نسند لها اليوم مكانا ولو تقريبيا في سلم قياسي للتوزيع الوطني . علوم السياسة في الولايات المتحدة ، كولان ١٩٥١، ص ٢٦٦ دراسه ر . ميرتون R. Merton ود. لورنر D. Lerner . العالم الاجتماعي في أمريكا.

(٢٨) الدفاتر العالمية للسوسيولوجيا ، ج ١٩٤٩ . ل . مورينو ، السوسيومتري والماركسية ، ص ٧٢ في مكان أخر من نفس المقال ، يتكلم مورينو عن ماركس مزدوج رجل العلم الذي حد بالسوسيومتري ورجل السياسة .

السوسيولوجيا تعود ، عند بعض الباحثين ، إلي التطابق تقريباً مع السيكولوجيا الفردية في الحد الذي تهتم فيه هذه الأخيرة بالإنسان في علاقته مع أقاربه . ومن جهة أخري ؛ فإن الأمر لا يتعلق بإلغاء كل جدوى عن أبحاث " علم العلاقات " الذي طوره فون فايز وتلامذته ، بل وعن بعض الدراسات السوسيومترية ، ولكن هذه الأعمال تعتبر ، في أحسن الحالات ، دراسات في السيكولوجيا الإجتماعية يتلغي بوعي كل تحليل ملموس للوقائع الانسانية في محتواها وفي واقعها التاريخي ، وتصبح ، بسبب هذا نفسه ، أيديولوجية ومحرفة بمجرد ما تقدم نفسها باعتبارها "سوسيولوجيات " أو باعتبارها علوما للحياة الإجتماعية .

إن الميكروسوسيولوجيا لا تاريخية . فبعض المنظرين الآخرين يتصورون تاريخاً بدون بنية . فقد طور غورفيتش في فرنسا سوسيولوجية " فوق تجريبية – فوق – نسبوية " فتلك أهمية الأعمال الماكرو– سوسيولوجية ، ولكنها تتجنب إقامة تراتب موضوعي وملموس للتجمعات الضرورية من أجل تحليل واقعي وملموس لبنيات الحياة الإجتماعية (٢٩) .

---

(٢٩) صحيح أنه في بعض الأحيان يبدو عارفا ، مبدئيا ، بضرورة تراتب ما ، وهكذا ، فقد كتب في الصفحة ٢٧٠ في كتابه الاتجاه الحالي للسوسيولوجيا : " إن وحدة المجتمع الكلي بالقياس مع تعدد التجمعات الخاصة المتصارعة ، تصنع الحدود ، تحبط بالتبادل ، أو تتضامن ، تتداخل ، أو تشكل في الأخير ، في حضن المجتمع ، مجموعات متكتلة ، تعلن عن نفسها بواسطة السيطرة المعطاه للأمة علي أجزائها ، وتعبر عن نفسها في تراتبية متنوعه للتجمعات حيث أن توطيدها النسبي يشكل بنية مجتمعية كلية ... إن التراتبية الخاصة التجمعات ، يمكن أن تتيح معيارا أكثر موضوعية بالنسبة لدراسة الانماط الاجتماعية الكلية " . ولكننا إذا رجعنا ، انطلاقا من إشاراته الخاصة ، الي العمل الذي تطرق فيه لدراسة هده التراتبية ، سنقرأ منذ بداية الفصل المخصص لهذا المشكل إن " التعقيد اللامتناهي ، وغني مظاهر ومحتويات كل مجتمع كلي ... تمنع من إقامة أنماط سوسيولوجية دون أن نأخذ كنقطة للإستدلال ، نشاطا إجتماعيا خاصا ... فتضيف أنماط المجتمعات الكلية سيعطي إذن نتائج مختلفة حسب تصورنا لها إنطلاقا من تأثيراتها علي الظواهر الاقتصادية الدينية ، الأخلاقية ، القانونية ، الخ (ج . غورفيتش ، عناصر السوسيولوجيا القانونية أو بية ١٩٤٠ ، ص ٢١٠٠) برصدنا للخاصية النفعية أساسا جوهريا لكل تصنيف لأنماط الظواهر الاجتماعية الكلية تصنيف يقبل روايات مختلفة متعددة إنطلاقا من الهدف المنشود ، ستنحصر في تشغيل بعض الأنماط الخطاطية للمجتمعات الكلية إنطلاقا من دراسة الظواهر القانونية " (نفسه ، ص ٢١١) . ضمن هذه الشروط ، " فالمعيار الأكثر موضوعية " ، الذي يتنوع بتنوع المجتمعات وخاصة بتنوع المنظورات ، لايبدو لنا خاصة قادرا علي إبراز بية الواقع التاريخي والاجتماعي . محاولا أن يصالح بين شكل صريح النسقية ومحتوي " فوق – نسبوي " أصبح غورفيتش شديد الحساسية تجاه نواقص مختلف النظريات السوسيولوجية التي ينتقدها ولكنه لا يجازف ، حين يطور فكرة الخاص بجمع مساوىء النظام (تجريد) ومساوىء النسبوية (نقص البنية) دون أن يحافظ علي مميزاتها الخاصة المحتملة رؤية تركيبية ومبنية واقتراب من الواقعي المباشر .

إنه هنا لايرفض المادية التاريخية فقط ، ولكنه يكتفي ، حين يشير إلي عمل مكس فيبر ، بالملاحظة المختصرة : " صخب كثير من اجل أشياء قليلّه " (٣٠) لقد عدد ١٥ معيارا غير تراتبى لتصنيف التجمعات و ٣ أشكال للتشريك Socialisation وناقش نظريات-سوسيولوجيه متعدده بتجريد (مؤاخذا عليها ، بصواب غالبا ، خاصيتها الاحاديه الجانب) دون ان يربط قط ايه نظريه منها ببنيتها التحتيه التاريخية و الاجتماعية .

من البدهي ان كل محتوي ملموس يختفي في هذا الليل التجريدي " الفوق – نسبوي " –

تنضاف إلي النزعة السيكولوجية وإلي النسبوية ، التحريفات الأيديولوجية في محتوي البحث . لنستشهد بحالة نمطية خاصة في مقال مخصص لمناهج دراسة الشغيلة العاملة (٣١) ، وبعد أن أكد بروبول Brepohl ، أحد المشهورين من سوسيولوجي الجيل الجديد في المانيا ، بكثير من الإلحاح علي ضرورة دراسة موضوعية دون أحكام جاهزة (Voraussetzungslos) ، الخ .

قدم كخلاصة عامة ، خطاطة لدراسة مماثلة ، خطاطة مقسمة إلي ٤ فقرات : البنيان (Gebilde) ، المعايير ، الأشكال والقيم . في الفقرة ١ أشار إلي " العائلة ، الفرد ، الناس (Die sippe) ، تجمعات العمل ، البلديات ، المجموعة الدينية ، الفضاءات الكبيرة : الدولة والشعب " .

في خطاطة للدراسه "الموضوعيه " الخاليه احكام جاهزه للشغيله العامله ، لم يفعل بروبول شيئا سوي ان "اهمل" الطبقه الاجتماعيه .

وهكذا ،فالنظريات ذات النزعه السيكولوجيه والميكروسوسيولوجيه ،والفوق – نسبويه والتحريفات الايديولوجيه، تعد بمجملها مناهج وصفيه تصل كلها بنفس المعني الي تجريف الواقع الانساني عبر نغليف خاصيته التاريخيه وتحويل المشاكل الحقيقية ، مشكل قوانين التطور ومشكل دلالة الواقعة الفردية في المجموع المكاني – الزماني ،

---

(٣٠) جـ . غورفيتش ، الاتجاه الحالي للسوسيولوجيا ص : ٤٠ .

(٣١) W. Brepohl,Industrielle Volks runde . Soziol Welt السنة الثانية الدفتر ٢ ، يناير ١٩٥١، ص ١٢٣ .

إلي وصف لتفصيل معين خارج عن سياق ، ضمن مجموع نقبله ضمنياً : مجموع صارم وقابل (في أحسن حالاته) فقط لتغيرات غير ذات قيمة . كما قال ذلك كونينغ فإننا " ننزع الظاهرة من سياقها التاريخي " وندرس التفاصيل الدقيقة ، ليس من زاوية فلسفة التاريخ ، ولكن من زاوية " التكيف " (مع المجتمع الرأسمالي ، بطبيعة الحال) . إنها سوسيولوجيا لم تعد ترغب في الفهم ، وإنما في " التدجين " .

من غير المجدي أن نقول أننا هنا أمام نتائج واقع خاص هو أن المجتمع الرأسمالي في أوروبا الغربية قد دخل في طور تدهوره . نسمح لأنفسنا أن نقدم أيضاً بعض الآراء حول السوسيولوجيا المعاصرة بالتطرق لبعض ممثليها الحقيقيين في الولايات المتحدة الأمريكية ، آراء كان عنصر النقد الذاتي فيها ممكناً ، بالتحديد لأن . رأسمالية الولايات المتحدة الأمريكية لازالت حية بل وفي ذروتها ، وتتلقي تأثيرات الوضعية العامة للرأسمالية العالمية .

في الكتاب الجماعي المعنون بـ "السوسيولوجيا في القرن العشرين" ، أعطي هـ.ت . كليمز ، لمقاله عنوان " السوسيولوجيا والعلوم الإنسانية " وفيه نقرأ أن :

" لقد كانت السوسيولوجيا ومازال اليوم علماً وصفياً ، أنها لاتعطي تفسيراً ، ومن وجهة نظر منطقية ، فإن فرضياتها بمجملها متساوية الأهمية ولايمكن أن تكون إحداها قاعدة للأخري . إنها علم مؤسس مباشرة علي بعض الوقائع المشتته التي لا توحد بتطبيق فرضية عامة ، وكما لاحظ ذلك أرسطو في القديم ، كان بإمكانها أن تكون شيئاً آخر بهذه الوقائع . عندما تقبل في السوسيولوجيا بعض الفرضيات التي يمكن التحقق منها ، فإنها ستصبح علماً تفسيرياً وستدخل وقائعه وفرضيات في مجموع . وإلي أن يتحقق ذلك فإن المهمة الخاصة للسوسيولوجيا ستقتصر علي التصنيفات . [٣٢] . في مقال آخر من نفس الكتاب ، عالج سوروكان الدينامية السوسيو – ثقافية والنزعة التطورية ، ليؤكد القطيعة الجدرية بين سوسيولوجيا القرن التاسع عشر وسوسيولوجيا

٣٢) السوسيولوجيا في القرن العشرين(PUF) ص : ١٤ أول قانون سوسيولوجي " ملموس أشار اليه هذا الكتاب في الصفحة ٢٣ أعلن عنه هكذا " إن عدد الاشخاص الذين تجاوزوا بعض المسافات يناسب مباشرة عدد الوظائف التي يأملون إيجادها بالابتعاد عن نقط إنطلاقهم ويناسب ، عكس ذلك أيضا ، عدد العوائق التي يمكن أن تعترض بحثهم . "ويظهر القانون الثاني فجأة في الصفحة ١٢٥ ويعلن آن هناك نقصا في نسبة الزواج خلال مراحل التدهور الاقتصادي .

القرن العشرين ، لقد كانت الأولي تهيمن عليها فكرة التطور الخطي (وهذا هو الإسم الذي يعطيه سوروكان لفكرة التقدم) ؛ هذا " المعتقد " استخلصه سوروكان من كل العلوم الإنسانية ، حتي من الأركيولوجيا وما قبل التاريخ ، في شكل " أطوار مقننه للعصر الحجري القديم – الأخير ، عصر النحاس ، عصر البرونز ، عصر الحديد وعصر الآلة (٣٣) . ومن حسن الحظ ، فإن السوسيولوجيا ، في القرن العشرين ، تحررت من نظريات السير إلي الأمام " التي إتضح أنها أقل إنتاجية " ، و " ركز الباحثون إهتمامهم علي المظاهر الأخري للتحولات السوسيو- ثقافية ، وأساساً وقبل كل شيء علي خاصياتها الثابته والمتكررة : القوي ، السيرورات ، العلاقات والإطرادات " (٣٤) ، وفي إستعراضه للسوسيولوجيين الذين يرتبطون بإبراز السمات الأساسية للحياة الإجتماعية ، يعلمنا أن هناك من يذهبون إلي حدود البحث عن " الثوابت القابلة للتغيير " (التشديد منا) ، كالكثافة وعدد السكان (٣٥) .

أما بالنسبة للإحصائيات والمونوغرافيا ، فلنترك م . أ . ف بورجيس E.W. Burgess الذي ، عالج ، في الكتاب المستشهد به ، مناهج البحث في السوسيولوجيا ، يتكلم . " ماهي ، أهمية هذين المنهجين الأساسيين في البحث السوسيولوجي : الإحصاء والمونوغرافيا ؟ وهذا هو السؤال الذي يقترح دراسته . بعد أن عدد الصعوبات التي تواجه هذين المنهجين ، يعلمنا أن بعض الباحثين " سلموا بشكل صريح أو ضمني بأن هذه العوائق لايمكن أن تتجاوز وإنصرفوا إلي البحث في المجالات التي لاتظهر فيها (٣٦) ، إنهم هم أولئك الذين يشتغلون داخل " الأيكولوجيا الإنسانية " و " لايهتمون قط بمسائل التواصل والحضارة " . " حل آخر " تم تبنيه من طرف أولئك الذين " تتيح لهم سلسلة من الدراسات الوصفية مواد ملموسة ، مهمة ومقنعة ، ولكنهم غير متأكدين من أن ملاحظاً آخر يمكن أن يصنع نفس العلاقة أو يصل إلي نفس النتيجة " (٣٧) . وأخيراً ، هناك البعض الآخر ، الذين يعرفون أن "

---

(٣٣) نفسه ، ص : ١٠٢ .

(٣٤) نفسه ، ص : ١٠٨ .

(٣٥) نفسه ، ص. ١٠٩ .

(٣٦) نفسه ، ص ٢٢ .

(٣٧) نفسه ، ص : ٢٢ .

المعادلة الشخصية للباحث ، إذا كان من الصعب الغاؤها في العلوم الفيزيائية والبيولوجية فمن المستحيل إحتواؤها في العلوم الإجتماعية "(٣٨)

فبعيداً عن المنهج ال " Nomothetique " للأنماط المثالية الذي يرتبط خاصة بسوسيولوجي الفترة الكلاسيكية " سيمل Simmel ، طونييز Tonnies ، دوركايم ، مارسيل موس ، ماكس فيبر ، والعديد من السوسيولوجيين الآخرين من الفرنسيين والأمريكيين من الجيل اللاحق " (٣٩)، استشهد بورجين بالمنهج " الأيديوغرافي " " الذي يدرس الحالات الفردية في كل ما لها من مفرد Indivuduglise وتام " (٤٠) ، وهو منهج أدخل إلي السوسيولوجيا من طرف توماس وزنانييكي Tomas et znaniecki إلا أن هؤلاء كما كتب " لم يصلوا تماماً إلي هدفهم " . فخطاطتهم المفهومية لم تكن تماماً وأيضاً في جزء كبير منها ، مستخلصة من المعطيات التي جمعوها ، و من جهة أخري فمعطياتهم لم تفحص تصوراتهم و فرضياتهم بطريقة دقيقة و مقنعة "(٤١) .

واخيرا ،وبعد ان اكد ان "المناهج الاحصائيه التي كيفت خاصه مع المتطلبات السوسيولوجيه ،لم تكتمل بعد "(٤٢)،اشار بورجيس الي كتاب كان قد نجح في عرض اهم التحولات الاقتصاديه الاجتماعيه والسياسيه للمجتمع الامريكي من ١٩٠٠ الي ١٩٢٩ (٤٣)،" الاتجاهات السوسيولوجيه المعاصره" le recent social trents لانستطيع ان نؤكد بشكل اكبر ما اكدناه في الصفحات السابقه .فالبحث التجريبي (المونوغرافيات ، الاحصائيات ،الابحاث ،الخ). يتوقف علي نظام شامل ،ولايجيب الاعلي الاسئله التي يطرحها عليها السوسيولوجي ،كما انه لا يؤكد علي اهميه العناصر المختلفه للحياه الاجتماعيه . فاكبر عدد ممكن من هذه الابحاث سواء تلك التي تمكنا من قراءتها في المجالات باللغه الالمانيه او الفرنسيه (وكذلك التقاريرالتي صادفناهاحول الاعمال المكتوبه باللغه الانجليزيه)،كتبت بشكل يغلق المجال امام فهم

---

(٣٨) نفسه ، ص ٢٤ .
(٣٩) نفسه ، ص . ٣٠ .
(٤٠) نفسه ، ص ٢٩ .
(٤١) نفسه ، ص ٢٨ .
(٤٢) نفسه ، ص ٢٣ –٢٤ .
(٤٣) نفسه ، ص : ٢٥ .

السيرورات الاجتماعيه والتاريخيه الكبري،ويركز،في احسن حالاته ، انتباه القراء علي مشاكل عامه في السيكولوجيا الداخل - فرديه : المسافه الاجتماعيه ، اندماج ، الاحساس بالمسؤوليه ، الخ . ففي معظم الدراسات ، النظريه او التجريبيه للسوسيولوجيا المعاصره ، نجد ان الواقع الملموس ، الاجتماعي والتاريخي يسير بمجمله نحو الاختفاء . وقد كتب لوكاتش ، منذ١٩٢٣ ان ."المنهج المونوغرافي هو افضل وسيله لاغلاق الافق امام المشكل"...

فالفكر البورجوازي في فتره تدهوره غير متجانس مع النظريات السوسيولوجيه التي تلمس نوعا ما.. الواقع الانساني . فالباحثين الذي بلغوا الواقعي ، حتي وان كانوا محافظين، ظلوا بدون صدي. ان المعرفه الاجتماعيه تتجه،علي المستوي الاخلاقي ، الي فلسفات اليأس ، وعلي المستوي العلمي ، الي النظريات"الشكليه"والي الباحثين عن "الثوابت" . "Constantes" والي التجريبويه المفرطه-الفوق تنسبويه" . وخلف القصد العلمي ، ليس صعبا ان نستنشق التخلي والاقرار بالعجز .ولهذا،فمن المهم ان نذكر مره اخري ،ان الرغبه في فهم الواقع ، في مجال العلوم الانسانيه ، تتطلب من الباحث الشجاعه في ان يقطع مع الاحكام الجاهزه الواعيه او الضمنيه وان يتذكر دائما ان العلم ،يتأسس ، لا في افق هذه المجموعه الخاصه او تلك ولا في موقف خارجي زائف الموضوعيه ، يفترض ديمومه البنيات الاساسيه للمجتمع الحالي ، ولكن في افق للحريه وللمجموعه الانسانية ، افق الانسان والانسانية .

لو انتقلنا الان الي دراسه السوسيولوجيا الماركسية ، سنقول بسرعه، إننا نستطيع بصعوبه تلمس بعض الملامح الخطاطيه ، فتاريخ الماركسي ، يتطلب عملا ضخما في الوثيق والتأليف . غير انه من المزعج ، ان هذا العمل ، في حدود معرفتنا لم يباشر قط او علي الاقل لم يحاوله احد في مجموعه (٤٤). ويمكن لحشد من المشاكل الخاصه ان يتضح بفضل دراسه كهذه . يبدو لنا واضحاً ، مثلاً ، في نقاش لينين و روزا لوكسومبرغ ، أن الأول يعكس ، في الأغلب ، التجربة الروسية ، في حين أن روزا لوكسومبورغ طورت نظرياتها علي ضوء التجربة الألمانية . فإذا كان لينين يلح علي

---

(٤٤) ومع ذلك ، فهناك دراسات هامة حول النظريات الماركسية للدولة عند لينين وحول نظريات التراكم عند روزا لوكسمبورغ .

أهمية الحزب الثوري في الثورة في حين كانت روزا لوكسومبورغ ، تحذر من الحزب وتري الخاصية الجوهرية في عفوية الجماهير ، فإن هذا الإختلاف يتوضح خاصة ، إذا تذكرنا أنه في روسيا في تلك الفترة ، كان هناك حزب ثوري منظم ، في حين أن الحزب الإشتراكي الوحيد في ألمانيا كان إصلاحياً ، وأن روزا لوكسومبرغ كانت تستند علي تجذير بعض الطبقات البروليتارية للصراع ضد قيادة هذا الحزب . ونستطيع أن نفهم بشكل أفضل أيضاً انتقادات روزا لوكسومبرغ ، في ١٩١٨ ، للإصلاح الزراعي في روسيا ، إذا تذكرنا أن المسألة الفلاحية في ألمانيا ، البلد المصنع ، كانت لها أهمية قليلة مما كان عليه الأمر في روسيا . وأخيراً ، فإن الخلاف الشهير حول المراكمة والذي تدافع فيه روزا لوكسومبرغ ، عن وجود حد إقتصادي للتطور الرأسمالي ، وهو حد ينكره المنظرون الروس ، يفسر هو أيضاً بواسطة اعتبار مزدوج هو أن :

أ- ألمانيا كانت بلداً بلغت فيه الرأسمالية ذروتها وقربت هذا الحد الإقتصادي ، في حين أنها في روسيا ، بدأت تطورها بالكاد .

ب - وأن الحدود السياسية للتطور الرأسمالي كانت قريبة جداً في روسيا وبعيدة جداً في ألمانيا .

وخارج هذا المثال الخاص ، سنكتفي بالإشارة إلي حقيقتين تبدوان لنا هامتين خاصة .

يركز الفكر الديالكتيكي علي الخاصية الكلية للحياة الاجتماعية . إنه يؤكد علي استحالة الفصل بين جانبها المادي وجانبها الفكري . ومع ذلك ، فإذا تتبعنا تاريخ الفكر الماركسي ، فإننا سنجد دائماً نقاشات بين التيارات المثالية ، الميكانيكية ، الأرثوذوكسية . إذا تركنا جانبا المواقف التي تتخلي عن الماركسية بوعي أو بدون وعي (بيرنشتاين دومان Bernstein, Deman، الخ) فمن الصائب أنه حتي داخل ما يمكن تسميته الأرثوذوكسية ، هناك ، باستمرار ، تأرجحات بين التيارات التي تركز علي أفعال الناس ، علي إمكانياتها في تحويل العالم أو ، بالعكس من ذلك ، علي الجمود الإجتماعي ، علي مقاومات الوسط ، علي القوي المادية . هذه التأرجحات التي لا ترجع إلي الصدفة ، تعبر ، هي أيضا عن التحولات الاجتماعية ، وعن تغيرات شروط فعل الحركة العمالية . كل الكتب الماركسية الكبري ، التي تركز علي قوي الإنسان ، وعلي امكانياتها في أن يحول ، بواسطة فعله ، المجتمع والعالم ، تتموضع في الفترات الثورية الكبري ، تقريباً في السنوات ١٨٤٨ ، ١٨٧١ ، ١٩٠٥ ، وفي روسيا ، في ١٩١٧ . يكفي أن نشير إلي الكتابات الفلسفية لماركس الشاب ١٨٤١-٤٦) ، كراسته حول الحرب الأهلية في

فرنسا (١٨٧١) ، " الدولة والثورة " للينين (١٩١٧) ، ال "Juninsbroschure" " لروزا لوكسومبورغ (١٩١٦) و " التاريخ والوعي الطبقي " ، لجورج لوكاتش (١٩١٧-٢٢) . وبالمقابل ، ففي فترات ترسخ الطبقات المهيمنة ، الفترات التي كان فيها علي الحركة العمالية أن تناضل ضد خصم قوي وخطير أحياناً ، وفي الحالتين ، متمركز بقوة في السلطة ، فإنها تنتج بالطبع ، أدبيات اشتراكية تركز علي العنصر " المادي " للواقع ، وعلي العقبات التي يجب تجاوزها على قلة فعالية الوعي والفعل الإنسانيين . نقر أننا انزعجنا بقراءة مقال حول ماركس الشاب ، لغورفيتش (مقال أظهر تعارضاً في المكان الذي لا نري فيه إلا اختلافاً في الإهتمام ، بين كتابات ماركس الشاب وكتابات الفترة الثانية من حياته) .(لقد إنزعجنا) ونحن نلاحظ التفسيرات " التاريخية " الوحيدة لهذا الإختلاف كانت ، بالنسبة لغورفيتش هي "السجال مع برودون" و " المحيط الثقافي " الذي وضعت فيه ماركس " الدراسة المعمقة للإقتصاد السياسي الكلاسيكي وبالخصوص دراسة ريكاردو Ricardo والواقع أن الآمال التي أيقظتها ثورة ١٨٤٨ ، وتغير الأوضاع الناتج عن هزيمة الحركة البروليتارية ، يتسمان في نظرنا بأهمية أخري (٤٥)

---

(٤٥) ج .غورفيتش ، الاتجاه الحالي للسوسيولوجيا ، ص ٦٠٠-١ شيء اخر ، ليس أقل إزعاجا ، وهوالقول أنه فقط جورج بليخانوف George Plekhanov، و اد . بورنشتاين ، وجزئيا بوخارين ، هم الذين إنتهوا الي قبول وجهة النظر هذه (النزعة الإنسانية المتطرفة لماركس الشاب والتي أعيد تناولها من طرف إنجلز) . فمن جهة يلغي غورفيتش لينين و ر . لوكسومبورغ وعلي المستوي الفلسفي ، جـ . لوكاتش والذي ، في ١٩١٧- ١٨ ، وبدون أن يعرف المخطوطات التي لم تكن قد نشرت بعد لماركس الشاب ، وتوصل الي محتواها ، دون أن نتكلم عن هـ . لو فيفر H . le Fevre ، " المادية الدياليكتيكية " ، ك . كورش K. Korsch **Marscismus und Philosophie** والكثير من الاعمال الاخري الاقل أهمية . ومن جهة أخري ، فالعمل الذي رستشهد به لبوخارين اعتبر دائما من طرف الماركسيين ميكانيكيا ، يقلل من قيمة أهمية الوعي والفعل الانسانيين وقد قال ذلك لوكاتش منذ ١٩٢٥ ، في تقرير نسمح لأنفسنا أن نقتبس منه بضعة سطور إن هدف بوخارين الذي كان هو تأليف كتاب مختصر للإنتشار ، يجب أن يجعل الناقد متسامحا تجاه نتائجه التفصيلية ، خاصة فيما يتعلق الامر بالمجالات الهامشية . هذا الهدف وأيضا صعوبة التزود في روسيا بالكتابات التي يحتاج اليها ، تبرر مثلا ، واقع أنه حين كان يتكلم عن الأدب ، الفن والفلسفة ، كان يحيل بالتقريب فقط علي كتابات من الدرجة الثانية ، ولايولي الاعتبار ، في الاغلب ،للأدب الاكثر تطورا . والخطر الذي نتج عن هذا تطور مع ذلك بفعل أنه حين حاول كتابة كتاب سهل الفهم ، مال كثيرا إلي تبسيط المشاكل الحقيقية نفسها ... " و بعد انتقادات حول نقط محدودة ، تابع لوكاتش " ولكننا لا نريد أن نتوقف عند التفاصيل . و ذلك لأن ما هو أهم من هذا النقص في التعمق و هذه التحريفات ، هو أن بوخارين ينفصل ، في بعض النقط الأساسية (Nicht unwesenthicha) عن التقليد الحقيقي للمادية التاريخية ، و هذا دون أن يكون ، علي صواب بشكل موضوعي و دون أن يتجاوز ، بل و دون أن يصل حتي الي مستوي سابقيه ... إن تصور بوخارين ، يصل بهذا الي الاقتراب ، بشكل مزعج ، من المادية البورجوازية (التأملية حتي يستعمل مصطلحات ماركس) . و حتي دون أن نتكلم عن ماركس و أنجلز ، فإن انتقاد هذا المذهب من طرف مهرينغ Mehring و بليخانوف ، التمييز الصارم بين عجزه عن فهم التاريخ ، و السمة التاريخية المميزة للمادية الدياليكتيكية لا يبدو أنه موجود بالنسبة لبوخارين ... ففي تأملاته الفلسفية ، يلغي بوخارين ضمنا ، حتى دون أن يناضل ضدها ، كل العناصر التي تأتي في المنهج الماركسي ، من الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ... إن نظرية بوخارين التي تقترب أكثر من المادية البورجوازية المتأثرة بالعلوم الفيريائية الكيميائية ، تكتسب بهذا نمط علم ، (بالمعنى الفرنسي للكلمة) ونعلف ، أحيانا (Zuweilen) في تطبيقاتها المادية علي الواقع وعلي التاريخ ، جوهر المنهج الماركسي .واقع إرجاء كل ظواهر الاقتصاد و" السوسيولوجيا " إلي علاقات اجتماعية وإنسانية " جـ . لوكاتش ، تقرير بوخارين . نظرية المادية التاريخية في أرشيف ١١ .

Furgesch . des sozialismus und der Arbeiterbewegung Leipzig , 1925 . P : 217 - 218 .

وأخيراً ، وحتي ننهي هذه الملاحظات ، التي لا ننكر قطعاً خاصيتها الخطابية ، نشير أيضاً إلي أن واقع دراسة المظهر الاقتصادي للحياة الاجتماعية خاصة ، وإلغاء دراسة الايديولوجيات ، يؤدي ، فيما يبدو لنا ، إلي خطأ مهم في التقويم . يتعلق الأمر برأس المال الممول وبالامبريالية . فعلي المستوي الاقتصادي ، كانت دراسة هيلفيردين ولينين مهمة Hilferding . ولكن يبدو لنا أن الإقتصار علي المظهر الاقتصادي للواقع ، هو الذي دفع مفكري الحركة العمالية إلي أن يروا في الامبريالية الأوربية لسنوات ١٩٠٠ ـ ١٩١٥ ، " المرحلة الأخيرة من الرأسمالية " . وكان بإمكان تحليل للحياة الإيديولوجية في هذه الفترة ، أن يسمح برؤية أفضل للواقع ، خصوصاً للحيوية التي كانت رأسمالية أوروبا الغربية لا زالت تمتلكها حتي ١٩٢٥ ، ١٩٣٠ بل وحتي ١٩٣٩ حين بدأت المرحلة الحقيقية للتدهور . إن الانتقال علي المستوي الايديولوجي من نيتشة Nietzsche وبرجسون Bergson الى هايدغر Heidegger ، د. جسبرس Jaspers ، سارتر Sartre ، اكتشاف كافكا وهايدغر ، كلها أعراض أضاءت تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بالإضافة إلي أن دلالتها لا يمكن أن تفهم بدورها ، إلا عبر هذه الأخيرة .

نضيف أخيراً ، أن تطور الفلسفة والسوسيولوجيا الماركسيين ، يوجد اليوم بدوره ، في أوروبا علي الأقل محاصراً بمجموعة من العوامل الإقتصادية والإجتماعية . فالمظهر الملموس الذي يتخذه اليوم ، الصراع بين البروليتاريا والبورجوازية ، والصعوبات التي تواجهه منذ ١٩٢٥.٢٦ (الفترة التي تجاوز فيها النظام الرأسمالي أزمة ١٩١٧ .١٨) ، والحركة الثورية ، الأهمية التي امتلكها في الاتحاد السوفياتي الشكل العسكري ومشكل العلاقات مع الدول الرأسمالية، تأثير الاتحاد السوفياتي علي الحياة الأيديولوجية للحركة العمالية الأوروبية ، كل هذا طور في البروليتاريا ، حساً نظامياً صارماً ، غير ملائم بالمرة للبحث وللحياة الثقافية . وهكذا ، فبصرف النظر ، عن الأعمال الكلاسيكية الكبري للماركسية قبل ١٩٢٠، فإن عدد التحاليل والأبحاث الجديدة والمهمة بالفعل قد اختزل للغاية ، وأصبح يأتي غالباً من باحثين غير متحزبين أو من مفكرين مثل جـ . لوكاتش وفارجا Varga الذين ينتهون إلي إنكار أبحاثهم الخاصة .

وأزمة العلوم الإجتماعية هذه ، التي بالرغم من طبيعتها المختلفة ، توجد مع ذلك في هذا الجانب وذاك من الحاجز ، خلقت وضعية متناقضة أكثر منها مؤسفة ، تبدو لنا جلية بوضوح في واقع أن حدثاً اجتماعيا كبير الأهمية كالفاشية ، لم يحلل بعد بجدية

، لا من طرف السوسيولوجيا الماركسية ، ولا من طرف السوسيولوجيين اللادياليكتيكيين وهذا وهذا ، رغم السنوات الإثني عشر من نظام الوطنيين الاشتراكيين في ألمانيا ، رغم الحرب ورغم الراهنية التي لازال يمثلها المشكل في أيامنا .

نتمني ، أن تكون التأملات السابقة ، قد أبرزت بشكل كاف الاختلاف بين المنهج في العلوم الفيزيائية – الكيميائية والمنهج في العلوم الاجتماعية والإنسانية . نضيف فقط أن هذين المجالين من البحث العلمي ، منظوراً إليهما تحت مظهر العلاقات الأكثر عمومية بين النظرية الفعل ، يتقاربان من جديد وذلك ، أنه إذا كانت العلوم الفيزيائية الكيميائية تستطيع أن تكون مستقلة عن كل حكم خاص للقيمة ، فلأن الاجماع المتعلق بضرورة تنمية سلطات الإنسان علي الطبيعة قد تحقق . فالوفاق بين أحكام القيمة ، علي هذا المستوي ، يعتبر واقعاً ، والوحدة بين الفكر والفعل تعتبر حقيقة بدورها ، وليس لها أن تناقش صراحة . فواضح بالنسبة للجميع ، أن العلوم الفيزيائية – الكيميائية والطبيعية ، حتي وإن كانت نزيهة تتيح الهيمنة علي العالم وتحويله .

وبالعكس ، في العلوم الإجتماعية ، فواقع أن مجموعات اجتماعية مهمة لها مصلحة في الحفاظ علي النظام القائم وفي إعاقة كل تحول اجتماعي ، يؤثر علي طبيعة الفكر التاريخي والاجتماعي نفسها . بمطالبتنا بعلوم اجتماعية متحررة من كل حكم جاهز ، بتأكيدنا بوعي وبوضوح علي الخاصية ألتاريخية و العابرة للنظام الاجتماعي الحالي ، بتعبيرنا علي الأمل في إخضاع الحياة الاجتماعية لوعي وفعل الإنسان ، وذلك بإعطاء هذا الأخير وسائل ثقافية لتحقيق القيم الإنسانية الكونية ، فإننا نحاول فقط أن نحقق ، في هذا المجال ، علاقة للمفكر مع مجموع الحياة الإجتماعية المتخلصة من كل التدخلات الأجنبية ، والموضوعية موضوعية تشبه تلك التي توجد مسبقاً ، وبشكل واقعي ، في مجال العلوم الطبيعية والتي لا يمكن أن نعينها إلا باسم واحد : وحدة الفكر والفعل .

فالتساؤل فيما إذا كان علي العلوم الاجتماعية أن تكون دياليكتيكية أم لا، هو ببساطة التساؤل فيما إذا كان باستطاعتها أن تفهم أو تحرف الواقع وتغلفه: إنه ، بالرغم من مظهره المختلف بل و ، المضاد في الظاهر ، نفس الصراع ، الذي قاده في القرن السابع عشر الفيزيائيون ضد المصالح الخاصة للقوي المرتبطة بالماضي وبالكنيسة ، الصراع ضد الأيديولوجيات الخاصة، من أجل معرفة حرة، موضوعية وإنسانية .

الفصل الثالث

القوانين البنيوية الكبرى

١ - الحتميـــة الإقتصـــادية
٢ - الوظيفة التاريخية للطبقات الاجتماعية
٣ - الـوعـــى المكـــن

إن معرفة الحياة التاريخية والاجتماعية ، هي امتلاك الوعي بالذات الفاعلة ، بالمجموعة الانسانية . والتشويه العلموي لا يبدأ فقط عندما نحاول تطبيق المناهج المستعارة من العلوم الفيزيائية – الكيميائية ، في دراسة هذه المجموعة ، إنه يوجد قبل ذلك في واقعة اعتبار هذه المجموعة موضوعا للدراسة . وتتفرع النتائج الاخري للعلموية ، بالضرورة تقريبا ، من هذا الخطأ الابيستيمولوجي الاساسي .

وهذا لا يعني مع ذلك ، وجوب التخلي في مجال العلوم الانسانية عن كل موضوعية ، ذلك أنه لا يوجد فقط علم صحيح ، بل يوجد أيضا وعي صحيح أو خاطيء ، ومجهود تحقيق التلاؤم مع الواقع L'adequatio Rei[١] و الدقة الفكرية In-tellectus علي المستوي السوسيولوجي والتاريخي ، يتطلب من الروح النقدية والصرامة ما تتطلبه العلوم الفيزيائية – الكيميائية . إن الشروط التي تتحقق فيها هذه الصرامة وهذه الروح النقدية هي مختلفة فقط ، خاصة فيما لا يمكن ان يمتلك في الوقت نفسه وعيا صحيحا وجزئيا ، وفي كون هيمنة مقولة الكلية هي التي تمتلك المبدأ العلمي في معرفة الحياة الاجتماعية [٢] . إن القاعدة الثانية في المنهج الديكارتي :

---

(١) بشرط أن لانؤول كلمة " Res " باعتبارها موضوعا أو" شيئا " ، بل اعتبارهاواقعا بالمعني الاوسع.

(٢) وهذا، من بين أشياء أخري، لأن امتلاك الوعي يغير بنفسه مسبقا، وليس فقط بواسطة تطبيقاته "التقنية" بنية المجتمع.

تقسيم كل واحدة من الصعوبات ...الي أكبرقدر من الاجزاء الممكنة ، واللازمة حتي تحل [هذه الصعوبات] بصورة أفضل ، هذه القاعدة المقبولة الي حد ما ، في الرياضيات وفي العلوم الانسانية حيث تقدم المعرفة لا ينطلق من البسيط الي المعقد ، ولكنه ينطلق من المجرد الي الملموس عن طريق تأرجح مستمر بين المجموع وأجزائه .

لقد تعرضنا فيما قبل ، في الفصل السابق ، للشروط الاساسية للفكر التاريخي ، لمشكل التحريفات الايديولوجية ، ولمشكل الوحدة بين الفكر والمظاهر الاخري للنشاط الانساني ، وسنحاول الآن ان نلخص في خطوط عامة وخطاطية ، ثلاثة عناصر كبري في بنية الحياة الاجتماعية . الاهمية الخاصة للحياة الاقتصادية ، الوظيفة التاريخية للطبقات الاجتماعية ، ومفهوم الوعي الممكن .

-١-

هناك فيما يبدو بعض الماركسيين الذين أكدوا الاهمية " الوحيدة " ، " الشاملة " للعوامل الاقتصادية او ، علي الأقل ، للعوامل المادية علي مجموع الحياة الاجتماعية . والحقيقة أننا ، لم نصادف ذلك قطعا ، ولكن يجب ان نضيف أيضا أننا بعيدون عن الادبيات الماركسية في مجموعها . فضمن من نعرف ، نجد أن أهم الكتاب الذين أعطوا أكبر الثقل للعوامل الاقتصادية والاجتماعية كـ : هـ . بيرين Pirenne وماكس فيبر ، مثلا ، كانوا في الغالب غرباء عن الماركسية ومعارضين لها . كما آن بعض الماركسيين " الميكانيكيين " مثل لافارغ Lafargue وبوخارين Boukharine قد قللوا ، دون شك ، من أهمية العوامل الفكرية ، ولكنهم كانوا في الحقيقة نادرين ، وبمجرد ظهور مؤلفاتهم ، كانت ردود الفعل ، ومن المعسكر الماركسي نفسه ، لا تتأخر (٢) . ونعرف ، بالمقابل ، عددا كبيرا من المؤلفات التي تصارع ماركسية خيالية، مؤكدة ، كل مرة ، ضد هذه الأخيرة علي أهمية العوامل الايديولوجية التي لم ينكرها قط اي مفكر جاد .

---

(٢) انظر العرض الذي ذكر لكتاب بوخارين ، والذي قدمه لوكاتش . لنسجل أيضا أن فقرة طويلة من الموجز المعروف لبليخانوف " القضايا الأساسية للماركسية قد خصصت لنقد العالمين اللذين يالغ الأول منهما في تقدير أهمية العوامل الاقتصادية ويالغ الثاني في تقدير أهمية صراع الطبقات : عن ايسبيناس والوتريلوس الاسبانين في باريس وزوريخ.

وضعية مفهومة بقدر ما هي متناقضة ، نسمح لأنفسنا أمامها بعدم الاستمرار في جدل عقيم وبالتعرض بسرعة للموضوع نفسه .

هل هناك في الحياة الإنسانية ، لا نقول أهمية " وحيدة " ، " حاسمة " ، الخ ... ، بل امتيازا معينا يرتبط بالعوامل الاقتصادية ؟ منطقيا : لا ، في الواقع وفي التاريخ كما يجري الي أيامنا هذه : نعم ، وهذا بالتحديد لأن الانسان الفرد وأيضا المجتمع يعتبران وقائع كلية لا نستطيع داخلها تجزيء طبقات متميزة . إن الانسان كائن حي وواع ، يوجد داخل عالم تكتنفه حقائق اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية الخ . وهو يخضع للتأثير الكلي لهذا العالم ، كما يؤثر فيه ، بدوره . وهذا ما نسميه علاقة دياليكتيكية . وبالتحديد ، فلأنه ليس هناك في وعي الفرد – سوي في استثناءات نادرة جدا – خانات محكمة تفلت من تأثيرات باقي شخصيته ، لأنه يشكل دائما وحدة متماسكة تقريبا [٤] . وهذا يكفي لتفسير وتأكيد تميز تأثير العوامل الاقتصادية في التاريخ الماضي والمعاصر . وذلك لان الناس لكي يحبوا ويفكروا ويعتقدوا ، يجب أن يعيشوا ويتغذوا ويلبسوا . ومجالات النشاط الانساني هذه يمكن ان يكون لها ، دون شك ، أقل التأثير علي الفكر والنشاطات الاخري ولكن بشرط أن يكون إرضاء الاحتياجات التي تطابقها مضمونا بشكل عام ، وأن يخصص لها الناس قسما محدودا نسبيا من نشاطهم الكلي . والحال أننا سواء تمتعنا بذلك أم لا ، فإن الاغلبية الكبيرة من الناس ، ليست قطعا هذه هي حالتها . ان الشعب والطبقات المضطهدة أو أعضاء المجتمعات البدائية عاشوا دائما في الحاجة ، مرغمين علي إعطاء العمل أكبر قسم من وقتهم و – في العالم المعاصر – عاشوا في اللا أمن وفي الخوف الدائم من المستقبل . هناك بدون شك استثناءات فردية ، ولكنها نادرة للغاية ، وحتي لو أدخلنا المعجزة في تفسير التاريخ ، فيجب أن نقبل أنه بالنسبة للاغلبية الكبيرة من النوع الانساني ، ظلت للنشاط الاقتصادي دائما اهمية رئيسية في طريقة الاحساس والتفكير . تبقي الطبقات المهيمنة : والحال أنها هي أيضا خصصت دائما قسما كبيرا من وقتها ومن نشاطها لتنظيم حياتها الاقتصادية والدفاع عن امتيازاتها . ومن جهة أخري ، فمن المسلم به ان غياب الهاجس الاقتصادي (خاصة

---

(٤) من المسلم به أن التماسك الكلي هو أيضا استثنائي كالغياب الكلي للتماسك . ولكن وجود

أ – بعض الافراد الذين يفوزون في اليانصيب الوطني و ،

ب – بعض الأفراد الذين يلعبون دائما دون أن يفوزوا ، لا يؤكد في شيء صلاحية اثبات أن أولئك الذين يلعبون باطراد في اليانصيب الوطني يفقدون قسما كبيرا من نقودهم

في عالم يعتبر فيه ذلك إمتيازا ويفرض فيه الغني ، نظرا لبؤس الجمهور ، سلطة فعالة علي الناس) يخلق ، ما عدا في بعض الاستثناءات ، نوعا من الحياة يؤثر بقوة علي أخلاق وأفكار أولئك الذين يوجدون في هذه الوضعية .

ويكفي أن نفكر علي سبيل المثال ، في نبالة البلاط تحت حكم لويس الرابع عشر ، وهي طبقة لا تساهم في إنتاج ترجع إليها عائداته ، جزء من الاراضي والامتيازات الفيودالية وجزء عن إنجاز وظائف وهمية الي هذا القدر او ذاك ، وجزء من هبات الملك والنفقات الملكية . فمن الطبيعي أن تتأثر طريقتها في التفكير بهذا النوع من الحياة حيث يهيمن الاستهلاك او يغيب العمل تقريبا . فنبالة البلاط ستكون عموما أبيقورية او صوفية أحيانا . وهذا يعني ان حياتها الأخلاقية ، المتجهة نحو المتع أو النافرة منها ، ستتنظم بالطبع وفقا لحياتها تلك ، [حيث يهيمن الاستهلاك] لا وفقا للعمل والواجب مثلا : ومن جهة اخري ، ففيما يخص العلاقة بين الجنسين ، ستكون أخلاق النبالة (التي يعبر عنها ، ضمن أشياء أخري ، في كوميديات موليير) أكثر تحررا وتقدما من أخلاق الطبقات الأخري ، حيث يشكل النشاط الاقتصادي للرجل وتصرفه الشامل في العائدات وفي الوسائل المادية ، سيادته وامتيازاته .

ففي البلاط حيث لا يعمل الرجال ولا النساء ، وحيث كانت المرأة في الغالب أكثر فعالية وأهمية من الرجل في الحصول علي الهبات الملكية ، وهبات الكبراء ، وما تضمه من امتيازات اجتماعية واقتصادية ، تخلق وضعية من السهل تصور تأثيراتها علي طريقة الحكم والتفكير في الحياة الزوجية وغير الزوجية .

هل هذه مادية تاريخية ؟ يمكن آن يعترض علينا بأن غياب النشاط الاقتصادي للنبالة ، هو بالضبط ، الذي يعتبر في الوصف الذي قدمناه ، العامل الحاسم في تفسير طريقة تفكيرها . ويبدو لنا مع ذلك آن هذا الاعتراض باعتباره موجها ضد المادية التاريخية ، غير مؤسس ، لأن مصطلح " اقتصادي " يجب ان يؤخذ في معناه الأكثر اتساعا : اي طريقة الحصول علي العائدات بواسطة العمل ، القوة ، الاستثمار ، التمتع ببعض الامتيازات ، الخ . إن بنية تحليلنا تعتبر ، علي العموم ، مطابقة لتأكيد ماركس الشهير في أن " الوجود الاجتماعي يحدد الوعي " وهو تأكيد نري من الضروري ان نعطي فيه للتعبير : " وجود إجتماعي " معناه الأكثر اتساعا ، بشرط ألا نجعله فضفاضا ، بطبيعة الحال ، وان نخصص له دائما بنية محددة ، مطابقة للواقع التاريخي وللمكان والعصر .

أما فيما يتعلق بالعوامل الايديولوجية الخالصة ، بالمعني الدقيق للكلمة ، فلا أحد ينكر بجد أهميتها . ففي الحالة التي أتينا علي ذكرها ، كان من الممكن ان توجه المصالح الاقتصادية النبالة الفرنسية نحو المساهمة في الحياة الاقتصادية كما وقع في انجلترا . وكل مجهودات ريشيليوا ، في هذا الصدد ، ظلت عقيمة ، واصطدمت بأفكار مسبقة لطبقة تعتقد ان اشتراكها في التجارة والصناعة يقلل من قيمتها . غير إذا تمكنت هذه الافكار المسبقة من الاستمرار بقوة وحيوية ، فلأن هذا يفسر ، بدوره ، فيما نعتقد بالخاصية الطويلة والعنيدة التي كانت للصراع الدنيوي بين عامة الشعب والنبالة في فرنسا ، وايضا بالسياسة الملكية التي ضمنت ابتداء ، من القرن السابع عشر ، امكانيات اقتصادية واسعة لوجود نبالة كانت أكثر فأكثر تزيينية و طفيلية .

مثال آخر مشهور يتعلق بالانتقال من العالم القديم الي العالم الفيودالي . فبالرغم من التعقيد الكبير لسيرورة تمتد عبر قرون متعددة ، فإن السوسيولوجي ، ينتهي علي الاقل ، الي استخلاص تحولين أساسيين :

أ – انتقال العمال الفلاحين من العبودية الي القنانة و

ب – تحول المزارعين المأجورين الي أقنان .

يرتبط التحول الاول أساسا ، بإضعاف القوة العسكرية الرومانية التي بخست مورد العبيد أي الأرض التي تغذي الاقتصاد العبودي ، هذه الواقعة فرضت علي الملاكين الرومانيين ، الذين لم يعد بامكانهم شراء عبيد بالغين ، من الاسواق ، بثمن جد منخفض ، تحرير عبيدهم ، أي إعطاءهم بعض الحقوق ، وإعطاءهم ، بالخصوص ، تعويضا خاصا ، مع الحرص علي ربطهم بالأرض . وخلفية هذا " التحرير " المحدود ، كانت إلي درجة كبيرة ، هي الرغبة في إعطاء العبيد إمكانية لتأسيس عائلة وإنجاب الابناء وتنشئتهم حتي يعوض نقص الأسواق . وهكذا تحولت العبودية إلي قنانة . وقد تمكنت الكنيسة من إقرار وتشجيع هذه الحركة ، وكان من الممكن أيضا أن تضمن لها وحدها قليلا من النجاح الذي لم تستطع ضمانه في الدول الجنوبية قبل الحرب الانفصالية (٥).

---

(٥) نضيف أنه خلف البنيه الفوقيه الايديولوجية لحرب الانفصال كان هناك أيضا إحتياج الدول الشمالية المصنعة لضمان يد عامله حرة وسوق داخلية .

ومع ذلك فالمزارع المأجور ، لم يكن بعد قد صار قناً ، فالاختلاف بين الاثنين ، يتركز خصوصا في وجود سلطة مركزية ، تنفيذية وتشريعية يجب أن يخضع لها الملاك . فما الذي دفع الي اختفاء السلطة المركزية ؟ إنه بالتأكيد إخفاق الاقتصاد النقدي والعودة الي الاقتصاد الطبيعي . إن دولة تعاني من نقص في النقود ، ويفرض عليها أن تطلب من موظفيها أن يحصلوا بأنفسهم علي أجورهم بالضبط في الوقت المناسب ، لن تستطيع أن تمنعهم من أن يتجندوا (يجب أن يكونوا مسلحين حتي يرغموا الفلاحين علي تأدية الإتاوة وعلي تنفيذ الاعمال الشاقة) ، ولن تستطيع منعهم من الاستقلال عن السلطة المركزية (فلنقص فى المال لا تستطيع هذه الأخيرة تعهد جيش خاص) ، ولن تستطيع منعهم من تركيز السلطتين التنفيذية والتشريعية في أيديهم وفي جعل نفقاتهم وراثية . فقط ما هي العوامل المحددة للانتقال من اقتصاد نقدي جزئيا الي اقتصاد طبيعي في القرن الثامن عشر ؟ فاذا صدق بيرين Pirenne ، يجب أن تسند أهمية خاصة للغزو العربي لإفريقيا الشمالية ولرفض الغزاة التساهل في تبادل المنتوجات بين المسلمين والمسيحيين في البحر الأبيض المتوسط . ها نحن إذن ، إذا بررت هذه الفرضية (هي علي الأقل محتملة وهذا يسمح بأخذها قاعدة لتحليل منهجي) نعود الي العوامل الايديولوجية . غير، أنه من المحتمل جدا ، أن بحثا أكثر تطورا حول دوافع وأسباب هذه العداوة الجذرية بين العرب والمسيحيين (والتي ستضعف بعد الحروب الصليبية) ، سيجد ، بدوره ، بعض العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي خلقتها هذه العداوة وغذتها طيلة أعوام طويلة . وأولئك الذين ألفوا التحاليل المادية الاساسية ، سيجدون في كل هذا خطاطة معروفة (٦) . هناك ، بدون شك ، فروقات شخصية عند كل مؤرخ ، ولكن المادية الدياليكتيكية في حقيقتها لم تنكر قطعا ، في الواقع ، تأثير العوامل الايديولوجية . لقد واجهت فقط كل محاولة لفصل هذه العوامل عن باقي الحياة الاجتماعية الملموسة ، وكل محاولة لإعطاء هذه العوامل تطورا مستقلا ومحايثا بالنسبة لما تعودنا علي تسميته بالبنيات التحتية .

هذا يصل بنا الي مشكلين يجب ان نلامسهما : أولا مشكل " التأثيرات " وثانيا مشكل " الاستقلال النسبي " للمجالات الفكرية المختلفة .

---

(٦) نفترض ان الفرضيات صحيحة ، وهو ما ليس له أهميه منطقية

١- من المفيد ، هنا أن نقول ، وللمرة الأخيرة ، أن التأثيرات كيفما كانت طبيعتها لا تفسر إلا القليل ، إن لم نقل لا تفسر شيئا ، في تاريخ الفكر ، وهذا بسبب حقيقتين واضحتين : الاختيار والتشويهات ، لنحدد :

ففي كل اللحظات التاريخية ، يجد كل كاتب أو مفكر ، وايضاً كل مجموعة اجتماعية ، حولهم عددا هاما من الافكار ، والمواقف الدينية والاخلاقية والسياسية ، الخ ... تشكل أكبر قدر ممكن من التأثيرات المحتملة ، والتي يختارون منها واحدا أوعددا صغيرا من الانساق ، التي يخضعون واقعيا لتأثيرها . فالمشكل الذي يطرح علي المؤرخ والسوسيولوجي ، ليس إذن هو معرفة ما إذا كان كانط قد خضع لتأثير هيوم ، وما إذا كان باسكال قد تلقي تأثير مونطين وديكارت ، او ما إذا كانت عامة الشعب في فرنسا ، قبل الثورة ، قد خضعت لتأثير المفكرين السياسيين الانجليز ، بل المشكل هو لماذا تلقوا بالضبط هذا التأثير ، وذلك في هذة الفترة المحدودة من تاريخهم وحياتهم

ومن جهة اخري ، فإن نشاط الذات الفردية و الاجتماعية ، لا يتحقق فقط عند اختيارها لفكر تجد فيه نفسها ، بل أيضا في التغيرات التي تفرضها هي عليه . فحين نتكلم عن تأثير أرسطو في الطوماوية ، او تأثير هيوم في كانط ، او مونطين في باسكال ، فإن ذلك لا يتعلق ، بالتقريب إطلاقا ، بأرسطو ، او بهيوم و مونطين حقيقيين و تاريخيين ، و بما كتبوه و رأوه ، و فكروا فيه ، في الواقع ، بل بفكر ارسطو ، و هيوم و مونطين ، كما قرأهم و فهمهم كل من القديس طوما ، و كانط و باسكال و هو شيء مختلف للغاية . لقد حللنا بأنفسنا حالة من هذا النوع حين وضحنا التغير العميق الذي أخضع له الكانطيون الجدد ، فكر كانط (و الذي سبق لكانط نفسه أن قاومه في تقريره ضد فيخته الذي [كان يعتقد أنه] ينتسب الي الفيلسوف) . فلا فيخته ، ولا الكانطيون الجدد أستطاعوا فهم هذا التقرير الذي كان ، مع ذلك ، واضحا ، و هو ما أكد بينهم ، الاسطورة المتحيزة في ان كانط كتبه دون أن يكون قد قرأ قط الكتابات الفيختية . (٧)

---

(٧) لقد آكد فيخته بنفسه ذلك ، في مرة أولي ، في رسالة منه الي جاكوبي . و قد أعاد ريكرت ذلك " بهذه المناسبة أريد أن ألاحظ أيضا أنني أوافق تماما ما قاله ميديكوس في موضوع تقدير كانط ضد الفيسونشافتلر في غشت ١٧٩٩ . فمن المؤكد تقريبا أن هذا الاخير لم يدرس قط فيخته بعمق .

فعندما كان له من العمر أربعا و سبعين سنة كتب الي تيفنرانك (٥ أبريل ١٧٩٨) بأنه " لا يعرف الآن الفيسونشافتلر إلا من خلال القرض الذي قدم في { مجله } Allgem. Litteraturung zeit ولا أحد يفترض أنه قرأه بعد ذلك . ف تقريره إذن ليس له اهمية علمية ، و يجب من وجهة نظر اساسية أن نأسف لأن التعبير عنه علانية ضد فيخية جاء بالتحديد في فترة صراع الحركة الالحادية . يمكن ، بدون شك ، ان نعتذر لهذا بكبر سن كانط ، و لكن اذا فضل ذلك الآن بعض الكانطيين مرة أخري ، مستندين علي هذا التقرير لتأكيد سلطة كانط ضد فيخته ، فيجب رفض ذلك بالشكل الاكثر حزما . " (ريكرت صراع الحركة الالحادية و الفلسفية الكانطية في Kritizismus ، مجموعة الدراسات الكانطية الحديدة ، نشرها FR- MYRHO ، برلين ١٩٢٥ ، طبعة Holf Heise . ص ٥٢) . و لقد سمعنا نحن أيضا ذلك في درس للاستاذ ميديكوس حول كانط .

إذن فداخل البنية الاقتصادية ، و الاجتماعية و النفسية للمجموعة التي تتلقي التأثير ، يجب أن نبحث عن الاسباب الاساسية لهذا الاخير ، حيث علي التحاليل المادية أيضا أن تفسر التأثيرات ، و ليس علي التأثيرات ان تعوض ، في التفسير ، فعل العوامل الاقتصادية و الاجتماعية . لنأخذ ، علي سبيل المثال ، لحظتين هامتين في تأثير الثقافة القديمة علي الفكر الغربي : تسرب الفكر الارسطي في القرن الثالث عشر، و النزعة الانسانية لعصر النهضة .

عادة ما نفسر التحول العميق للفلسفة المسيحية في القرن الثالث عشر ، و الانتقال من الاغوسطينية الي الطوماوية ، بترجمة و دخول كتابات ارسطو ، الي أوربا ، و بالتأثير الذي مارسته علي المفكرين المسيحيين . و يبدو لنا أن هذا التفسير غير كاف ، لأنه لا يقول لنا :

١- لماذا ترجمت هذه الكتابات بالضبط في هذه الفترة ، و لا

٢- لماذا اخذت هذه الكتابات أهمية معينة ، و بسرعة ، في الفلسفة المسيحية بالرغم من المقاومات الاولي .

وبالمقابل ، ستتوضح الامور خصوصا ، إذا أحلنا علي التحولات الاجتماعية العميقة التي خضعت لها أوربا في نهاية القرن الثاني عشر و بداية القرن الثالث عشر و التي كانت خطوطها الاساسية هي تطور المدن ، اي تطور قطاع ، محدود نسبيا ، من الاقتصاد النقدي ، و تطور لسلطة الملكية . لقد كانت الاغوسطينية فلسفة مكيفة تماما مع اقتصاد طبيعي حيث لا توجد سلطة مركزية ، و لا فصل جذري بين السلطتين الدنيوية والروحية . إن نمو المدن وتدعيم السلطة المركزية جعلا هذه الفلسفة غير ملائمة كليا للواقع المعيش ، وخلقا إحتياجا لفكر يخصص مكانا محدودا ولكن واقعيا للسلطة والحياة الدنيويتين وضمنيا للعقل . فنمو الملكية هو الذي خلق شروط إنتصار فلسفة أستاذ الإسكندر علي الفلسفة الأرستوقراطية للأفلاطونيه الاغوسطينيه[8] (وباندفاع مبالغ ، يمكن أن نقول أن الاغوسطينية هي فلسفة كانوصا Canssa ، وأن الطوماوية فتحت الطريق نحو أناني Agnani .

وأيضا بالنسبة للنزعة الإنسانية لعصر النهضة ، فالأهمية الكبيرة التي إحتلتها الثقافة اليونانية في الفكر الأوروبي الغربي ، تفسر بواقعة أن مجتمعا بورجوازيا نحو

---

(٨) تضيف ان المظهر الاكثر جذرية في الارسطية أي الرشدية ، يبدو أنه تطور بالتحديد في الاماكن التي كانت فيها التجارة أكثر تطورا - في Fadoue التي كانت جامعة فيزيا وفي الفلاندرات Flandres وليس قطعا من الصدفة أن يكون الاسمان الكبيران للراديكالية (الرشدية أو الحلولية) في كلية الفنون بباريس في القرن الثالث عشر هما سيجر دو برابون Siger de Brabant ودافيد دو ديانون David de Dianant .

الإنسان والأرض ، وليس نحو العالم الآخر ، قد تحرر من حضن المجتمع الفيودالي القديم ، ووجد في الأعمال والكتابات الإغريقية - اللاتينية القديمة ، ثقافة وفناً موجهين ، هما بدورهما ، نحو الأرض ، ونحو الإنسان بالخصوص . لقد وجد الإنسانيون في كتابات أفلاطون وشيشرون تطلعاتهم الخاصة وذهنيتهم الخاصة وتكلموا باليونانية واللاتينية في إنتظار أن يسمح لهم تطور المجتمع البرجوازي ، بقول نفس الشيء بلغتهم الوطنية . ومن جهة أخري ، فإذا كان العصر القديم قد إستمرت له طويلا أهمية وجودية في ألمانيا (يكفي أن نفكر في جوته ، هيغل ، هولدرلين ، نيتشه) ، فتحديدا لأن ضعف البورجوازية والتطور الضعيف للرأسمالية ، وغياب ثورة بورجوازية ، لم تسمح للمفكرين الألمان بترك العصر القديم ليتكلموا بلغتهم الخاصة كما فعل أيديولوجيو الشعب في فرنسا أو في إنجلترا . في نهاية القرن التاسع عشر ، أصبح العصر القديم في ألمانيا وفي كل مكان ، مجموعة من المعارف المدرسية والجامعية .

٢ - ليس من حقنا ونحن نتكلم عن العلاقات بين الأيديولوجيات والبنيات التحتية ، أن نمر بصمت علي الإستقلال النسبي للأولي .

من المسلم به أنه بمجرد ما تبرز العناصر الأساسية لرؤية ما علي المستويات الخاصة مثلا للقانون والدين أوالفن ، فإن رجال القانون ، وعلماء اللاهوت ورسامي ذلك العصر وفنانيه ، يسعون إلي بلورتها أكثر فأكثر في كل نتاجاتهم ، وإلي التعبير عنها في مجموعات متماسكة . وهناك أيضا ، بدون شك ، تأثير لرجال القانون علي القانون ، ولعلماء اللاهوت علي الفكر الديني ، وسيكون من العبث أن نضع في علاقة كل تفاصيل نظام قانوني معين مع البنيات التحتية أو المجالات الأيديولوجية الأخري . (٩) إن علاقة من هذا النوع توجد ، بدون شك ، بالنسبة لمحتوي المعايير الأساسية ، مثلا بالنسبة لمفهوم الملكية الخاصة في المجتمع الرأسمالي ، أو بالنسبة للأشكال الخاصة للملكية المشتركة بين القن والإقطاعي في المجتمع الفيودالي . ولكن بمجرد أن تتحقق هذه القواعد ، فإن القضاة ، والمشرعين ، ورجال القانون ، هم الذين يقررون ، علي أكبر نطاق أشكال تطبيقاتها الملموسة في آلاف الظروف الواقعية أو الممكنه المنصوص عليها بواسطة النصوص والأعراف . يجب علي المؤرخ ، وهذا مسلم به ، أن ينتقل ، في

(٩) بالرغم من أن علاقه من هذا النوع تكون ممكنة أحيانا . و لكنها بالتحديد حالة خاصة و ليست هي القاعدة العامة .

عمله ، بين رتبتي العوامل ، تنقل يتوقف علي الحالة الملموسة ولا يسمح بأية قاعدة عامة . وليس من الضروري أن نقول إن هذا يفيد في القانون كما يفيد في الفن وفي الدين والفلسفة وفي كل المظاهر الأخري للحياة الفكرية . نضيف ، أخيرا ، أنه بين التعبيرات المتماسكة في المجالات المختلفة ، التعبيرات التي توافق بعض حالات التوازن النسبي ، توجد غالبا أشكال للإنتقال ، لكي نفهمها ، يجب ، كما أننا نولي الإعتبار للإحتياج اللازم للتماسك في الأيديولوجية القديمة ، أن نولي الاعتبار أيضا للتأثير المعاكس للقوات الإجتماعية التي تكسر إطار هذا التماسك لتؤسس تدريجيا عناصر الرؤية الجديدة .

نرجو ، علي الأقل ، أن يكون هذا الطرح الذي نعرف أكثر من أي شخص آخر ، خاصيته الخطاطية ، مجديا في إبراز عدم كفاية تاريخ تجريبي وخارجي صرف ، وأيضا في عدم كفاية سوسيولوجيا شكلية ومجردة ، وأن يبرر الحاجة الملحة للتركيب بين الوقائع الفردية والسوسيولوجيا التفسيرية ، تركيب يستطيع وحده أن يقربنا من الفهم الحقيقي للوقائع الإنسانية .

-٢-

ليس قصدنا هنا هو تقديم عرض لمجموع المادية التاريخية ، وسوف لن نركز علي تحليل الخطاطة الشهيرة للعمل (التي لم تكن بالنسبة لأي كان عقيدة أو قانونا كونيا ، ولكن فقط تخطيطا للبنيه الأكثر ترددا) التي تتعلق بالتأثير المتبادل لمختلف مجالات الحياة الإجتماعية : وسائل الإنتاج ، علاقات الإنتاج ، الحياة السياسية والفكرية ، تطور قوي الإنتاج . سيجد القارىء لذلك مناقشة مستفيضة في كل المؤلفات الكلاسيكية والموجزات حول المادية التاريخية . وسنتوقف ، بالمقابل ، عند نقطتين تبدوان لنا خاصة مهمتين : مفهوم الطبقات الإجتماعية ، ومفهوم الوعي الممكن .

لقد تجنب الدوركايمون ، عموما ، مشكل الطبقات في أبحاثهم . والوحيد ، الذي تعرض له بينهم وهو هالفاش Halbwach ، أقتصر علي بعض المشاكل المتعلقة بالوعي

عند طبقة الفلاحين خصوصا ، وعند الطبقة العاملة ، وبين بالتحديد ، بذكائه المتميز ، الحدود الذاتية للمنهجية الدوركايمية .

يطرح الفصلان الأولان (الأكثر أهمية) من مؤلفه ، مشكل وعي الطبقة ، يريان بوضوح أن هذا الوعي مرتبط بدور أعضائها في الإنتاج . وقد وصل هالفاش أيضا إلي تحليل أكثر تطورا للإستلاب بل وصل إلي فكرة الوعي الممكن . ولكنه للأسف ، بعد هذه المقدمة النظرية الرائعة ، بحث ، كدوركايمي ، عن التمظهرات الخارجية والفعلية للوعي الطبقي ، وخصوصا ، عن التمظهرات العامة تقريبا (متخليا ، من جديد ، عن مفهوم الوعي الممكن الذي كان قد إنتبه إليه) . وقد أدي به هذا إلي التعرض لدراسة الطبقات الإجتماعية من جانب الإستهلاك ، وهو جانب مهم ، بدون شك ، ولكنه رغم كل شيء ، جانب خارجي ، جعل من دراسته مؤلفا هاما ولكن بعيدا عن مقاربة المظاهر الجوهرية لمشكل الطبقات الإجتماعية .

وقد برهن موجان Mougin في مقال رائع ، ولوإنه كان منوعا وحذرا ، علي أخطاء كل محاولة لدراسة الطبقات عبر الإستهلاك . فهذه الأخيرة [الدراسة] لاتسمح بتاتا باستخلاص السمات الخاصة للطبقات المختلفة التي تكون مجتمعا معينا ، كما لا تسمح باستخلاص سمات مصالح هذه الطبقات ، وبنايتها ، وعلاقاتها المتبادلة : فهي تستبدل التحديد الواضح نسبيا ، لعدد محدد من الطبقات ، بالإنتقالات الجد تفصيلية لمستويات العيش المتعددة التي تتموضع بين الفقر والغني . لنتذكر أيضا أنه توجد بين الإستهلاك عمال مدينة صغيرة ، واستهلاك مركز صناعي كبير ، إختلافات أكثر وضوحـــا من تلك التي يمكن أن توجد بين العمال والموظفين الصغار في مدينة واحدة ، خصوصا ، عندما يتعلق الأمر بالمقولات الكبري للإستهلاك (الغذاء ، السكن ، الملبس ، الخ .) .

وعلي أي حال ، فقد كان مؤلف هالفاش أحد الجهود الأكثر جدية في السوسيولوجيا الجامعية التي تعرضت لمشكل الطبقات الإجتماعية ، ويجب أن نعترف أن ، هالفاش قد بلغ ، خصوصا في الفصلين الأولين ، الفهم الأقصي الذي سمح له به منهجه . أما فيما بالسوسيولوجيا المعاصرة ، فنري أنها موزعة بين الميل الثلاثي إما إلي طمس التمييز بين الطبقات الإجتماعية ، ودراسة علاقاتها المتبادلة في طائفة لاتحصي من التميزات والتعارضات مع المجموعات الإجتماعيه الأخري ، وإما إلي

إنكار الدور التاريخي للطبقات [١٠] ، وإما إلي تعريف الطبقة الإجتماعية بواسطة عوامل خارجية صرفة تعيق كل فهم للظاهرة .

ففي حديثه عن " أنماط التجمع " لم يجد غورفيتش أي إمتياز أوميزه خاصة أو أهمية نوعية يمكن أن تسند للطبقات [١١] . فبالكاد ذكر ، وهو يمر بسرعة أن " تقسيم المجتمع إلي طبقات ، والصراع بين هذه الأخيرة ، وما ينتج عن ذلك من إنعكاسات أيديولوجية وسيكولوجية وثقافية وسياسية ، الخ ، أصبحت عند ماركس والماركسيين (التشديد منا) مفتاحا لتفسير كوني للحياة الإجتماعية الكلية ولكل الأحداث التاريخية[١٢]وغورفيتش نفسه يعارض ذلك . لقد كتب " أن المجتمعات الكلية المعاصرة تتكون من تعدد لانهائي تقريبا من التجمعات الخاصة : عائلات ، بلديات ، مجالس بلدية ، مقاطعات ، أقاليم ، دوائر شعبية ، دول ، ملل ، جمعيات ، فئات دينية ، أديرة ، كنائس الخوارنة ، كنائس ، نقابات العمال وأرباب المعامل مع إتحاداتهم وتحالفاتهم ، تعاونيات استهلاكية ، تعاونيات بيع ، تعاونيات إنتاج ، نقابات المبادرة ، صناديق الضمان الإجتماعي ، طبقات إجتماعية ، مهن ، منتجين ، مستهلكين ، مرتفقين ، أحزاب سياسية ، جمعيات عالمة ، جمعيات البر ، فرق رياضية وسياحية وهكذا إلي ما لا نهاية ... كل هذه المجموعات تتشابك وتتجاور ، تلتقي وتتعارض تنتظم وتبقي غير منظمة ، تشكل أحيانا مجموعات متكتلة ، وتتفرق أحيانا أخري . إن نسيج الحياة الإجتماعية تحت مظهر ماكروسوسيولوجي ليس أقل تعقيدا منه تحت مظهر ميكروسوسيولوجي ويبقي مخصصا بواسطة تعدديه معقدة " . [١٣]

أما فيما يخص " الخطاطة التضيفية العامة " للتجمعات ، يقترح علينا غورفيتش خطاطة مؤسسة علي " ١٥ معيارا للتميز تتشابك في معظمها " [١٤] و تبدو لنا جانبية بمجملها . سوف لن نقلق إذن ، اذا كان معظم السوسيولوجيين اللاماركسيين يعرفون ، انطلاقا من مواقع شبيهة او مماثلة ، الطبقات الاجتماعية بسمات تقنع اكثر مما

---

(١٠) لقد ذكرنا فيما قبل المثال النموذجي لمقال م . بروبول .

(١١) صحيح أنه ضمن الحمسة عشر معيارا التي يتبناها عورفيتش لتصنيف التجمعات ، يوجد واحد يمكن أن يبرز فيما يظهر الطبقات الاجتماعية . متموقعه بين " المجتمعات الكلية " و التجمعات واحدة الوظائف او متعددتها شكلت الطبقات بالنسبة الى تجمعات فوق وظيفية وللأسف فخارج كون هذا المعيار لا يغيرنا فى شىء حول الوظيفة الاجتماعية والتاريخية للطبقات " .

(١٢) ص ٢٧٥

(١٣) ص ٢٧٢ - ٢٧٣

(١٤) ص ٢٩٣ .

تجلي وظيفتها الاجتماعية و التاريخية. لنذكر ، علي سبيل المثال ، تعريفات سوروكان Sorokin وغورفيتش . إن الطبقات بالنسبة لسوروكان عبارة عن مجموعات :

١ – منفتحة علي كل شيء منطقيا لكنها ، في الواقع ، نصف مغلقة .

٢ – مؤسسة علي تضـامنات .

٣ – " عاديـة " .

٤ – في تعـارض مـع بعض المجموعات الأخري ، (طبقات إجتماعية) من نفس طبيعتها العامة × .

٥ – جزئية التنظيم ولكن بالخصوص شـبه منظـمة .

٦ – جـزئية الوعي وجزئية اللاوعـي بوحـدتها ووجـودهـا الخاصين .

٧ – من خصـائص المجتمع الغربي في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين .

٨– تشكل مجموعات متعددة الوظائف يجمعها رابطان موحدان وظيفيا : هما المهنة والوضعية مأخوذتان في معناهما الأوسع ، بواسطة رابط قائم علي التفريع والتقسيم الإجتماعيين ، أي بوجود مجموعة من القوانين والواجبات التي تتعارض جوهريا مع القوانين والواجبات الدقيقة الإختلاف لبعض المجموعات الأخري – الطبقات الإجتماعية – من نفس الطبيعة العامة (١٥).

يعتقد غورفيتش ان تحليل سوروكان هذا يعتبر " الأكثر تطورا " ضمن التحاليل التي كتبت مؤخرا لتوضيح " مفهوم الطبقة الاجتماعية " ، ويري ، مع ذلك ، أنه بالرغم

---

(١٥) ب . سوروكان ، ماهي الطبقة الاجتماعية ، دفاتر Inter السوسيولوجية ج ٢ ١٩٤٧، ص ٧٨ بعد تقديمه لهذا التعريف ، علق سوروكان علي النقط الثمانية المذكورة واحدة فأخري . وتعليقه علي النقطة الثالثة خاصة كان ممتعا " إن تداخل مختلف هذه العلاقات هو بالنسبة لكل طبقة " طبيعي " أو عادي ، فهناك نوع من الفقر يرافق طبيعيا " العمل اليدوي (المؤهل وغير المؤهل) ، وهناك ايضا حرمان نسبي من الامتيازات (في الواقع وفي العمل) ، إن درجة معينة من الغني ووضعا متميزا (في الواقع وفي الفعل يتساويان أحيانا مع العمل الفكري الخلاق " ص ٧٩ . إذا كانت " طبيعي " بالنسبة لسوروكان تقريرا فعليا فإن من البلادة خاصة الاعتقاد أن المثقفين الخلاقين يتمتعون بدرجة معينة من الغني وبوضع اعتباري متميز (في الواقع وفي الفعل) بل إن التاريخ يخبر بعكس ذلك ، أما إذا كانت بالمقابل ، نقصا فمن المفيد أن نعرف أن فقرا معينا " يعتبر " طبيعيا " بالنسبة للعمل اليدوي .

من أنه " يشكل خطوة الي الأمام " ، فإنه أكثر روحانية من أن يضبط الطبقة باعتبارها " ظاهرة اجتماعية كلية " ، ويقترح علينا تحليلا آخر مؤسسا ليس علي ثمانية معايير ، وإنما علي أحد عشر معيارا ، أي : " إن الطبقة الإجتماعية بالنسبة لنا عبارة عن تجمع :

١- فوق وظيفي .

٢- كثير العدد .

٣- دائم .

٤- مبتعد.

٥- عملي .

٦- منفتح .

٧- غير منظم لكنه (باستثناء حالة تكونه) مبنيين .

٨- قابل للتقسيم .

٩- صامد بطبيعنه للتدخل الكلي (باستثناء الحالة التي يكون فيها في السلطة .

١٠- غير متجانس اجتماعيا مع الطبقات الأخري .

١١- لايهيء لأعضائه إلا الواجب المشروط " . (١٦)

من الواضح أن النزعة الروحية لسوروكان ، وفوق - نسبوية غورفيتش قد وصلتا الي التقليص من دور الطبقات في الحياة الاجتماعية وفي التاريخ .

ومع ذلك فالمقارنة بين التعريفين ذات ميزة خاصة . فبصعيده لعدد معايير سوروكان من ٨ إلي ١١ (١٧) ، ألغي غورفيتش فقط ، المعيارين الوحيدين المهمين حقا واللذين وإن عبر عنهما سوروكان في تعريفه ، يوجدان بشكل غير دقيق وعائم ضمن المعايير الأخري تحت رقم ٨ و ٦ . الوضعية الجماعية في الإنتاج (وقد كتب سوروكان خاطئا المهنة) والوعي الطبقي (الواقعي أو الممكن ، وهو تمييز غير موجود عند سوروكان) .

هالفاش ، سوروكان ، غورفيتش ، كلما تقدمنا في الزمن ، كلما تسللت الايديولوجيا الي التعريف ، وغلفت ، بشكل مسبق ، الواقع . لقد كانت الوظيفة داخل الانتاج والوظيفة داخل الوعي بالنسبة لهالفاش هما العنصران الاساسيان لفهم طبقة إجتماعية . أما عند

---

(١٦) ج . غورفيتش ، الاتجاه الحالي للسوسيولوجيا (PUF) ص ٢٤٥ .

(١٧) من المسلم به أننا هنا نقارن فقط النظريتين ، دون أن نرغب في تأكيد أن هناك تأثيرا لسوروكان على غورفتش.

سوروكان فقد إختلطا بخصائص أخري خارجية وأكثر من ذلك غير موجودة (كالخاصية السابعة) أما عند غورفيتش فقد ألغيا تماما وعوضا ب ١١ سمة جانبية والتقدم لا يحتاج الي تعليق .

منتمين للمادية التاريخية ، نحن نري ، في وجود الطبقات الاجتماعية وفي بنية علاقاتها (صراع ، توازن ، تعاون تبعا للبلد وللفترة التاريخية) الظاهرة المفتاح لفهم الواقع الاجتماعي الماضي والحاضر ، وهذا ليس لأسباب وثوقية إيمانية أو لأفكار قبلية ، ولكن فقط لأن عملنا الخاص في البحث بالاضافة إلي الدراسات التي تمكنا من الاطلاع عليها ، أوضحا لنا بمجملهما تقريبا الاهمية الإستثنائية لهذه المجموعة الاجتماعية بالمقارنة مع كل المجموعات الأخري .

وإذا كان مشكل وضع تعريف للطبقة الاجتماعية معقدا وصعبا للغاية ، فمن الواضح علي الأقل أن تعريفا كهذا سوف لن تكون له منفعة ، إلا في الحد الذي يسهم فيه في تفسير هذه الاهمية التي يجب أن تجد أساسها في بنية الحياة الاجتماعية نفسها . إن هذا مطلب لم تملأه لا التعاريف المذكورة ، ولا معظم التعاريف الاخري التي نجدها في السوسيولوجيا المعاصرة .

لقد أوضحت الدراسات المادية أننا لكي نعرف الطبقة الاجتماعية ، يجب أن نولي الاعتبار ، في كل الحالات ، لعاملين يتوقف أحدهما علي الآخر دون أن يتماثلا تماما : الوظيفة داخل الانتاج والعلاقات الاجتماعية مع الطبقات الأخري . ودون أن نريد قطع النقاش الطويل الذي يرتبط بهذا المشكل ، وأقل من ذلك أيضا ، دون أن نريد إعطاء تعريف شامل ، نسمح لأنفسنا أن نسجل هنا عنصرا ثالثا يرتبط بدوره في قسم كبير بالعنصرين الآخرين ، ولكنه ، فيما يبدو لنا ، يلقي ضوءا خاصا ، ومن خلال تعبيره فحسب ، علي أهمية الطبقات في حياة المجتمع .

إنه عامل برز تجريبيا من خلال أبحاثنا الخاصة حول سوسيولوجيا الفكر . فمنذ نهاية العصر القديم والي أيامنا هذه (١٨) ، والطبقات الإجتماعية تشكل البنيات التحتية لرؤيات العالم .

---

(١٨) عينا لفرضيتنا هذا الحد فقط ، لأننا لم ندرس قط العصر القديم بطريقة كافية لكى نتمكن من معرفة إن كان الوضع فى المجتمعات القديمة ، من وجهه النظر هذه ، مماثلا أم مختلفا.

لنحدد ، بتقديم قليل من الطروحات التي ستلي في هذا الفصل . هذا يعني :

أ – انه كلما تعلق الامر بإيجاد البنية التحتية لفلسفة أو لتيار أدبي أو فني ، فاننا ستتوصل لا إلي جيل أو أمة أو كنيسة أو مهنة أو أي مجموعة أخري ، بل الي طبقة اجتماعية وعلاقاتها مع المجتمع .

ب – إن الوعي الممكن الاقصي لطبقة إجتماعية يشكل دائما رؤية للعالم متماسكة سيكولوجيا وتستطيع أن تعبر عن نفسها علي المستوي الديني والفلسفي والادبي والفني .(١٩)

إن استخلاصا كهذا ، يمكن ، بدون شك ، أن يكون مجرد صدفة ، ما دام لم يفسر ويبرهن عليه تجريبيا بطريقة عامة تقريبا . إننا لازلنا بعيدين عن ذلك . ومع هذا ، لنلاحظ أن الطبقات هي المجموعات الوحيدة التي تختص بها سلالم القيمة ، لأن كل واحدة منها تتصور مثالا مختلفا للتنظيم الاجتماعي للمجموع ، بحيث حتي التحالفات بين الطبقات لا يمكن أن تكون إلا وسيلة عابرة ومؤقته لبلوغ أهداف مختلفة جوهريا . فمثلا ، يمكن للطبقات أن تتفق مؤقتا علي مستوي الحياة السياسية ، حتي تتمكن من مواجهة خصم مشترك ، ومع ذلك فكل واحدة منها تتصور مثالا آخر للإنسان والتنظيم الاجتماعي .

نضيف علي سبيل الإفتراض أنه بالإمكان أن نؤسس بالتحديد تميزا بين الايديولوجيات والرؤيات للعالم ، في الخاصية الجزئية ، والمشوهة نتيجة لذلك ، للأولي ، وفي الخاصية الكلية للأخري ؛ وهذا يسمح ، في مجتمع العصور الوسطي وفي المجتمع الحالي ، بربط الرؤيات للعالم بالطبقات الاجتماعية ما دامت تمتلك الي الآن مثالا ينصب حول مجموع الجماعة الانسانية ، وما دامت ايديولوجيات كل المجموعات والطبقات الاجتماعية الاخري تتجه نحو الزوال ، لأنها لم تعد تفعل شيئا سوي الدفاع ، دون ايمان كبيرا وثقة ، عن الامتيازات والاوضاع المكتسبة .

---

(١٩) من المسلم به أنه ، توجد بين الطبقات أيضا ، ظراهر انتقال تنعكس علي المسنوي الايديولوجي انظر مثلا التحاليل الشهيرة لِلينين حول الارستوقراطية العمالية و علاقاتها مع الايديولوجيا الاصلاحية ، و لكن بما أن الارستوقراطية العمالية ليست طبقة بالتحديد ، فإن النزعة الاصلاحية ، بالرغم من أهميتها كظاهرة ايديولوجية ، ليست رؤية للعالم . هناك بالطبع سياسة و سوسيولوجيا اصلاحيات ، ولكن ليس هناك أخلاقية او استتيقا او ابيستيمولوجيا إصلاحية.

أما فيما يتعلق بالاثبات التجريبي لاطروحتنا ، فإنه بالطبع قضية أبحاث واضحة تتجاوز إطار هذا الكتيب الصغير . ولكننا نسجل ، مع ذلك ، مادام سوروكان قد أكد أن الطبقات الاجتماعية خاصة بالمجتمع الاوروبي إبتداء من القرن الثامن عشر فقط ، النتيجة الخطاطية لبعض أعمال بينيشو Benichou ولبعض أعمالنا الخاصة حول الحياة الفكرية في فرنسا في القرن السابع عشر . يبدو لنا في البداية أنه إذا كان القرن السابع عشر يمثل في نفس الوقت أوج السلطة الملكية وأحد قمم الابداع الادبي والفلسفي في فرنسا ، فلأن الحدثين ، يجدان تفسيرهما في التوازن الواقعي بين الطبقات الاجتماعية ، توازن أتاح من جهة ، حرية كبيرة للتحرك بالنسبة للسلطة الملكية، و خفض من جهة اخري ، الانشغالات بتغيير سريع لمجتمع غير مستقر ، متيحا بذلك تعبيرا نظريا و أدبيا خالصا عن رؤيات العالم عند مختلف الطبقات الاجتماعية . فلأن الانشغالات العملية كانت بعيدة ، و لأن المجتمع كان توازنا واقعيا لمختلف الطبقات الاجتماعية و التي كان لكل منها مؤقتا مكانه المحدد في المجتمع بالرغم من تعارضها ، لكل ذلك كانت الرؤيات للعالم أكثر من أي وقت مضي " رؤيات " بالمعني الخاص للكلمة ؛ ولأن الطبقات لم تكن قد أحست بعد بالالحاح الموضوعي للتحرك ، فإن هذه الرؤيات عبر عنها بتدقيق مماثل علي مستويات الفكر والخيال .

لنحاول أن نقدم خطاطيا الروابط القائمة بين مختلف الطبقات والرؤيات للعالم التي تطابقها ، وبين التعبيرات الاساسية عنها علي المستوي الفلسفي والأدبي . لقد تطورت الملكية الفرنسية طيلة قرون انطلاقا من تحالف فعلي (بالرغم من أنه لم يكن دائما حراً وإراديا) بين عامة الشعب والملك اللذان كانا يتصارعان معا ضد النبالة الفيودالية . خطاطيا يمكن ان نقول ، إن الشعب في هذا التحالف ، كان يمد الملك بالمال الذي يضمن له تعهد جيش لمحاربة الاقطاعيين . هذه الوضعية أو غيرها ، جعلت من بيع المناصب معيارا غريبا للانتقاء في اختيار الموظفين . (هذه المناصب) لايستطيعها ولايريد شراءها إلا أولئك الذين يمتلكون المال وهم أعضاء الشعب المغتنين الأوفياء للملك والمعادين للإقطاعيين تبعا للمصالح الطبقية ، إلا أنه كما سنري بعد قليل ، سيختفي هذا التوافق بين الملكية وموظفيها ذوي الأصل الشعبي – رجال الرداء - في اليوم الذي سينتهي فيه التحالف بين الملكية وعامة الشعب ، تحت حكم لويس الرابع عشر ، من مونطين الي باسكال ، كان تطور نبالة الرداء هاما ، ومنطق بور رويال

سيؤاخذ الاول علي كونه " تخوف من أن " تحط منه قليلا " وظيفة المستشار البرلماني لانه " إهتم عبثا بأن ينبهنا في موضعين من كتابه بأنه كان يمتلك غلاما كان في السابق ظابطا أقل نفعا بكثير ، في منزل أحد النبلاء بأجر قدره ٦٠٠٠ ليرة ، ولم يكن له نفس الإهتمام ليقول لنا بأنه كان له أيضا رجل دين كان مستشارا برلمانيا في بوردو [٢٠].

لقد حدثت خلال طفولة لويس الرابع عشر ، انتفاضة سجلت منعطفا في تاريخ فرنسا : لا فروند La fronde . وقد تمكنت هذه الإنتفاضة من أن تبدو في لحظة معينه ، خطيرة لأنهانتجت عن الاتفاق المؤقت بين آخر قوي الماضي : ثورة الامراء ، وأول تحرك للقوي الثورية الكبري للمستقبل : ثورة عامة الشعب . ويجب أن نضيف الي هذين العاملين تحرك البرلمان أي تحرك رجال الرداء الذين كانوا يتوهمون أن بامكانهم ترأس الانتفاضة ولعب دور الحكم بين عامة الشعب والأمراء . غير أن الخطر لم يكن مع ذلك فعليا ، لأن التحالف كان أكثر تنافرا . وسرعان ما ستجد الملكية نفسها ، بسبب هذه التعارضات بالتحديد ، هي العامل الحاسم في الميزان ، وبذلك ، أكثر قوة من أي وقت مضي . إلا أن وضعيتها ومعها سياستها ستتغيران . فلم تعد حليفة لطبقة ضد أخري ، ولكنها أصبحت – لوقت قصير - قوة خارجية تتموقع خارج هذه الطبقات وفوقها . وسيعبر عن هذا ، من بين اشياء أخري ، في واقعة خارجية : تغيير الاقامة الملكية . فلم يكن ملك عامة الشعب يجد مكانا أكثر أمنا من مدينته المفضلة باريس ، ولكن لافروند أفهمته أن التحالف الفعلي انتهي ، لهذا سيذهب لويس الرابع عشر ، ملك الشمس ليسكن فيرساي التي تقع ، بنفس المسافة ، بين المدن الشعبية وحقول الاقطاعيين . ويجب أن نقول أيضا ، ولآخر مرة ، أن إبداع بلاط فيرساي ببذخه ومراسيمه ، لم يكن مجرد واقعة ثقافية أو مجرد نزوة للويس الرابع عشر ؛ إنه قبل كل شيء قياس سياسي لعبقرية مماثلة لعبقرية بيع المناصب . فهذه سمحت بتكوين إطار من الموظفين المنتسبين لعامة الشعب ، وتلك أتاحت ، إبعاد الاقطاعيين عن أراضيهم ، حيث يمكن أن يصبحوا مرة أخري بؤر معارضة ، وسعت الي ربطهم بواسطة امتيازات مالية واسعة ، بشخص الملك وبمصالح الملكية ، مسرعة بذلك الي تحويل نبالة السيف الي نبالة للبلاط .

---

(٢٠) " المنطق او فن التفكير " الجزء الثالث ، فصل ٢٩.

هكذا نلاحظ أن فرنسا تحت حكم لويس الرابع عشر عرفت علي الأقل خمسا من الطبقات التي تعبر عن نفسها علي المستوي الفلسفي والأدبي وهي كالتالي : كبار الاقطاعيين ، نبالة البلاط ، رجال الرداء ، أعضاء الشعب الميسورين ، صغار الشعب من الحرفيين والفلاحين .

إن كبار الإقطاعيين ، الدوقات ، الذين أحسوا أكثر من باقي النبالة بالتحول الحاصل ، وذلك بالضبط لأن السلطة الحقيقية التي كانت لأسلافهم والتي فقدوها هم ، كانت أكثر أهمية ، لم يكونوا مطمئنين ولا مصالحين للمجتمع البورجوازي الذي كان في طور التكوين . إنه يبدو لهم كعالم للانانية والطموحات الحقيرة . هذا الاقتراب للواقعي الملموس الذي اخترقهم ، وهذا اللاتناسق لنعم Oui فلاسفة القرن الثامن عشر الذين سيكونون أكثر قربا من واقع اجتماعي يصارعون لأجل تغييره بسرعة ، هو الذي منع كبار اقطاعيي القرن السابع عشر ، كما سيمنع كتاب عامة الشعب في القرن الثامن عشر ، من التعبير عن أنفسهم عن طريق خلق عالم تصوري أوخيالي . لقد كان الواقع أكثر قربا وكان بالنسبة للإقطاعيين ، حتي يتمكنوا من ضبطه خارج المعطي المباشر الحركي والنفسي ، شديد النقص وبالغ القوة في نفس الوقت . إنها الخلفية الاجتماعية لمذكرات دوق سان سيمون أو أمثال دوق الدوشفوكو .

لقد سبق وحللنا وضعية نبالة البلاط . حياة المتع المستمرة والاخلاق الجنسية الأكثر تحررا من كل الطبقات الأخري ، ومساواة الرجل بالمرأة وقبول المجتمع الملكي حيث لكل طبقة مكانها شريطة أن تحافظ النبالة علي مكانتها التي تبدو لها مهيمنة . لقد تم التعبير عن أبيقورية هذه الطبقة علي المستوي الفلسفي في عمل غاسندي Gassendi ، وعن مجموع رؤيتها علي المستوي الأدبي في كتابات موليير (٢١) . لنسجل أهمها : البخيل وهي أهجية للبورجوازي الذي يبدو عيبه الاساسي في منظور نبالة البلاط ، هو جمع المال وجعله هدفا في ذاته عوض إنفاقه . تارتوف ، وهي أهجية للخوري الذي يتدخل بمتطلباته المسيحية ، في حياة غير المتدينين ، والذي يعتبر بالنسبة لرجال البلاط منافقا خطيرا ومنتفعا . كاره البشر Le misantrhope وهي الجانسينية من منظور رجال البلاط . الزهد ، والبحث عن المطلق عند الجانسينيين ، وانعزالهم في " صحراء " بور رويال الحقول ، وهي خصائص يمكن أن تكون جميلة وعظيمة ، ولكنها في كل الحالات

(٢١) انظر في موضوع كوميديات موليير ب – بينشو اخلاقيات القرن الكبير.

متجاوزة للحد ومحرومة من الفطرة ، أي من فهم الحياة الواقعية بمتطلباتها . دون جوان الكوميديا الرابعة المميزة ، وهي أهجية لبعض الرؤوس المجنونة التي ترفع ، في البلاط ، الالحادية والابيقورية الي مذهب واضح وعدواني . زد علي هذا أننا نحس في هذه المسرحية (أنظر مثلا المشهد الذي ينقذ فيه دون جوان حياة دون كارلوس ، و ينكشف لإخوة إليفر الذين يبحثون عنه للانتقام لشرفهم) أن موقف موليير تجاه بطله ، يختلف جوهريا عن الموقف الذي كان له تجاه هارباجون Harpagon و تارتوف و ألسيست Alceste ، نلاحظ ايضا البساطة التي يمكن أن ندرج بها ضمن هذا المنظور المسرحيات الاخري لموليير : أمفيرتريون ، مدرسة النساء ، مدرسة الأزواج ، البورجوازي النبيل) جورج داندان ، الخ .

نضيف أيضا ان هذا التحليل يلقي بعض الضوء علي البنية التحتية الاجتماعية للظميرية Casuistique في فرنسا خلال القرن السابع عشر . فهناك احتمال قليل في أن اليسوعيين كانوا هم أنفسهم فاسقين . فلماذا إذن تبنوا الظميرية و هي أقل مسيحية لدرجة أن باسكال هاجمها في القرويات ؟ Provinciales هل سنتقدم كثيرا اذا افترضنا أنها الوسيلة الوحيدة للحفاظ علي تأثيرهم علي اقطاعيي البلاط ؟ فأمام عدم تمكنهم من تغيير حياتهم و ذهنيتهم و هما نتيجتان لشروطهم الوجودية ، لم يبق لهم ، إذا أرادوا الحفاظ علي تماسكهم ، إلا تكييف حرفية الوصايا المسيحية ، لفكرهم ولطريقة عيشهم .

الي جانب إقطاعيي البلاط ، ترتسم طبقة أخري : رجال الرداء ، ولأنهم أصبحوا نبلاء في معظمهم ؛ سنسميهم نبالة الرداء . من أصل شعبي ، ويشغلون ، مثل نبالة البلاط ، وظائف اجتماعية حقيقية ، فانهم ينظرون الي هذه الأخيرة باحتقار ممزوج بالرغبة في بذخها وفي وضعيتها الاجتماعيةالامتيازية انهم لم يعيشوا فقط في باريس ، وانما عاشوا بالخصوص في المقاطعات ، واختلطوا في حياتهم اليومية ومشاغلهم بعامة الشعب ، ولأن النزعة العقلانية للبورجوازية تقترب غالبا من الأوائل ، فقد مارست علي الأواخر إغراء لا يناقش (سيصبح بعض منهم رياضيين مشهورين) ، ولكن من جهة أخري كانت وظيفتهم العنصر الاكثر بروزا في قوتهم ، لقد كانوا أكثر إنشدادا إلي الدولة الملكية لكي يتمكنوا من قبول العقلانية حتي نتائجها الأخيرة . وهكذا ، ففي هذه الطبقة ستتطور ، في فرنسا ، الرؤية التراجيدية التي يبدو الإنسان من خلالها ممزقا

بين مطلبين متناقضين لا يسمح العالم بتصالحهما ؛إنها الفكرة المركزية لافكار باسكال ، ولتراجيديات راسين . إن الانسان كبير وصغير . كبير بوعيه ، بطلبه للكلية والمطلق ، وصغير لأن قواة غير كافية لتحقيق هذا المطلب إنه " قصة " ولكنها " قصة مفكرة " إن السمو الانساني الوحيد هو رقص الوفاق ، وضمنيا رفض العالم والرهان علي وجود إله وديمومة ليسا قطعا يقينيين . Deus abscnditus الإله الخفي الذي يناديه باسكال أمام عدم كفاية أناس بور رويال ، انفسهم " إن بور رويال تخاف ... Adtüum domine jesus tribunal appelle .

غني عن البيان أن نضيف أن الجهاز العضوي الديني الذي يعبر عن النتائج المتطرفة لهذه الايديولوجيا كان هو بور رويال الذي يفسر اضطهاده العنيف ، من بين أشياء أخري ، بالنزق المتطرف للدولة الملكية أمام أيديولوجية أوشكت أن تؤثر علي موظفيها وأن تفصلهم عنها .

أما الطبقة الصاعدة ، من أعضاء الشعب الميسورين الذين يحاولون أن يربحوا ، أكثر فأكثر ، القوة الحقيقية ، ويتعارضون جذريا مع النبالة ، فهم بطبيعة الحال متفائلين وفردانيين وخصوصا عقلانيين ، إن الفرد وعقله وإرادته ومجده يشكلون القيم الرفيعة لهذه الطبقة . ويتم التعبير عن ذهنيتها في عمل ديكارت وكورناي ، أما الجهاز العضوي الديني الذي يطابقها ، جزئيا ، فهو L'oratoir (نقول جزئيا فقط ، لأن هناك داخل هذا L'oratoir التيار الصوفي لبيرول B'erulle وكوندرني Condren ، الخ . الذي كان من طبيعة أرستوقراطية ويشكل مكملا طبيعيا لابيقورية نبالة البلاط) .

وأخيرا هناك صغار الشعب الذين يتكلمون عبر خرافات لافونتين ، وهذه الأخيرة هي أكثر من أن نحصيها هنا ، لكن كل واحدة منها كتبت من منظور صغار الناس : الفلاحين ، الحمار ، الخروف ، الفأر ، الخيل ، الخ . لم يعد الإنسان في خرافات لافونتين القصبة التي تفكر ، بل " أصبح القصبة التي تنثني ولا تنكسر " في خرافة السنديانة والقصبة .

هذه الخطاطة التي سنطورها فيما بعد ، والتي تبدو لنا ، مع ذلك ، قد تكلمت مسبقا ، في خطوطها العامة ، توضح الاهمية الاساسية التي تمثلها الطبقات الاجتماعية في فرنسا خلال القرن السابع عشر بالنسبة لفهم الحياة الادبية والفكرية .

وبالطبع علي الابحاث الملموسة أن تبين بتفصيل صحتها ، وأن تري الي أي حد يمكن لتفسيرات مماثلة تكون مقبولة في عصور وبلدان مختلفة .

في نهاية هذه الفترة نضيف فقط ملاحظة . نعتقد أن الطبقة الاجتماعية تتعرف بـ :
أ - الوظيفة داخل الإنتاج ؛
ب - العلاقات مع أعضاء الطبقات الاخري .
جـ - الوعي الممكن الذي هو رؤية للعالم .

ومع ذلك ففي البحث الملموس ، هناك دائما واحد أو اثنين من هذه العوامل ، يتمكن من إدراكها بيسر ، ومن إستيعابها منذ البداية بسهولة كبيرة . ففي الحالة المحللة مثلا ، سيكون من الصعب أن نقرر انطلاقا من عوامل البنية التحتية فقط ، إن كانت نبالة الرداء تشكل أم لا طبقة إجتماعية . إن وجود فكر خاص وجد تعبيره الاكثر جذرية في الجانسينية ، وخاصة في أفكار باسكال وفي عمل راسين هو الذي دفعنا نهائيا الي تقرير ذلك بجواب ايجابي . ومن جهة أخري ، فإن غياب رؤية خاصة مماثلة في القرن السادس عشر هو الذي جعلنا نتردد في أن نجعل من رجال الرداء طبقة اجتماعية منذ تلك الفترة .

وبالمقابل ، فاذا قلنا إن خرافات لا فونتين تعبر عن رؤية صغار الناس من فلاحين وحرفيين ، فإن تحليل البنية التحتية يبين أن هذه المجموعة تنقسم علي الأقل الي طبقتين مختلفتين علي الاقل : الفلاحون وحرفيو المدن اللذان يمتزجان أيضا علي المستوي الايديولوجي (نعرف منذ هيغل وماركس وبياجي بالنسبة للأفراد ، كما بالنسبة للمجموعات أن امتلاك الوعي لا يأتي عادة إلا بعد الفعل) .

هنا ، كما في كل مكان ، ليست هناك بالنسبة للبحث ، أية قاعدة عامة وكلية إن لم تكن علي التكيف دائما مع الواقع الملموس للموضوع المدروس .

-٣-

نأتي الآن إلي الفقرة الأكثر أهمية ، ولكن الأكثر خطورة أيضا في هذا البحث ، وهي تلك التي تعالج الوعي الممكن .

إن أنصار المناهج الوصفية والوضعية – في أحسن حالاتهم ، أي حين لا يرتبطون فقط بالمؤسسات والسلوكات الخارجية – يقبلون الوعي فقط باعتباره وعيا واقعيا ، يحضر حاليا . فاذا التزموا مسبقا . بمعرفة واقع غير فيزيقي ، فانهم يطلبون أن تكون له علي الاقل ، الخصائص الاساسية للعالم المادي . إنه مجال مختلف ولكن مماثل نقرر إضافته إذن الي العلوم الفيزيائية – الكيميائية

ومع ذلك ، يبدو لنا ، أن هذا الالتزام غير كاف وأنه يجب أن نقبل بوجود اختلاف نوعي بين هذين المجالين من المعرفة الانسانية . فاذا كان الانسان ليس آلة ولكن كائنا حيا و واعيا ، وإذا وجب أن نقبل في الكون بوجود ثلاث طرق للكينونة تختلف نوعيا ، الطريقة الجامدة ، الحي و الواعي ، فيجب أيضا أن تكون هناك إختلافات نوعية بين المناهج الخاصة للعلوم الفيزيائية – الكيميائية ، والبيولوجية و مناهج العلوم الانسانية . ومن المسلم به أن اختلافا نوعيا لا يتضمن اختلافا ميتافيزيقيا ولا يلغي لا تكون واحدة من هذه الحقائق إنطلاقا من الأخري ، ولا أشكال الانتقال .

وإذا تركنا الآن جانبا ، مشاكل المنهج في البيولوجيا وأيضا في السيكولوجيا ، يبدو لنا أن المفهوم الجوهري في العلوم التاريخية والاجتماعية هو مفهوم الوعي الممكن الذي سنحاول تحليله انطلاقا من أعمال ماكس فيبر وأعمال الماركسيين .

ففي الادبيات الدوركايمية ، صادفناه مرة واحدة – متلمسا بالكاد – في عمل هالفاش حول الطبقات العاملة ومستويات العيش ، حين توقع ، وهو يتكلم عن وعي الطبقة العاملة بوحدتها ، بأن هذا الوعي ليسا واقعا ولكنه امكاني . ومن الصعب أن نعرف أن نعرف إن كان يميز بدقة هذه الامكانية عن إحتمال فيزيقي .

وبالعكس من ذلك ، فقد كانت لهذا المفهوم في سوسيولوجيا ماكس ڤيبر أهمية أساسية ، بالرغم من أن هذا الاخير يخلط أحيانا بين أفكار تبدو لنا واجبة التمييز و واجبة التوضيح بالخصوص . هناك أولا مفهوم " النموذج المثال " . لقد ارتأي فيبر أننا لا نستطيع فهم الواقع الانساني إلا إنطلاقا من بناءات يسميها " مثالية " والتي دون أن تكون واقعية ، فإن لها علي الأقل علاقة وثيقة مع الواقع . وأمثلة هذه " النماذج المثالية " هي بالنسبة لفيبر : الرأسمالية ، الانسان الاقتصادي Homo Economicus - والبروتستانتية . ومن جهة أخري ، يرتبط النموذج المثال فيما يبدو " بالامكانية

الموضوعية "التي تتصور النتائج التي يمكن أن تحدث أو لا تحدث في حالة وقوع حادثة ما (بخلاف الواقع الموضوعي) ، مثلا البناء الخيالي للتطور التاريخي كما كان يمكن أن يقع لو انتصر الفرس في الحروب الوسيطية . ويجب أيضا أن نضع في واحدة من هاتين المقولتين فرضية أن قاذدا عسكريا يجب أن يعرف كل المعطيات الموضوعية للمعركة (التي لم يكن يعرفها في الواقع) . [٢٢] ولانعتقد أننا وجدنا عند فيبر تمييزا دقيقا وواضحا بين النموذج المثال ، الامكانية الموضوعية والوعي الممكن الأقصي .

أما فيما يتعلق باختيار هذه المفاهيم وبنيتها ، فيبدو أن فيبر قد اكتفي بجواب سيكولوجي . فالعالم يتصورها بشكل اعتباطي ، وخصوصيتها في هي التي تسمح بتمييز الجيد منها عن الرديء . فقط بالنسبة لبعض " النماذج المثالية " (النماذج العقلانية) ، أمدنا ڤيبر بتحليل ، أكثر عمقا . فنماذج مثالية كالانسان الاقتصادي ، والرأسمالية والبروتستانتية شيدت بالتفكير في أناس يتصورون كليا بعقلانية في إختيارهم لوسائلهم ، وبسبب ذلك يمكن أن نفهم هذا الاختيار بمجمله ، ويمكنه أن يساعدنا علي فهم الحقيقة الملموسة الاكثر تعقيدا والأكثر تشابكا . وفي ، الحد المقابل ، هناك الانسان اللاعاقل تماما ، المجنون الذي لا يمكن أن نشيد له بناء خياليا لأننا لا نستطيع قطعا فهمه بل نستطيع فقط تفسيره .

بالانطلاق من هذه التحاليل يبدو لنا من الواجب :

أ – تمييز ثلاث أدوات منهجية ، يمكن أن تكون متقاربة من بعض الجوانب ولكنها ، مع ذلك ، مختلفة .

ب – طرح المشكل الايبستيمولوجي لا النفعي لشروط صحتها .

في مجموع تحاليل ماكس فيبر ، نعتقد أننا استطعنا علي الاقل تمييز ثلاث أدوات علمية مختلفة :

أ – التخطيطات الثابتة ؛

ب – التخطيطات التاريخية والتمييز الذي ينجم عنها بين العوامل المحددة والعوامل العرضية بالنسبة للحدث المدروس ،

جـ – مفهوم الوعي الممكن .

---

(٢٢) إنه وعى ممكن أقصى يتصوره ڤيبر فقط بالنسبة للوعى الفردى.

لنفحص أولا ، التخطيطات . إنها تخص الواقعي ، وتشترك فيها ، كما هي ، كل مجالات الفكر العلمي ، ويجب أن نميز فيها علي الأكثر ثلاثة أنماط : التخطيطات الشكلية و الاكسيوماتية ، الهندسة ، النطق ، الرياضيات ، والتخطيطات الواقعية المحققة يوميا في المختبر في كل تجربة فيزيائية أو كيميائية ، والتخطيطات الذهنية الخاصة بالعلوم الامبيريقية غير التجريبية . التاريخ ، السوسيولوجيا ، الاقتصاد ، الخ . فلكل هذه التخطيطات هدف واحد هو دراسة واقع محرر من العوامل العرضية والذي تعمل داخله العناصر الاساسية وحدها ، وكل العوامل الاخري إما أن تلغي أو تهمل أو أن يفترض ثباتها . إن المربع الهندسي بصرف النظر عن عدم دقة المربع الامبريقي ، والتخطيطات المنطقية تصرف النظر عن عدم دقة الفكر الواقعي ، والفيزيائي يبعد في المختبر ، الثابت اصطناعيا ، كل الخصائص الخارجية عن الخاصية التي يريد دراسة تنوعها ، والسوسيولوجي يتكلم عن " الفيودالية " أو " الرأسمالية " صارفا النظر عن العوامل غير المتجانسة الموجودة دائما في الواقع الملموس . وهذه التخطيطات تكون جيدة أو رديئة حسب قدرتها علي إبراز الخصائص الجوهرية المؤسسة للواقع المدروس أو ترتبط ، عكس ذلك ، بعوامل ثانوية ، مما يؤدي غالبا الي خطأ جسيم هو تجميع بعض الوقائع غير المتجانسة بل والمتعارضة وأيضا تغليف البنية الحقيقية للواقع عوض وضعها في الضوء .

ومن جهة أخري ، إذا صدق ماكس فيبر ، (وليس لنا بعد رأي نهائي حول هذه النقطة) ، وإذا كان كل تخطيط في العلوم الانسانية يتضمن سلوكا عقلانيا جزئيا (ليست عقلنة للأهداف بل علي الاقل للتقنيات) ، فإن هذا يثبت ، عكس ما ذهبت إليه بعض الفلسفات المعاصرة ، أن السلوك العقلاني هو أحد العوامل المكونة للطبيعة الانسانية .

لكي نكمل هذا التحليل ، نريد أن نعطي مثالا للتخطيطات الجيدة والتخطيطات الرديئة في العلوم الانسانية ، ففي الإقتصاد السياسي الكلاسيكي ، ننطلق ، بشكل واع الي هذا الحد أو ذاك ، من التخطيط الأكثر عمومية وهو الإنسان الاقتصادي ، الانسان الذي يتبع بشكل عقلاني دائما ، وفي كل مكان ، مصلحته الاقتصادية . لقد وضح ماركس أن هذا التخطيط ، الاكثر عمومية ، والذي يراه الاقتصاديون خاصة من منظور

الفرد ، يتضمن اذا ترجم في إطار إقتصادي للمجموعة ، تواجد إنتاج من أجل السوق وإلغاء لصعوبات الانتقال من فرع انتاجي الي آخر وإلغاء لاختلافات القوي أيضا ؛ سيسمي إذن المجتمع البسيط الذي ينتج السلع . واذا أضفنا ، في هذا التخطيط ، عاملا جديدا هو التمييز بين العمال الذين لا يملكون للبيع سوي قواهم العملية ، والرأسماليين الذين يمتلكون وسائل الإنتاج ، فإننا سنحصل علي التخطيط الإقتصادي الأقل عمومية للمجتمع الرأسمالي . وإذا أضفنا لهذا التخطيط (الذي درسه ماركس بتفصيل في رأس المال مضيفا إليه فقط في الجزء الثالث اختلافات المستوي التقني لمختلف فروع الانتاج) خاصية جديدة لكي نقترب أكثر من الواقع الملموس ، فسنحصل بسبب هذا علي عدد كبير من الامكانيات التي نريد أن نحلل منها اثنتين من بين تلك التي تستعمل غالبا . فيمكن ان ندخل في الخطاطة العامة للمجتمع الرأسمالي المكون من الرأسماليين و العمال ، التمييز بين من يملكون وسائل الانتاج واولئك الذين يستعملونها (ما نسميه عادة و بشكل غير دقيق الرأسماليين والمباشرين) وأن ندخل أيضا ، تقسيم المردود الكلي للطبقة الرأسمالية الي مصلحة وربح ، او نستطيع ، علي العكس ، من ذلك ان نضيف الي الطبقتين المكونتين للمجتمع الرأسمالي طبقة ثالثة تعمل بوسائلها الانتاجية الخاصة (الطبقات الوسطي ، الفلاحين والحرفيين) .

إلا أن طرحي التخطيط هذين ، بالرغم من أن كل واحد منهما يجعل انطلاقته من الواقع الملموس ، ليست لها مع ذلك نفس القيمة العلمية . إن التمييز بين الرأسماليين والمباشرين ليست له أهمية اقتصادية نهائية . فسواء كانت الحصة الخاصة لهاتين المجموعتين ، في فائض القيمة هي النصف او بالعكس الربع او الثلاثة أرباع ، فلن يكون لهذا بالضرورة نتائج نهائية و نوعية بالنسبة لسير الاقتصاد . و من جهة أخري فالتمييز سيكون علي المستوي الاقتصادي من نفس رتبة التمييز بين اصحاب الدخل (أصحاب الارض) ، والصناع والتجار ، الخ .) وهو تقسيم نشأ عن توزيع فائض القيمة بين مختلف مجموعات الرأسماليين . إلا أنه اذا لم تكن للتمييز بين " الرأسماليين " و" المباشرين " إلا أهمية علمية محدودة ، فإن له بالعكس من ذلك ، منزع ايديولوجي كبير لأنه يسعي الي تقنيع التعارض بين العمال و الرأسماليين لكي يعوضه بتعارض مزيف يضع العمال و "المباشرين " معا في تعارض مع من يملكون الخيرات أو المال (و غني عن التوضيح أن نقول إن هؤلاء يمكن ان يكونوا أحيانا أصحاب دخل

صغار أو مساهمين صغار) . و بالمقابل فاذا أدخلنا في الخطاطة الملاكين الذين يعملون بأنفسهم و بوسائلهم الانتاجية الخاصة ، فإن ذلك يقربها (أي الخطاطة) من الواقع الملموس ، ومن أهمية علمية معتبرة لأن هذا يسمح لنا بأن نفهم بشكل أفضل التطور الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الرأسمالي في مجموعه .

إذن فإحدي هذه الخطاطات جيدة والأخري رديئة ، وذلك راجع لأسباب واضحة أي أن الواحدة تقنع في حين أن الاخري تبين التقسيم الواقعي للمجتمع الرأسمالي الي طبقات إجتماعية وتبين العلاقات المتبادلة بين هذه الطبقات .

في قاعدة هذا التمييز بين الخطاطات الجيدة والرديئة ، يوجد أيضا – كما في قاعدة كل تفكير علمي – المعيار الوحيد للحقيقة ، تلاؤم الفكر مع الواقع الموضوعي .

وهذا يهم بنفس المستوي كل التخطيطات الدينامية للتطور التاريخي ، ويهم التمييز بين العوامل التي تمتلك قيمة سببية والعوامل الطارئة والعارضة .

بالنسبة لهذه التخطيطات التي تشترك فيها جميع العلوم ، يجب أن نميز مفهوم الوعي الممكن الذي يبدو لنا الاداة الاساسية للفكر العلمي في العلوم الانسانية . سنترك جانبا أسسه الانطولوجية في طبيعة الانسان باعتباره كائنا يعمل علي تغيير العالم والمجتمع ، كما سنترك استعماله في السيكولوجيا الفردية .

توجد المعرفة في السوسيولوجيا ، علي المستوي المزدوج للذات التي تعرف وللموضوع المدروس ، ، ذلك لأنه حتي السلوكات الخارجية ، هي سلوكات لكائنات واعية تحكم وتختار ، بهذا القدر من الحرية أو ذاك ، طرقها في العمل . فاذا وجب علي الفيزيائي ألا يرصد إلا مستويين من المعرفة : المعيار المثالي أي تلاؤم الفكر مع الأشياء ، والمعارف الواقعية لزمنه ، أي التي تتوقف قيمتها علي بعدها عن هذه الأخيرة ، فإن المؤرخ ، وخاصة السوسيولوجي ، يجب أن يرصد علي الاقل عاملا وسيطا بين هذين المستويين أي الوعي الممكن الاقصي للطبقات التي تكون المجتمع الذي يحلل .

إن الوعي الواقعي هو نتيجة لمجموعة متعددة من العوائق والانحرافات التي تعارض بها وتفرضها علي تحقيق هذا الوعي الممكن ، العوامل المختلفة للواقع التجريبي ، ومن الضروري مع ذلك إذا أردنا أن نفهم الواقع الاجتماعي ، ألا نغرق ونمزج سلوك

المجموعة الاجتماعية الاساسية أي الطبقة ، في التنوع اللانهائي وفي تعددية سلوكات المجموعات الاخري ، بل وفي تعدد العوامل الكونية ، من الضروري أن نفصل في لحظة معينة من التاريخ ، الوعي الممكن لطبقة معينة عن وعيها الواقعي بوصفه نتيجة للحدود والانحرافات التي تفرضها علي الوعي الطبقي سلوكات مختلف المجموعات الاجتماعية الاخري والعوامل الطبيعية والكونية . إن الإنسان يتعرف بامكانياته ويميله الي الاتحاد مع الناس الآخرين والي التوازن مع الطبيعة ، إن التوحد الحقيقي و الحقيقة الكونية يعبران عن هذه الامكانيات في مرحلة تاريخية جد طويلة ، و تعتبر " الطبقة من أجل ذاتها "(في تقابل مع الطبقة في ذاتها) ، و الوعي الممكن الاقصي عن إمكانيات علي مستوي الفكر و الفعل في بنية مجتمعية معطاه . وستوضح بعض الامثلة ، الاهمية الرئيسية لهذا المفهوم في مختلف مجالات الحياة و في البحث الاجتماعي .

ففي السلوك الاجتماعي و السياسي ، من الطبيعي ان التحالفات بين الطبقات الاجتماعية لا يمكن ان تتم ، إلا علي أساس برنامج أدني يطابق الوعي الممكن الاقصي للطبقة الاقل تقدما . فحين نادي لينين سنة ١٩١٧ ، وسط ضجة معظم الاشتراكيين الغربيين ، بتوزيع الاراضي علي الفلاحين ، الشيء الذي بدا مضادا لكل برنامج اشتراكي ، فقد كان يضرب حساب كون البروليتاريا الروسية هي في حاجة ، لكي تنتصر الثورة ، الي التحالف مع طبقة الفلاحين الفقراء و المياوميين الفلاحين ، و حساب كون التأميم الفلاحي يتجاوز الوعي الممكن للفلاحين في مجتمع غير اشتراكي ، و ايضا فإن النزعة الوطنية لبروليتاريا الشعوب المستعمرة ، و تخليها المؤقت عن حقوقها الخاصة تشرط مساعدتها لبورجوازية هذه البلدان في صراعها من أجل الاستقلال ، و قد مثلت المطالبة بالمساواه القانونية ، خلال الثورة الفرنسية " الوعي الممكن الاقصي للبورجوازية ، كما أن فهم واقعة كون المساواه القانونية هي شكلية خالصة ، و لا تتيح نهائيا المساواة الاقتصادية ، يتجاوز الوعي الممكن للبورجوازية الثورية .

فاذا انتقلنا الي مجال الفكر العلمي ، سنثبت مثالا مشهورا هو الجدول الاقتصادي لكيزناي Quesnay الذي صا رغير مفهوم إطلاقا عند الإقتصاديين البورجوازيين حتي الحرب العالمية الأولي . ولم يكن ذلك مجرد صدفة .

لقد كان الفيزيوقراطيون دائما مصدر صعوبة بالنسبة لمؤرخي المذاهب الإقتصادية ، فبدفاعهم عن نظام طبيعي قائم علي حرية التجارة وعلي كثير من المطالب

والأفكار الأخري البورجوازية الظاهر ، إستندوا علي فكرتين إعتبروهما أكثر وضوحا واعتبرهما الإقتصاديون اللاحقون غير معقولتين بل ومتناقضتين وهما :

أ - الانتاجية المطلقة للفلاحين وعقم التجارة والصناعة .

ب - ضرورة دفع الضرائب فقط من طرف ملاك الأراضي .

وفي الحقيقة ، فإن مذهبهم يصبح متماسكا تماما ، فيما لو إنطلقنا من منظور ، ليس فقط عامة الشعب ، ولكن أيضا من منظور الملك الذي يهدده هذا المذهب . متأثرا بمفكري عامة الشعب ، مستوعبا في نفس الوقت لخطر الثورة ولعدم كفاية سياسة القمع ، ومستوعبا خاصة لواقعة أن القوه الملكية تتوقف علي التوازن بين الطبقات ، فهم كيزناي ، الذي كان مفكرا عبقريا ، إن الحظ الوحيد لإنقاذ الملكية ، كان هو تدعيم النبالة حتي تصبح ثقلا مضادا لعامة الشعب وكإقتصادي محترس إستخلص أن الصناعة والتجارة ينتجان فقط أجور العمال وأرباح الرأسماليين في حين أن الفلاحة تنتج ، بالإضافة إلي ذلك دخلا عقاريا يمكن أن يكون الأساس الإقتصادي لارستوقراطية مدعمه . ومن هنا جاء البرنامج التام التماسك القاضي بإبعاد رؤوس اموال التجارة وتوجيهها نحو رسملة الفلاحة ، وفي نفس الوقت ، إعفاء الشعب المهدد ، من كل الضرائب ، وتحميلها فقط للنباله وملاك الأراضي الذين يجب أن يسحبوا كل إمتيازات هذا التطور من الربح العقاري .

إن هذا البحث عن إمكانية لإنسجام المصالح الإقتصادية لمختلف الطبقات الإجتماعية حتي تلغي الثورة وتدعم الملكية ، قاد كيزناي [٢٣] ليس فقط إلي إبتكار علم الإقتصاد ولكن أيضا ، وبدفعة واحدة ، إلي صياغة التخطيط العبقري للعلاقات الإقتصادية بين الطبقات الإجتماعية والذي سماه الجدول الإقتصادي . لقد كان الفيزيوقراطيون واعين تماما بأهمية هذا الإستكشاف ، ولويس الخامس عشر طبعه فيما يبدو وبنفسه . وسماه ميرابو أحد الإكتشافات الثلاثة التي أعطت للعلوم السياسية صلابتها " أي الكتابة والنقد والجدول الإقتصادي " . ومع ذلك ، فحين نشر مؤسس الإقتصاد الليبرالي آدم سميث ، الذي كان تلميذا مباشرا لكيزناي كتابه " غني الأمم " ، لم يكن هناك أي أثر فيه للجدول . إن مشكل العلاقات الإقتصادية بين كل

(٢٣) لقد كان كيزناى مؤسس الفيزيوقراطيا الطبيب الشخصى للويس الخامس عشر الذى طبع بيده الجدول الاقتصادى لقد بدأ كزناى الاهتمام بالاقتصاد فى سن الثانية والستين.

الطبقات الإجتماعية ، تجاوز الوعي الممكن للبورجوازية الليبرالية . والواقع أن الجدول كان دائما مجهولا ، حتي السنوات الأخيرة ، من طرف أهم ممثلي هذا الإقتصاد . وفي سنة ١٩١٠ ناقش م . فوليرس أطروحة من ١٣٨٠ . صفحة من الحركة الفيزيوقراطية ، لم يخصص خلالها للجدول إلا ١٠ صفحات دون أن ينتبه قطعا إلي أهميته . ويفيدنا الكتاب الأكثر رواجا لتاريخ المذاهب الإقتصادية في بداية القرن ، وهو كتاب : جيد و ريست Gide et Rist أن الجدول الإقتصادي يثير عند المعاصرين تقديرا لايصدق يبعث علي الضحك الآن [٢٤] كما أن عرض جيد (يري أن الجدول) " لايعطي إلا فكرة ناقصة عن تشابكات ونتائج المردود يتسلي الفيزيوقراطيون بتتبع قفزاتها بفرح طفولي ، معتقدين أنها هي الحقيقة نفسها ، فكونهم يجيدون دائما حساب ملاييرهم مضبوطا كان يدفعهم إلي الإنتشاء " (ص ٢٣) .

ومع ذلك فقد دخل الجدول ، في هذه الفترة ، ومنذ مدة طويلة في النظرية الإقتصادية والذي فهم من جديد ، ولأول مرة ، أهميته كان هو كارل ماركس الذي ، بالإضافة إلي تحاليله في ال " نظريات حول فائض القيمة " حيث كتب في كلامه عن الجدول " أن الإقتصاد السياسي لم يعرف أبدا فكرة عبقرية شبيهة به " (ص-١١٥) لأن " سميث أخذ فقط ميراث الفيزيوقراطيين وفهرس وخصص بأكبر قدر من الصرامة مختلف مواضيع البيان ، دون أن ينجح في إعطاء المجموع إحكاما في الطرح وفي التأويل المقصود بالرغم من الفرضيات الخاطئة لكيزناي في الجدول الإقتصادي (ص ١١٥) : (بالاضافة إلي تحاليله تلك) خصص ماركس للجدول القسم الأكبر من الكتاب الثاني في رأس المال ، مدخلا عليه ، مع ذلك ، تغيرات مهمة . لقد عوض الطبقات الأساسية في فترة كيزناي أي ملاك الأرض والطبقات العقيمة ، النبالة وعامة الشعب ، بالطبقات الأساسية في فترته هو ، أي بالعمال والرأسماليين .

إن المصير اللاحق للجدول ، والذي سيسمي في الأدبيات الماركسية خطاطات الإنتاج ، ليس قليل الأهمية . فماركس الذي كتب ، مثل كيزناي " من منظور الثورة " فهم بسرعة أهمية الفكرة العبقرية لهذا الأخير . ولكن حين ظهر الكتاب الثاني من رأس المال ، كانت الرأسمالية موطدة ، فلم تكن هناك أي ثورة في الأفق . ولأحد في

(٢٤) جيد و ريست ، تاريخ المذاهب الاقتصادية . الا أن جيد سجل بنوع من الانزعاج موقف الاستاذ هنري دنيز H . Denis الذي صرح أن (الجدول) " قريب جدا من إقنسام تقدم ميرابو " لقد قرأ هـ . دينيز ماركس كاملا .

الحزب الماركسي – باستثناء انجلز بطبيعة الحال – فهم أهمية هذه الخطاطات . بل سيتساءل ناقد ماركسي لماذا نشر إنجلز حسابات خالية من الفائدة . إن الأول الذي سيفهم أهميتها ، سيكون ت . بارانوفيسكي سنة ١٨٩٤ في روسيا خمسة عشر سنة قبل ١٩٠٢ . وسيفهمها من منظور الثورة البورجوازية الروسية كتأكيد لإمكانية تطور لا نهائي للرأسمالية . وسيكون هذا هو التأويل الذي ستعطيه لها بدورها ، الماركسية الإصلاحية في أوروبا الغربية مع هيلفيريدين وكاوتسكي وغيرهم ، وستعطيه لها أيضا ، علي المستوي الإقتصادي الماركسية الروسية مع لينين وبوخارين الخ . الذين لم يعرفا الا حدودا سياسية لتطور الرأسمالية . ولم يتم الإعتقاد بإمكانية وجود حد إقتصادي للرأسمالية إلا عشية الحرب العالمية الأولي سنة ١٩١٢ مع روزا لوكسمبورغ . واستمرت المناقشات فيما بعد ، في الأدبيات الماركسية ، في مئات وآلاف الصفحات ، وكلما طرح مشكل الثورة علي البورجوازية المعاصرة ، كلما إستعاد بعض ممثليها من المفكرين مثل شومبيتر Schumpeter وكاين Keynes (وإن بشكل مشوش ومضطرب) مشاكل الجدول الإقتصادي لكيزناي .

وسواء كان هذا العمل طفوليا أم عبقريا ، فإننا نلاحظ إلي أي حد تؤثر الشروط الإجتماعية والوعي الممكن للطبقات الخاصة ، علي طريقة قراءة وتأويل نص من بضع صفحات ، سهلة ولاتمثل أي صعوبة خاصة .

وأخيرا لكي ننهي هذه الفقرة ، نسجل بعض الأمثلة من تاريخ الفكر الإجتماعي رالفلسفي . لقد سبق وقلنا إن في عمل سان سيمون ، من بين العديد من الأخطاء الأخري ، خطئين مهمين إلي حد ما :

أ – لم ينتبه قط الي امكانية صراع واقعي بين البروليتاريا و البورجوازية .

ب ـ اعتقد في امكانية تحالف دائم بين البوربيين BOURBONS و عامة الشعب (الصناعيين في لغته) . و يبدو لنا من المهم جدا ، للمؤرخ ، ألا يضع هذين الخطئين في نفس المستوي . فالاول يعتبر نتيجة لمحدودية الوعي الممكن عند عامة الشعب في بداية القرن ١٩ ، اما الثاني فله أسباب من طبيعة اخري وكان من الممكن ان يلغي من طرف مفكر بورجوازي من العصر نفسه .

لقد حاولنا أن نبين في مكان آخر ، فيما يتعلق بالفلسفة بالمعني الخالص ، الي أي حد لم يكن من الممكن ان نفهم الفكر و الفعل ، الكائن و المعيار كوحدة تنجم عن حدود الوعي الممكن للبورجوازية الالمانية في مرحلة معينة من تاريخها . و لنفس الاسباب لم يتمكن فولتير من فهم باسكال ، و لا الكانطيون الجدد من فهم كانط ، الخ . سنعود في الفصل القادم الي أهمية مفهوم الوعي الممكن الاقصي في تاريخ الفلسفة والادب .

الفصل الرابع

تعبير وشكل

حين يتعلق الأمر بفهم الدلالة الموضوعية للأحداث التاريخية وخصوصا للأعمال الفلسفية ، الأدبية والفنية ، تبرز في أدب القرنين التاسع عشر والعشرين العديد من المواقف . يمكن أن نصنفها ، متبعين في ذلك مصطلحات إ . لا سك E . Lask ، في مجموعتين كبيرتين : مواقف المنطق التحليلي (التجريبية ، العقلانية) ، ومواقف المنطق الإنبعاثي (التاريخ الرومانسي و الميغلي ، أعمال سبنجلر ، الخ) .

فالحقيقة الموضوعية الوحيدة ، بالنسبة للمنطق التحليلي ، علي الواقعة المعزولة التي تسلم بها التجريبية كما هي ، في حين يحاكمها التاريخ العقلاني علي ضوء القيم الكونية للعقل . إلا أننا نظل ، في الحالتين معا ، في مستوي السلوك الخارجي لفرد أو لأفراد متعددين ، سواء تعلق الأمر بدراسة معركة ، أو النشاط الإقتصادي لمجموعة ، أوتيار أو عمل أدبي أو فني . فإنطلاقا من هذه الوقائع الملموسة المعطاه في شكل معزول ، يستطيع المؤرخ فيما بعد أن يشيد متتاليات بل يسن قوانين أو تفسيرات سببيه . وكذلك ، وحتي يظل داخل المنطق التحليلي الذي نادي به الكانطيون الجدد في هايدلبورغ ، و حتي يبعد كل نزعة إنبعاثية ، إلتجأ ماكس فيبر إلي نموذجه المثالي في السلوك العقلاني الذي أتاح له فهم الأفعال الإنسانية ، دون أن يضيف ، مع ذلك ، شيئا إلي مظهرها المحسوس ولاأحد يستطيع أن ينكر الفائدة المهمة للتاريخ التحليلي الذي ساهم ، بإجلاله للوقائع الملموسة ، في تسليط الضوء علي القسم الأوضح من الوقائع المعروفة و المستعملة حاليا من طرف التاريخ والعلوم الإجتماعية .

ولهذا فهناك شيء من الحقيقة فيما يؤاخذه به دائما أنصار التحليل الإنبعاثي من أنه يعالج الوقائع الإنسانية بوصفها وقائع فيزيائية ، ومن إنه ينطلق من مظاهرها الخارجية ويكتفي بأن يقيم بينها علاقات مفتعلة إلي هذا الحد أو ذاك هي ، في نهاية البحث ، مماثلة لأوصاف وقوانين الفيزيائي .

وبالمقابل ، فإن المفهوم الإنبعاثي للتاريخ يتضمن فكرتين نريد أن نفحصهما بشكل منفصل : الأولي هي أن معظم التمظهرات الانسانية لايمكن أن تفهم إلا بوصفها تعبيرات عن حقيقة أكثر عمقا يتصورها الإنبعاثيون ، في الأغلب ، فوق – فردية (روح الشعب عند الرومانسيين ، الفكرة الموضوعية عند هيغل ، مختلف الأفكار القديمة والعربية والفوستيه عند شبينجلر .

ونعرف المساهمة الهامة التي قدمتها هذه الطريقة في تصور التاريخ بالنسبة لفهم العديد من الأحداث التاريخية و، خصوصا لفهم التمظهرات الثقافية للحياة الإجتماعية : الدين ، القانون ، الفن ، الفلسفة ، الخ . ومع ذلك ، فهناك شيء من الحقيقة فيما يؤاخذ به دائما أنصار التاريخ التحليلي المؤرخين الإنبعاثيين ، وهم لا يأخذون عليهم فقط نوعا من الإنفعالية التي كانوا فيها ، دون شك ، وفي أغلب الأحوال ، علي صواب ، بل أيضا ، وبالخصوص ، الخاصية التأملية والميتافيزيقية لمعظم إدعائهم الفوق – فردية (روح الشعب ، فكرة موضوعية ، روح حضارة ما ، الخ ..) .

مدعما بمساهمته الإيجابية في الفهم التاريخي وبالإنتقادات المبررة التي يصوغها ضدا علي موقف الخصم ، فإن كل واحد من هذين الموقفين يبدو لنا غير كاف لإنشاء الأساس العام للعلوم الإنسانية . هل هناك إمكانية للتركيب بينهما ؟ يبدو لنا أن المادية الدياليكتيكية تقدم ذلك لأنها تنكر ، وجود كل جوهر ميتافيزيقي وتأملي ، وتعتبر مع ذلك ، وفي نفس الوقت ، الحياة الفكرية تعبيرا عن واقع إنساني أكثر عمقا وإتساعا ، كيف يمكن لتركيب مماثل أن يكون ممكننا ؟

ليس هناك ، بالنسبة للمادية الدياليكتيكية ، وعي فوق – فردي . فمثلا الوعي الجمعي ، الوعي الطبقي ليس إلا مجموعا للأوعاء الفردية لتوجهتها كما تنتج عن التأثير المتبادل بين الناس ، الواحد علي الآخر ، وعن تأثيرهم في الطبيعة .

إلا أننا هنا نتعرض للفكرة المركزية الثانية في التصور الإنبعاثي ، فكرة تقبلها كليا المادية التاريخية ، وتتعارض بها بشكل جذري ، مع كل تفكير تحليلي . فهي لا تعتقد أن مجموع الأوعاء الفردية هو مجموع حسابي لوحدات مستقلة ومعزولة ، بل تعتقد علي العكس من ذلك ، مع باسكال وكانط وهيغل وماركس ، إن كل عنص لايمكن أن يفهم إلا من خلال مجموع علاقاته مع العناصر الأخري ، أي مع الكل ، بواسطة التأثير الذي يمارسه علي هذا الكل والتأثيرات التي يتلقاها منه .

وكما قلنا سابقا ، ففي المجتمع الحالي ، منذ العصر القديم ، علي الأقل ، نجد أن طبيعة مجموع العلاقات بين الأفراد وبقية الواقع الإجتماعي ، هي أن بنية نفسية معينة تتأسس باستمرار ، يشترك فيها ، إلي أبعد الحدود ، كل الأفراد الذين يكونون نفس الطبقة الإجتماعية الواحدة ، بنية نفسية يميل إلي نوع من الرؤيا المتماسكة وإلي نوع من المعرفة القصوي بالذات وبالكون ، ولكنها أيضا تتضمن حدودا صارمة تقريبا في معرفة وفهم الذات والعالم الإجتماعي والكون . وبعبارات شاملة وإحصائية ، نقول أن هذا يعني أن الطبقات الإجتماعية تشكل بنية تحتية لرؤيات العالم ، وتسعي إلي التعبير المتماسك عنها في مختلف مجالات الحياة والفكر .

نلاحظ تفوق المادية التاريخية التي تستطيع ان تدرس التمظهرات الثقافية و الفنية ، ليس من خارجها ولكن في محتواها ، باعتبارها تعبيرا عن وعي جمعي ، دون ان تضطر ، في ذلك ، الي اللجوء الي الفرضيات الميتافيزيقية و التأملية كروح حضارة ما

فكل تمظهر هو عمل لمؤلفه الفردي ويعبر عن فكره وطريقته في الاحساس ، ولكن طرق التفكير والاحساس هذه ، ليست جواهر مستقلة بالنسبة لأفعال وسلوكات الناس الآخرين . فهي لا توجد و لا يمكن ان تفهم إلا من خلال علاقاتهم الداخل- فردية التي تعطيها كل محتواها و غناها ، و قد كان باسكال يعرف هذا مسبقا حين كتب : " إن اجزاء العالم بمجملها لها علاقة معينة و تسلسل معين بين الواحد و الآخر ، لدرجة اني اعتقد أنه من المتعذر معرفة جزء دون الآخر و دون الكل ... اعتقد أنه من المتعذر معرفة الاجزاء دون معرفة الكل و معرفة الكل دون معرفة الاجزاء " (الافكار ، ص ١٧ ، مق : ٧٢ ، ط . برانشفيغ) و كانط ، الذي اعتقد أنه فتح طريقا لايزال مجهولا بإقامة مبتدئين جديدين كبيري الاهمية في المعرفة الميتافيزيقية " ، الاول منهما هو أن " أي تغيير لا يمكن ان يتحقق في الجواهر إلا اذا كانت تربط بينها علاقة متبادلة . إن التعلق المتبادل للجواهر ، يحدد إذن التغير المستمر لحالاتها " .

اذا كنا نتكلم عن تعبير عن الوعي الجمعي ، فيجب ، مع ذلك ان نحذر من سوء تفاهم ، فلا يكون عمل معين تعبيرا كهذا لمجرد أنه يفهم فقط انطلاقا من علاقات كاتبه مع مجموع الحياة الاجتماعية . فهذا يصلح بالنسبة لكل عناصر العالم الانساني بل والكون المادي ، بالنسبة للعمل الاكثر أصالة كما بالنسبة للعمل الاكثر انحرافا ، بل وفي النهاية ، بالنسبة لعمل كاتب مستلب . إن سلوكا او كتابة لا يمكن ان يصبحا تعبيرين عن الوعي الجمعي إلا في الحالة التي تكون فيها البنية التي يعبران عنها غير خاصة بكاتبهما وحده و لكن يشترك فيها مختلف الاعضاء الذين يكونون المجموعة الاجتماعية .

وهذا هو الظرف الذي نريد أن نشير فيه الي أهمية أحد المفاهيم التي استعملها لوكاتش في ١٩٠٥ و ١٩١٧ ، و الذي يبدوا أنه هجرها اليوم و هو مفهوم " شكل " . اذا كان كل احساس ، و كل فكر ، و في النهاية ، كل سلوك انساني ، تعبيرا ، فيجب ان نميز داخل مجموع هذه التعابير ، المجموعة الخاصة و المتميزة للاشكال التي تؤسس تعابير ملائمة و متماسكة لرؤية للعالم علي مستوي السلوك و التصور او الخيال . هناك إذن أشكال في الحياة و في الفكر و في الفن ، و دراستها تشكل أحد المهام الرئيسية للمؤرخ بشكل عام ، و أحد الانشغالات الاكثر أهمية عند مؤرخ الفلسفة والادب و الفن و خاصة عند عالم اجتماع الفكر .

إن الرؤيات للعالم تعتبر وقائع اجتماعية ، و المؤلفات الكبري في الفلسفة و الفن تمثل التعبيرات الملائمة و المتماسكة لرؤيات العالم هذه ، انها ، بوصفها كذلك ، تعبيرات فردية و اجتماعية في نفس الوقت ، يتحدد محتواها بالوعي الممكن الاقصي للمجموعة ، و بصفة عامة ، للطبقة الاجتماعية ، و يتحدد شكلها بالمحتوي الذي يجد له الكاتب او المفكر تعبيرا ملائما .(١)

نصنف في ختام هذه الفقرة ، ملاحظتين ، لا تغيب اهميتهما بالتأكيد علي القراء ، ولو أننا لن نستطيع تطويرهما هنا.

---

(١) لقد عرف لوكاتش مرة الشكل بأنه " الطريق الاقرب الي القمة " غير أنه يجب التمييز بين كلمة "شكل " في هذه الفقرة . فالاول هو أنه تعبير متماسك وملائم عن رؤية للعالم ، في التعارض مع النزعات الانتقائية ، والثاني هو أنه تعبير ملائم او غير ملائم للمحتوي الذي يعبر عنه .

١) يمكن لسوسيولوجيا الفكر ان تدرس الرؤيات للعالم علي مستويين مختلفيين ، مستوي الوعي الواقعي للمجموعة ، كما فعل مثلا باحثون مثل فيبر و غروتيسن ، أو مستوي تعبيراتها المتماسكة المتميزة (التي تطابق ، كثيرا أو قليلا ، الوعي الممكن الاقصي) في الاعمال الكبري ، في الفلسفة و في الفن او في حياة بعض الافراد المتميزين . و المستويات معا يتكاملان و يساند أحدهما الآخر إلا أنه يجب ان نقول ، رغم الظاهر الذي يبدو لأول وهلة عكس ذلك ، أن المستوي الثاني غالبا ما يكون سهل التحقيق بالقياس مع الاول ، بالتحديد لأن الرؤيات للعالم تجد فيه تعبيرا أكثر وضوحا وأكثر تحديدا ، في حين ان دراسة تطور رؤية جديدة للعالم في الوعي الواقعي للمجموعة ، يشكل عملا أكثر صعوبة بسبب أشكال الانتقال المتعددة ، و التعقيد الضخم للتشابكات و التأثيرات المتبادلة التي تكون الحياة الاجتماعية .

بالمقابل ، من المسلم به ، أن دراسة الاعمال الفلسفية والادبية الكبري ، تتطلب عملا تحليليا متطورا جدا ، مادمنا في النهاية ، مرغمين ، وانطلاقا من رؤية المجموعة ، علي محاولة إبراز ، ليس فقط ، المحتوي ، ولكن أيضا الشكل الخارجي للعمل . إنه عمل لم يباشر حتي الآن إلا نادرا ، ولكن يبدو لنا أنه يشكل أحد المهام الاساسية في النقد الادبي و في تحليل الاساليب . وحتي نعطي مثالا واحدا [٢] ، فاذا أخذنا جملتين ممثلتين للفلسفتين الكبيرتين في القرن السابع عشر ، فمن الواضح أن التوازن والتناغم التام لزمني Cogito ergo sum أو للزمن الثاني في : " أنا افكر إذا أنا موجود " Je-pense donce Je suis يعبران بامتياز عن تفاؤل وتوازن الفلسفة الديكارتية ، في حين أن الصعود العمودي للعنصر الأول والسقوط المفاجيء للنهاية في : Le si lence eternel des espaces in finis m 'effrais السكون الابدي للفضاءات اللانهائية يرعبني ، يكثفان ويعبران عن جوهر الرؤية التراجيدية نفسه ؛ كما أن المفارقة Para-doxe أداة اسلوبية ضرورية تقريبا عند كاتب وفيلسوف الرؤية التراجيدية الكبير ، الذي ينطلق من فكرة أساسية هي أن الانسان كبير وصغير في نفس الوقت أي أن نفس الذات الواحدة لا تعرف إلا بمسندين متناقضين مظهريا .

٢) ومن جهة أخري ، فمن الواضح أن العدد الممكن لرؤيات العالم هو أكثر اختزالا من الوضعيات التي توجد ، وستوجد فيها مختلف الطبقات الاجتماعية عبر التاريخ .

---

(٢) اقترح علينا جزء منه من طرف الاستاذ سبيري Sperri.

تقريبا ، كل رؤية من الرؤيات التي نعرفها ، وجدت نفسها تعبر عن وضعيات اقتصادية و اجتماعية مختلفة بل و متناقضة في الكثير من النقط .يكفي ان نفكر في الافلاطونية الارستوقراطية عند اليونان ، و أيضا مع إختلاف كبير ، في اموسطينية العصر الوسيط التي أصبحت فيما بعد عند جاليلي وديكارت إحدي الأدوات الأساسية لتعبير عامة الشعب الذين يعارضون الأرستوقراطية ، كما أن الرؤيا التراجيدية التي توجد عند كانط وباسكال تعبر ، في الحالة الأولي ، عن أيديولوجية أحد الأجزاء الأكثر راديكالية في البورجوازية الألمانية خلال القرن الثامن عشر ، وفي الحالة الثانية عن نبالة الرداء في فرنسا خلال القرن السابع عشر . وهذا يفسر ، هو وأشياء أخري ، النهضات ، ولكنه يطرح في الوقت نفسه ، المشكل الأكثر صعوبة في كل سوسيولوجيا الفكر وهو مشكل نمذجه رؤيات العالم ، ومن المسلم به أن عدد هذه الرؤيات محدود ، إلا أنه سيكون من الصعب القول أنه تم التعبير عنها فيما قبل في التاريخ الثقافي والفني للعصور التي نعرف .

إلا أنه من الممكن أن نتنبأ أن هذه النمذجة التي لازلنا بعيدين عنها [٣] تتطلب تحاليل معقدة ، الي هذا الحد أو ذاك ، مادامت تبرز ، ومنذ الآن ، ضرورة تمييز العديد من الدرجات المختلفة . فمثلا النزعة الفردية تشكل أساسا مشتركا ، ستتميز فيه فيما بعد مواقف مختلفة كالرواقية والابيقورية والشكية [٤] وأيضا علي مستوي أكثر إرتفاعا ، يجب أن نميز الرواقية القديمة ذات الخاصية المتشائمة عن رواقية القرنين السادس عشر والسابع عشر ، المتفائلة وشديدة الثقة بالانسان .

ومهما كان ، فهذه النمذجة التي ستكون مرحلة رئيسية في تطور التاريخ وسوسيولوجيا الفكر ، تبدو الآن مازالت بعيدة التحقيق بل وحتي قابلة للتحقيق ، لأن ذلك يتطلب الكثير من الأعمال الملموسة التمهيدية ، ومن المهم ألا تغيب عنا في الأبحاث الجزئية أيضا [٥].

---

(٣) يبدو لنا أن محاولات دلثي Dilthy وياسبرس Jaspers غير كافية تماما .

(٤) إن هذا الاساس المشترك هو الذي يفسر مثلا إمكانية جمعها (هذه الفلسفات) في عمل نفس الشخص الواحد الذي لم يتنكر له ، مع ذلك ، قط وهو مونطين .

(٥) انظر في هذا الموضوع : ل . غولد مان . المادية الدياليكتيكية وتاريخ الفلسفة ، المجلة الفلسفية لفرنسا والخارج ، ١٩٤٨ ، عدد٤ – ٦ ، و ل . غولدمان ، المادية الدياليكتيكية وتاريخ الادب ، في بحوث جدلية.

تذييـــل

لقد كتبنا في بداية هذه الدراسة ان " الوقائع " الانسانية لا تتكلم قطعا من تلقاء نفسها ، و أنها تمنح دلالتها فقط ، عندما تكون الاسئلة التي نطرحها عليها ملهمة من طرف نظرية فلسفية شاملة . و لكي نوضح هذا التأكيد ، نسمح لانفسنا ان نلخص هنا بشكل جد مختصر [1] مثالا لمجموعة من التعالقات بين كتابات باسكال و راسين من جهة ، والاحداث الدينية و السياسية للعصر من جهة ثانية ، تعالقات انتبهنا إليها بمناسبة بحث في تاريخ الفلسفة قيد الانجاز . هذه النتيجة بالخصوص لم تكن متوقعة ، لدرجة ان موقفنا النظري لن يتطلب و لن يترك نفسه يتنبأ بتعالق اكثر قربا واكثر دقة . نجد انفسنا في مواجهة حالة استثنائية ومتميزة ، فالتعالق بين الحياة الاجتماعية والتعبير عنها في عمل الكتاب و الفلاسفة ، يعتبر بصفة عامة أكثر تعقيدا و توسطا . إن دراسة فكر باسكال قادتنا ، في الواقع ، الي التمييز بين مرحلتين علي الاقل في كتابات هذا المفكر، تتميز الاولي بانفصال مناطق المعرفة التي تكشف بالتوالي عن التجربة الملموسة، وعن العقل و السلطة ، وتتميز الثانية التي نسميها تراجيدية ، من بين اشياء اخري ، بالتأكيدات علي حقيقة الاضداد ، وعدم كفاية كل المعارف الانسانية وأولية الأخلاق والرهان .

---

(١) بالنسبة للدراسة المفصلة للافكار والمسرح الراسيني نسمح لانفسنا بان نحيل علي كتابنا الاله المختفي ، دراسة للرؤية التراجيدية لافكار باسكال ولمسرح راسين . غاليمار . ١٩٥٦ .

والحال أن الانتقال من أول هذه المواقف الي الثاني ، يتموضع علي كل حال بعد تحرير آخر القرويات provinciales ، إذن بين مارس ١٦٥٧ و غشت ١٦٦٢ سنة موت باسكال [٢] .

و من جهة اخري ، ففي مارس ١٦٥٧ ، عرفت فرنسا قرار الاسكندر السابع الذي أدان بوضوح الاغوسطينية ، و ايضا في مارس من نفس السنة استقبل هذا القرار من طرف مجلس الايكليروس الذي كرر المطالبة بتوقيع العريضة . هذه الاحداث قربت الاضطهاد و أزاحت خاصة عن الرهبان و الزهاد في بور رويال كل أمل في أن يتمكنوا بعد ذلك من الاستفادة من سلطة أرضية مهما كانت . متموقعين كما يقول المقطع التاسع عشر من القرويات " بين الرب و البابا " لم يبق لهم إلا الاستنجاد بالاله ، التراجيديا .

والرغم من أننا انتبهنا منذ بداية بحثنا الي الانسجام بين التطور في فكر باسكال و الاحداث الخارجية ، فإننا لا نعطيه مع ذلك أهمية كبيرة ، فمن المحتمل ان تكون هذه العلاقة واعية ، و علي كل حال فهي سهلة الفهم . غير أن دلالتها اتضح لنا أنها تتطور حين بينت لنا دراسة مسرحيات راسين انها ، بعيدا عن أن تكون ، معزولة ، تندمج في مجموع أوسع من التعالقات المماثلة التي كان من المحتمل هذه المرة ، و في قسم كبير منها ان تكون لا واعية و لا إرادية . إن تسلسل تراجيديات و مسرحيات راسين يتم في الواقع علي الشكل التالي : بعد ان قضي طفولتة و مراهقته في الاوساط الجانسينية في المدارس الصغيرة و في اعدادية بوفي ، اتجه راسين سنه ١٦٦١ الي أوزي uzes وقرر أن يرتكب أحد السلوكات الاكثر جدارة بالعقاب في نظر أخلاقية الفكر الجانسيني : لقد أراد في الواقع ، و دون ان تكون له أية نزعة دينية ، ان يحصل ، بفضل حماية خاله ، علي أحد الامتيازات الكنسية . يمكن ان نتصور احتقار خالته ، الراهبة في بور رويال و ايضا مع احتمال كبير احتقار اساتذته القدماء . ومن الممكن ان يكون لنا الحق في ان نفترض (و خاصة بالنظر الي تطوره اللاحق) أن وعيه الخاص لم يكن تماما في راحة .

(٢) صحيح أن هناك نصا يرجع الي سنة ١٦٥٦ : وهو نص فونتين المشهور : نقاش باسكال والسيد دوساسي ، يمكن أن يضع موضع تساؤل هذا التمرحل ، الا أنه وأن ظهر بعد موت باسكال من الممكن جدا أن يكون هذا الاخير قد نظر فيه بعد سنة ١٦٥٧ أو يكون فونتين قد حرره بعد قراءة الافكار

وعندما تأكد أن الامتياز المنشود ، بطيء و صعب المنال ، اضطر راسين الي أن يجرب حظه في مجال آخر هو الادب ، و كتب ، بالاضافة الي مسرحيات اخري ، مسرحيتين : la thebaide (1666), ALEXANDRE (1665) اللتين لم تكونا تراجيديات و لم تعكسا في شيء الفكر و الاخلاق الجانسينيين .

إلا أنه في سنة ١٦٦٥ ، و في غمرة اضطهاد الجانسينية ، رد نيكول nicole علي ديسماري سان سورلان ، ناشرا ، في البداية الخيالات IMAGIRAIRES ، و بعد ذلك ، المتنبؤون visionnaires مؤاخذا علي هذا الاخير ، بالاضافة الي اشياء اخري ، كونه كتب فيما قبل ، مسرحيات ، و أنة كان فيها مسمما للجمهور . هناك قليل من الاحتمال في ان يكون نيكول ، في غمرة الصراع الدفاعي ضد مضطهدي بور رويال ، قد أراد اجتذاب عدو جديد ، مهاجما راسين بشكل غير مباشر . و علي كل حال ، فهذا الاخير الذي لم يكن وعيه مستريحا تماما ، اعتقد أنه هو المقصود ، فأجاب برسالة متهكمة للغاية و نشرها ، ثم أجاب برسالة ثانية غير انه تخلي عن نشرها .

إلا أن سنه ١٦٦٧ هي السنة التي ستظهر فيها اندروماك Andromaque التراجيديا الراسينية الاولي ، متبوعة ب بريطانيكوس Britanicus و بيرينيس انها المسرحيات الثلاثة الرافضة جذريا للعالم و الحياة ، و حيث الابطال اندروماك ، جوني ، تيتوس و ايضا بيرينيس في النهاية (اي بعد تحولها) يجسدون تماما أخلاق و رؤية عالم بور رويال ، إنها المسرحيات الثلاث للاستنجاد بالرب . و بكتابتها خلق راسين جنسا أدبيا جديدا في الادب العالمي : التراجيديا بدون خطأ ، تراجيديا الرفض .

و مع ذلك فقد أعقبت مسرحية بيرينيس في المسرح الراسيني ، أربع مسرحيات يحاول فيها البطل ان يحيا في العالم ، و في ثلاث منها يمتلك بعض السمات الايجابية . أولاها هي باجازيت Bajazet التي عرضت لأول مرة سنة ١٦٧٢ و التي يمكن ان تخصص بأنها مسرحية الوفاق بامتياز .

إلا أن سنة ١٦٦٩ هي التي أقام فيها سلم الكنيسة بشكل مؤقت وفاقا ، بين الجانسينيين و السلطة الملكية ، كما أنها هي السنة التي توقفت فيها الاضطهادات بالاضافة الي ان السنوات ١٦٦٨ ـ ١٦٧٠ تميزت بسياسة عامة للوفاق الداخلي : إلغاء غرفة العدل ، التوفيق المناسب للبروتستانتيين ، توبة تورين Turenne، النشاط الكبير

لأجل ضم الكنيستين ، الخ . سياسة يظهر أنها أعطت ثمارها مادامت الاضطرابات الاجتماعية المستمرة التي وازت ملك لويس الرابع عشر قد توقفت بعض السنوات .

في سنة ١٦٧٣ عرض راسين ميتريدات Mithridate أولي مسرحياتة التاريخية الصرفة ، ما دامت المهمة الوطنية للابطال ، و هي الصراع المشترك ضد الرومان ، جعل من ميتريدات انسانيا و حالا للمشاكل و الصراعات الفردية في المسرحية . و الحال أن سنة ١٦٧٢ ستكون هي السنة التي سيباشر فيها لويس الرابع عشر أول إنجازاته الحربية الكبيرة ، حرب هولندا ، و التي ، و هو يتهيأ لها ، من المحتمل ان يكون قد اتخذ كل احتياطاتة في الوفاق الداخلي لسنة ١٦٦٩ ، و التي ستصبح بعد ذلك بقليل حربا ضد الامبراطورية .

في ١٦٧٤ عرض راسين ايفيجيني Iphigenie التي كان موضوعها هو الصعوبات المواجهة و التضحيات التي تتطلبها حرب اليونان ضد طروادة ، حرب انتهت الالهة الي توجيهها نحو الاحسن دون تضحية ايفيجيني ، و مع ذلك ، فإريفيلIriphile الشخصية التراجيدية تعيد الظهور في محيط المسرحية .

وفي الواقع السياسي و الاجتماعي ، اصطدمت الحرب بصعوبات خطيرة غير متوقعة ترجع الي المقاومة العنيفة لغليوم دو رانج G. d' orange (الذي لم يتردد في فتح السدود و إغراق بلاده) ، و الي تحالف الهولنديين مع الامبراطوريين و الاسبان . وفي ١٦٧٧ رجع راسين الي التراجيديا مع فيدر PHEDRE ، وموضوعتها هي نفسها التي في ميتريدات : تم الاعتقاد بأن الملك قد مات ، و اعتقدت زوجته الملك التي كانت تحب ابنه أن بامكانها مصارحته بذلك ، ولكن الاشاعة كانت خاطئة فعاد الملك . إلا ان العالم هذه المرة ، لم تعد له قيمة ايجابية ، لقد كان سفر الملك دون أهمية ، و كانت الصراعات مأساوية و متعذرة الحل . نضيف ان هذه التراجيديا خاصة كانت أقل جانسينية و اكثر قربا من التراجيديا اليونانية .

أما في البلاد ، فقد كانت الحرب التي تستمر ، تتطلب تضحيات ثقيلة أكثر فأكثر ، وكانت الاستياءات تتنامي . وفي سنة ١٦٧٥ واصل الثوار وبلغوا دفعة واحدة نقطة الذروة في الملك بضم قسم كبير من غرب فرنسا : لابروطان ، المانش ، بوردو .

في ٣٠ ماي ١٦٧٦ الحق لويس الرابع عشر أول ضرر بسلم الكنيسة ، حين أوقف هنري ارنولد H . Arnauld اسقف انجي ، ايقاف طرح من جديد مشكل العريضة .

نعرف أن راسين بعد فيدر صمت الي غاية ما بين ١٦٨٩ - ١٦٩١ وهي السنوات التي أنهى فيها مسرحيتي الاله الحاضر أي الانتصار الداخل - عالمي للخير علي الشر الواقع ، وقد سبق[٣] أن سجل ذلك ، شارليي و أورسيبال ، أن نهاية ١٦٨٨ عرفت ظهور الثورة الإنجليزية ، وأن الملك القديم ، جاك الثاني ، قد التجأ مع عائلته وبلاطه إلي فرنسا ، إلي سان جيرمان في لاي Laye . وهكذا نصل إلي الجدول التالي :

	١٦٥٦ قانون الاسكندر السابع الذي أكد إدانة جانسينيوس والذي عرف في فرنسا في مارس ١٦٥٧ .
١٦٥٧ - ١٦٦٢ المرحلة التي كتب فيها باسكال المقاطع التي ستكون الافكار والتي تعتبر في الفلسفة الكونية أول تعبير متماسك عن الرؤية التراجيدية .	١٦٥٧ تبني هذا القانون من طرف مجلس الايكليروس الذي قرر المطالبة بتوقيع العريضة . ١٦٦١ - ١٦٥٥ راسين يعيش في الوسط الجانسيني للمدارس الصغيرة ولإعدادية بوفي ويتلقي تربية هذه الأوساط .
١٦٦٢ - ١٦٦٥ راسين يكتب La thebaide و Alexandre.	١٦٦١ - ١٦٦٢ - ١٦٦٣ راسين في أوزي يتمني الحصول علي إمتياز كنسي بفضل حماية خاله سكونان الممثل العام . هذه الطموحات بدت عبثية

(٣) بالرغم من أننا نقبل العلاقة بين أتالي والثورة الانجليزية ، فإننا لن نؤولها بنفس طريقة شارليي و اورسيبال .

١٦٦٥ - ١٦٦٦

نيكول ينشر ضد ديماري :
المتنبؤون ، يعتقد راسين أنه هو المقصود فيرد برسالتين لم ينشر إلا أولاهما .

١٦٦٦ - ١٦٧٠

راسين يكتب التراجيديات الثلاث التي يرفض فيها الوفاق مع الحياة والعالم وهو تعبير متطرف عن أخلاق الجانسينية : أندروماك (١٦٦٧) بريطانيكوس (١٦٦٩) بيرينيس (١٦٧٠) .

٢٣ أكتوبر ١٦٦٨

توبة تورين

١٦٧١ - ٧٢

راسين يكتب بازاجيت ، مسرحية الوفاق

١٦٦٩

سلم الكنيسة ، الوفاق بين الجانسينيين والسلطة . سياسة عامة للمصالح ، إلغاء غرفة العدل ، التوقيف الناسب للبروتستانتيين . مجهودات كبيرة لمصالحة الكنيستين . عروض طارتوف اصبح مسموحا بها .

١٦٧٢ - ٧٣

راسين يكتب ميتريدات أول مسرحية تاريخية ، حيث تحول الحرب ضد روما الأصلع إلي إنسان وتسمح بحل كل المشاكل الفردية .

١٦٧٢ - ٧٣

بداية حرب هولندا . أول وأكبر إنجاز حربي للويس الرابع عشر ، فتح غليوم دورانج السدود ليغرق البلد

٧٤ - ١٦٧٣

راسين بكتب ثاني مسرحياته التاريخية إيفبجيني موضوعها : حرب تواجه صعوبات وتتطلب تضحيات ضخمة . ومع ذلك انتهت الالهة الي التصالح وإقرار الانتصار . ووراء هذا الفعل تظهر من جديد شخصية اريفيل التراجيدية .

٧٤ - ١٦٧٣

تصطدم الحرب بصعوبات غبر متوقعة و تصبح صعبة أكثر فأكثر . التحالف بين الامبراطور والاسبان ودوق لورين والهولنديين . تراجع انجلترا .

٧٧ - ١٦٧٥

راسبن يكتب فيدر ، الرجوع إلي التراجيديا . يستعيد من جديد موضوعه ميتريدات ولكن من منظور تراجيدي ، غياب ألقصة ، الصراعات متعذرة الحل ، عدم إمكان أي وفاق .

١٦٧٥

بعد صمت دام من ١٦٦٩ - ٧٠ عادت التمردات الشعبية في البروطان والمانش وبوردو . تشابكت النوترات ، وبدأ الكلام بكثرة في باريس عن إحدي القصص الصادقة أو الكاذبة لتاجر حربر قتل هو وأبناؤه لأنه تهرب من أداء الضراتب (رسالة السيدة دفينبي في ٢١ يوليو ز (١٦٧٥) الخ

١٦٧٦

٣٠ ماي . إيقاف ضد - جانسيني لهنري ارنولد طرح من جديد مشكل توقيع العريضة .

٨٩ - ١٦٨٨

ايستير

نهاية ١٦٨٨

الثورة الانجليزية .

٩١ - ١٦٨٩

أتالي ، مسرحية الاله الحاضر والانتصار الداخل - عالمي للخير علي الشر .

وكيفما كانت نزعة ودلالة هذه التعالقات التي سنعمقها في مكان آخر ، فإنها فيما يبدو تطرح مشاكل لبس من حقنا الغاؤها . ومنذ الان يبدو لنا مهما أن نستخلص أن التعبير الفلسفي والادبي لتراجيديا الرفض التي تعتبر أحد التيارات الاكثر أهمية في تاريخ الثقافة الغربية ، يتموضع في فرنسا بين سنتي ١٦٥٧ و ١٦٧٠ أي ، في السنوات الثلاثة عشر التي تتصادف عن قرب مع أكبر اضطهاد للجانسينية ومع المطالبة بتوقيع العريضة ويمكن أن نعمم هذا الاسنخلاص علي تراجيديا القرن السابع عشر في مجموعة ، مادامت فيدر قد كتبت بعد إبقاف ٢٠ ماي ١٦٧٦ .

البنيوية التكوينية
والإبداع الأدبي

البنيوية التكوينية ، تصور علمي للحياة الانسانية ، يرتبط أهم ممثليه علي المستوي السيكولوجي (وعلي هذا المستوي فقط) بفرويد ، وعلي المستوي الايبستيمولوجي بهيغل وماركس وبياجي ، وعلي المستوي التاريخي - السوسيولوجي بهيغل وماركس وغرامشي ولوكاتش ، وبالماركسية ذات الالهام اللوكاتشي . ومن المسلم به أن هذه الاسماء تشير بالخصوص أساسا إلي بعض نقط الاستدلال المهمة ولا تشكل إحصاء شاملا .

أهم إكتشافات البنيوبة التكوينية ، علي المستوي التاريخي والاجتماعي الذي يشمل الابداع الادبي ، هو اكتشافها للذات الفوق - فردية (أو الجماعية) وللخاصية المبنية لكل سلوك ثقافي ، وجداني أو عملي لهذه الذات .

انطلاقا من هنا ، تؤكد البنيوية التكوينية أن كل سلوك إنساني (وربما حيواني) له خاصية دالة ، أي بمكن أن يترجم الي لغة تصورية بوصفه محاولة لحل مشكل عملي . نقول يمكن أن يترجم لنؤكد أن الدلالة لا ترتبط قطعا بوعي الذات (فسلوك قط وهو يطارد فأرا يعتبر دالا ، بالرغم من أن القط قد يكون غير وا ع بذلك) .

مع ظهور الانسان ، أي مع ظهور كائن يمتلك اللغة ، ظهرت الحياة الاجتماعية وتقسيم العمل . انطلاقا من هذه اللحظة ، يجب أن نميز سلوكات الذات الفردية (الليبدو) عن سلوكات الذات الفوق - فردية (أو الجماعية أو المتعددة) .

حين يحمل جون وبيير شيئا ثقيلا ، فإن الأمر لا يتعلق هنا بفعلين أوبوعيين ، يقوم فيهما المشارك ، تبادليا ، بشغل وظيفة الموضوع ، بل بفعل واحد حيث الذات هي جون وبيير ، ووعي كل واحد من هذين الشخصين لا يمكن أن يفهم إلا في علاقة مع هذه الذات الفوق – فردية .

نضيف أن :

أ – عدد الأفراد الذين يشكلون ذاتا فوق – فردية يمكن أن يتراوح بين إثنين والعديد من الملايين (من " قام " بالحرب ضد ألمانيا الهتلرية أو بثورة ١٩١٧ ؟)

ب – إن كل فرد يندرج في العديد من السلوكات المختلفة ، يشكل جزءا من عدد كبير من الذوات الفوق – فردية المختلفة .

جـ – أنه من البدهي أن وعي الذات الفوق – فردية ليس له واقع خالص ولا يوجد إلا في الاوعاء الفردية المندرجة ضمن مجموع من العلاقات المبنينة .

والحال أن قطاع الذات الفوق – فردية في الحياة الانسانية يلامس كل ما يعتبر في سلوك الناس ، إما مباشرة أو بشكل غير مباشر ، اجتماعيا وتاريخيا ، أي بالخصوص كل ما يتعلق بتأثير الناس على العالم الطبيعي والاجتماعي (غذاء ، حماية ، تنظيم العلاقات البين – انسانية ، ثورات ، حروب ، الخ ، وانطلاقا من هذا ، بكل الحياة الثقافية ، وبالخصوص مادام هذا هو موضوعنا ، بكل ابداع أدبي جيد) .

يجب أن نميز في هذا المنظور ثلاثة مستويات :

١– اللاوعي : ذو الذات الفردية (الليبدو) الذي يتكون من الرغبات والتطلعات والاحاسيس التي لا تستطيع الحياة الاجتماعية أن تتقبلها ، والتي يجب أن تكون مكبوته ؛ وقد بين فرويد وبعض اتباعه أن الكثير من السلوكات (احلام ، هفوات ، هذيانات) تبدو دالة بشكل دقيق إذا ادرجناها في كلية بيوغرافية وتكوينية تلامس اللاوعي المكبوت .

٢– الوعي الفردي : الذي يشكل قطاعا مهما الى هذا الحد أو ذاك ولكنه فقط ، قطاع للسلوك ولدلالته الموضوعية .

٣– غير الوعي الذي يتكون من البنيات الثقافية والوجدانية ، المتخيلة والعملية للاوعاء الفردية . وغير الوعي يعد ابداعا للذوات الفوق – فردية وله على المستوى النفسي ،

وضعية اعتبارية مماثلة للبنيات العصبية أو العضلية علي المسنوي السيكولوجي . وهو يتميز عن اللاوعي الفرويدي بكونه غبر مكبوت وغير محتاج لأن يتجاوز آية مقاومة لكي يصبح واعيا ، ولكن فقط بكونه يبرز بواسطة تحليل علمي .

ضمن هذا المنظور ، نستطيع أن نموضع كل السلوكات الانسانية علي خط متخيل يتضمن في أحد أطرافه السلوكات التي تخترق فيها الدلالة الليبيدية ذات الذات الفردية الوعي وتحرفه الي درجة أنها تخلخل إشتغال التماسك الفوق – فردي ، إنها حالات الاستلاب الذهني ؛ وفي الطرف الآخر (هناك) حالات التطابق الكلي تقريبا لقطاع من السلوك الفردي (واقعي ، تصوري أو متخيل) مع تماسك الذات الفوق – فردية(الذي يمكن أن يكون محافظا ، معارضا ، أو ثوريا) . وحتي النزعة الفردية المتطرفة تعتبر شكلا من الوعي الفوق – فردي ، أي أنها تفهم وتفسر فقط انطلاقا من ذات فوق – فردية .

هذه السلوكات التي يندرج فيها ليبيد والذات الفردية ، تقريبا بدون انحراف ، في تماسك الذات الفوق – فردية هي ، من بين أشياء اخري ، نلك التي تصل إلي الابداعات الثقافية (الادبية ، الفلسفية ، الفنية ، الاساطير) .

من غير المجدي أن نضيف أن الكثرة الغالبة من الاوعاء الفردية ، تتموضع بين هذين الطرفين ، مشكلة خليطا ذا درجات متنوعة الطموحات بتماسكين علي التوالي ، تماسك الذات الفردية و تماسك الذات الفوق فردية ، و التي باعتبارها خليطا ، ليس لها تماسك كلي خالص ، بل لها فقط هيمنة قوية الي ، هذا الحد وذاك ، لبعض الطموحات ذات التماسك التي تشكل هذا الخليط .

وبالنسبة للتحليل النفسي فقد قبلت السوسيولوجيا البنيوية التكوينية ، وبلورت قبل فرويد ، بكثير ، ثلاث نقط اساسية من التحليل الفرويدي :

أ – إن كل واقعة انسانية هي واقعة دالة .

ب – إن هذه الدلالة ناتجة عن خاصيتها النسبية الكلية (أو عن " بنيتها " وهو نفس الشيء) ولا يمكن أن توضح إلا عن طريق إدراجها في بنية تشكل هي جزءا منها أو تتطابق معها .

جـ – إن البنيات الدلالية تعتبر نتيجة لتكون ولا يمكن ان تفهم وتفسر خارج هذا التكون .

ومع ذلك يجب عليها (البنيوية) أن تدافع دائما ضد التحليل النفسي ، على خصوصية التاريخي والثقافي القائمة على التمييز بين الذوات الفردية والفوق – فردية ، وعلى عدم امكانية اختزال الثقافي ، حتى جزئيا ، في الفرد و اختزال التاريخ في البيوغرافيا و خصوصا في الليبيدو .

فالتفسيرات التحليلية – النفسية للادب ، تقدم ، من بين اشياء اخرى ، نقصين اساسيين . نقص كونها لم تفسر قط الاعمال المهمة في كليتها ، حيث تفسر فقط بعض المعطيات الجزئية ، و خاصة نقص كونها لم تستطع ، ، لأسباب منهجية ، ان تدقق الفرق بين المرضي و لاستيتيقي ، بين حلم او هذيان معتوه و العمل العبقري [1] .

فضد التصورات السيكولوجية ، البيوغرافية ، و خصوصا الوجودية للسوسيولوجيا و للنقد الادبي ، كان على البنيوية التكوينية ، و هي تعترف بوجود سيكولوجيا فردية و بخاصة النزوع الى التغير (البراكسيس باللغة الماركسية) في كل سلوك انساني ، ان تدافع عن وجود البنيات الناتجة عن الخاصية الفوق – فردية للبراكسيس التاريخي ، بنيات يتعذر خارجها أن تفهم بشكل ايجابي و علمي الدلالة الموضوعية لأية واقعة ثقافية او اجتماعية .

واخيرا فضد البنيوية اللاتكوينية التي تتطور حاليا في الفكر الفرنسي ، ضد ليفي ستروس ، بارث ، غريماس ، فوكو ، التوسير ، لاكان ، الخ . يجب الآن على البنيوية التكوينية التي ابرزت منذ زمن طويل الاهمية الجوهرية للبنيات بالنسبة لفهم التاريخ ، أن تدافع عن ذات فوق – فردية ، عن واقع ان البنية ليست وحدة مستقلة و نشيطة تبقي الانسان في تبعيتها ، بل هي خاصية جوهرية لسلوك ذات (فردية – ليبيدو – او فوق – فردية) هي وحدها الفعالة و المبدعة ، و استطرادا عن واقع أنه اذا كان اي سلوك لايمكن ان يفهم خارج البنيات التي أفرزته " (لغة ، علاقات إنتاج ، مجموعات إجتماعية ، رؤيات للعالم ، الخ) ، فان هذه البنيات نفسها نتيجة للبراكسيس السابق للناس أي لبراكسيس ذات ، وستتغير بواسطة البراكسيس الحالي التي تعتبر خاصية جوهرية له لا معطي خارجيا عنه .

---

(١) نود ان نتكلم عن حقيقة انه من العبث والمضاد للعلم أن نسند الى أودب لا وعيا وعقدة أوديبية علما بأن أودب شخصية ادبية لا توجد الا داخل نص ولا يمكن أن نقدم أية سمة زائدة وخارجة عن ما هو مشار اليه بوضوح في هذا الاخير.

لم تقبل البنبوية التكوينة ، وهي تحاول بهذا آلا تتخلي قطعا ، لا عن وجود الذات ولا عن الخاصية المبنبة لكل سلوك لهذه الآخيرة ، ولا عن وجود سلوك له ذات فردية (ليبيدو) ولا عن سلوك له ذات فوق - فردية (التاريخ ، إقتصاد ، حياة إجتماعية ، ثقافة) ولا عن تشابكهما الدائم ، لم تقبل إلا اختلافا في الدرجة بالرغم من آن ذلك يعتبر غالبا هاما جدا ، بين البنية ، المؤسسة ، المعيار ، وباختصار المستمر آو الذي يبدو مستمرا من جهة ، والعرضي .

وبالنسبة للذات الفوق - فردية ، فإن البنبات ، المؤسسات ، اللغات ، التنظيمات الإجتماعية ، المعايير الآخلاقية آو القانونية هي مواد تخلفها هذه الذات خلال مرحلة طويلة نسبيا ، إلي هذا الحد أو ذاك ، وهي تخضع لتحول تدريجي مستمر وتتجه نحو تحول جذري له أجل قصير نسبيا .

نستطيع الآن آن ندقق . كل واقعة إنسانية لها خاصية تاريخية ويجب آن تدرس كعنصر آو قطاع من سيرورة ناتج عن سلوك ذات آو عدة ذوات فوق - فردية ، سيرورة تقدم وجهين متكاملين . تفكك تبنين البنبات الموجودة سابقا ، وبنينة موجهة نحو خلق توازن جديد ، لبنية دالة جديدة ، ستتغير و تتجاوز بدورها لاحقا .

فداخل هذا التصور العام لوجود الناس و للمنهجية العلمية التي تنتج عنه ، يجب آن تتعرض الآن للوضعية الاعتبارية للابدا ع الادبي ، و امكانيات دراستها علميا .

لنحدد أولا متطلبات دراسة مماثلة . إنها متطلبات كل عمل علمي ، إلا انها للاسف قليلة الانطباق حين يتعلق الامر بالاعمال الادبية، يتعلق الامر :

أ- برصد البنية الأكثر بساطة لنص معين ، أو علي الأقل رد جزء كبير بما فيه الكفاية من هذا النص بحيث يصعب تخيل فرضيتين مختلفتين لهما درجة متساوية من البساطة والفاعلية . نسمي هذه العملية . تأويلا أو فهما ، ونؤكد أن هذه العملية يجب آن تخضع لقاعدة أساسية : رصد النص ككل وعدم إضافة أي شيء إليه (٢).

ب - بتفسير تكون البنية التي نسمح بتأويل مجموع النص المدروس بطريقة متماسكة .

إذن فالفهم محايث للنص والتفسير يستدعي عوامل خارجية عن هذا الأخبر .

---

(٢) لقد سبق وقلنا أنه ليس من حقنا آن نضيف إلى نص سوفوكل ، أن آنتيغون كانت له رغبة لا واعية في الزواج بهيمون ما دام هذا لم يعلن عنه في اي مكان من النص ومع ذلك ، يجب ان نولي إعتبار مثلا إلي انه في القرن الذي كانت تهيمن فيه ضرورة الاحتمال ، الى آن اندرو ماك نص راسين يقول لنا إن ميتا تكلم ، ومسرحية موليير تقول لنا أن دون جوان يتزوج كل شهر .

لقد إنتهينا إلي القول ، بأن كل مجموعة إجتماعية تكون ذاتا فوق – فردية يسعي سلوكها إلي حل عدد كثير أو قليل من المشاكل ، أي إلي تحويل الواقع إلي شكل أكثر تناسبا مع طموحاتها وإحتياجاتها ، إنطلاقا من أن كل فرد ينتمي إلي عدد معين من المجموعات الإجتماعية ، أي إلي عدد معين من الذوات الفوق – فردية .

وممارسة كل مجموعة من هذه المجموعات تطور في وعي أعضائها ، عددا معينا من البنيات الذهنية ذات القيم العامة ، أي التي تعمل أو تتدخل في سلوك الذات خارج المشاكل التي ولدتها . و هكذا ، فالاوعاء الفردية دائما ، تشكل عمليا خليطا صعب الدراسة ، حيث إن وضعه في علاقة مع العمل أو حتي مع السلوك الفردي ، يعتبر مهمة عسيرة وصعبة الحل . ومع ذلك يحدث عند بعض الافراد الاستثنائيين أن بنية بعض القطاعات الخاصة من السلوك ، أو بنية أعمال أنتجت في مجال معين (كتابة ، رسم ، فكر تصوري ، إعتقاد) تتصادف كليا ، او تقريبا بشكل كلي ، مع البنيات الذهنية المطابقة لبعض الذوات الفوق – فردية التي تربط بها ، في هذه الحالة ، في دراسة هذه السلوكيات او هذة الاعمال ، يمكن ان تتم بسهولة أكبر عبر التحليل السوسيولوجي ، لا عبر سيكولوجيا الفرد الذي أنتج هذه الاعمال .

هذا يدل علي أن هناك بعض المجموعات الاجتماعية (و قد بين البحث التجريبي عبر التاريخ ، ان هذه المجموعات كانت في الاغلب طبقات اجتماعية) التي تتطابق طموحاتها و متطلباتها ، سواء مع البنية الكلية لكل العلاقات البين – انسانية و العلاقات بين الناس و الطبيعة ، او مع الحفاظ الكلي علي البنيات الاجتماعية و القيم القائمة .

والحال ، أن الفرضية التي توجد في قاعدة الدراسة البنيوية التكوينية للابدا ع الثقافي ، هي ان النقل الخيالي عن طريق خلق كون من الشخصيات الفردية و وضعيات خاصة للبنيات الذهنية لهذه المجموعات المتميزة (بنيات سميناها رؤية للعالم) هي التي تشكل جوهر الابداعات الفنية و الادبية الكبري ، كما ان الترجمة التصورية لهذه البنيات الذهنية تشكل الانساق الفلسفية الكبري [٢] .

وهكذا ، فليس هناك تصور و لا فلسفة في معظم الاعمال الادبية ، غير أن المهم ، هو أن كل ترجمة تصورية صحيحة لبنية عمل أدبي او فني ، تصل ، ليس الي علم او الي

---

(٢) هناك بالطبع العديد من التعبيرات البيولوجية ، العلمية الخ ، لنفس رؤيات العالم هذه ، ولكنها لاتهمنا هنا.

معرفة علمية (سيكولوجية ، سوسيولوجية ، الخ .) بل الي نسق فلسفي [٤]

والحال ، فيما أن النقد هو بالضرورة نقل مفهومي للعمل ، فإن هذا يعني أنه ليس هناك نقد صحيح . إلا ذلك الذي يضع العمل الادبي في علاقة مع رؤية للعالم معبر عنها في تصور ، اي مع فلسفة (مع العلم ان الناقد ليس قطعا مجبرا علي أن يتقبل هو نفسه هذه الفلسفة) .

فالجوهري ، علي المستوي التفسيري ، يقوم علي أن العمل الادبي المهم ، يعتبر ، ضرورة و ليس حصرا ، كونا متماسكا و مبنينا ، و علي ان هذه البنية ليست ابداعا فرديا ، و لكنها ابداع جماعي لذات فوق – فردية متميزة .

إنه القول بأن الفهم الذي يقوم قبل كل شيء علي ابراز البنية الموحدة للعمل ، هو سهل البلوغ بالنسبة لدراسة سوسيولوجية منها بالنسبة لدراسة سيوكولوجية او حتي بالنسبة لبحث محايث خالص و الذي ، مع أنه ممكن مبدئيا ، لا يصل الا نادرا الي رصد مجموع النص ، و لا يصل خاصة الي تقديم منهج للعمل قابل للمراقبة و لا عادة الانتاج و التلقين .

إلا أننا يجب ان نؤكد أنه ، بالقياس الي سوسيولوجية الادب التقليدية ، فإن هذه الطريقة في تصور الابداع الادبي ، تعتبر انقلابا كليا .

فالسوسيولوجيا الوضعية حاولت و لازالت تحاول (في النطاق الذي لازالت دائما مهيمنة فيه) ان تضع في علاقة محتوي الوعي الجمعي محتوي الاعمال الادبية .

وهذا يؤدي بالضرورة الي تجزييء العمل ، و الي بحث يهتم بفاعلية بعمل دون المتوسط لاتكون فيه للكاتب إلا مخيلة خلاقة ضعيفة و يكتفي بإعادة انتاج تجربته اليومية دون أن يطورها تقريبا .

وبالمقابل فالسوسيولوجيا البنيوية التكوينية ، و هي تموضع العلاقة بين العمل و المجتمع ، ليس علي مستوي المحتوي ، بل علي مستوي البنيات اي الشكل ، تتجه أساسا نحو وحدة العمل و تبدو اكثر تماسكا و تطابق ، بشكل صارم ، مع ميولات المجموعة الاجتماعية المتميزة ، و مع رؤية للعالم تبنينها .

---

(٤) كل تأويل لعمل أدبي صحيح ، يرتبط فقط بالعناصر السيكولوجية ، السوسيولوجيه او حتي بالعناصر الاخلاقية فقط لهذا العمل ، هو بالضروره إنتجزئي ، و بسبب هذا نفسه ، منحرف وخاطيء

واخيرا ، فهذا النمط من الابحاث لا يتطلب لكي يكون اجرائيا ، أية محدودية للابداعية الخيالية للكاتب ، فنفس البنبة الواحدة ، يمكن ان تنتقل داخل المحتويات الأكثر تنوعا و الاكثر تباعدا للفكر اليومي .

بالاضافة الي ان العمل لا يبدوا قطعا في هذا المنظور انعكاسا للواقع الاجتماعي ، ولكنه، يبدو بالعكس ، كتعبير متماسكا خاص عن طموحات ذات جماعية، تعبير لا يبلغه قط اعضاء المجموعة او يبلغونه فقط في ظروف عابرة واستثنائية في الوقت نفسه.

نضيف ان أهم مؤاخذتين وجهتا إلينا لحد الآن ، و اللتان لازالتا توجها الي التحليل البنيوي التكويني للأدب ، المقصود ادخال مفاهيم فلسفية في العمل الادبي ، و الاهتمام فقط " بمحتوي " هذا الاخير دون إعطاء أهمية كبيرة للشكل ، غير مؤسستين اطلاقا . و ذلك من جهة لأن البنيوية التكوينية كما قلنا سابقا تفصل بشكل جذري المتخيل عن المفهومي ، الادب عن الفلسفة و من جهة أجري لانها لا تهتم قطعا بالاحدوثة Anecdote ، بالمحتوي الخام . و حتي الاعمال الموجودة لحد الآن ، فإنها في الواقع علي ما يمكن ان نسميه الدرجة الاولي من الشكلنة اي بنية محيط العمل ، يبقي انه ليس من قليل الصواب ، أنه اذا كانت هذه المؤاخذات تتردد بإلحاح كبير ، فإن هذا يبدو راجعا الي ان الاعمال البنيوية التكوينبة ، لم تتعرض لحد الآن لمجموع العمل الادبي و تركزت كخطوة اولي ، بل حصرا ، علي ابراز بنيتة الموحدة و رؤية العالم.التي تطابقه . و الحال ان رؤية العالم هذه ، و التي يصوغها الناقد في لغة مفهومية ، تبرز في شكل نسق فلسفي ، و تشكل فضلا عن ذلك الشكل الاكثر قربا من المحتوي المركبي . و في الواقع ، فهذا التركيز علي البنية الكلية ، يعود قبل كل شيء الي أنه يعتبر مهمة ملحة خاصة بالنسبة لكل اشكال النقد الادبي التي تلغي بالتحديد هذا المظهر الجوهري من الفهم . و مع ذلك فمن البديهي ، اننا واعون تماما بأن هذا المظهر من البحث لا يستنفد قط حقل النقد السوسيولوجي .

فلوكاتش ، و كل الذين انطلقوا من أعماله يرتبطون بالاستيتيقا الكلاسيكية من كانط الي هيغل و التي تمكن القيمة الاستيتيقية بالنسبة لها في التوتر الممتد بين الوحدة والتعدد . فالعمل يعتبر مقبولا اذا نجح في أن يبنين بشكل أكثر توحدا محيطا أكثر غني وخصوصا اكثر جنوحا نحو التبنين .

في هذا التصور ، تطابق دراسة البنية الكلية القطب الموحد للتوتر ، وتلغي ضمنيا القطب : التعدد ، الغني .

وأيضا فإن بعض الابحاث التي نباشرها حاليا ، تتجه نحو هذا الاتجاه ، وبالرغم من أنه يصعب أن نعطي منذ الآن الاشارات الدقيقة المتعلقة بطبيعة هذا الغني ، فإنه بامكاننا أن نشير مسبقا الي ثلاثة قطاعات أكثر أهمية يمكن أن تتجه اليها الأبحاث ،إنها :

أ) مجموع القيم المرفوضة من طرف رؤية للعالم التي تبنين العمل ، ولكن المعروفة من طرف رؤيات اخري للعالم ، مختلفة أو متعارضة ، قيم يجب علي العمل أن يدمجها وإن كان يرفضها اذا أراد أن يصل الي قيمة استبتيقبة كونية .

ب) مجموع الميولات التي لها ذات فردية (ليببدو) والتي ترفضها وتدينها (د) كل رؤية للعالم ، والتي يشكل قمعها بالنسبة لكل سلوك ذا ذات فوق - فردية نضحية ضرورية للوصول الي التماسك والفعل .

جـ) واخيرا حقيقة الموت في تعارضها مع كل رؤية العالم والتي تعتبر محاولة لخلق امكانية لحياة دالة ودلالية .

خطاطيا ، ودون أن نستطيع تطوير ذلك هنا ، يمكن أن نقول أنه اذا كانت رؤية العالم ترتبط خاصة بوظيفة التماسك و بالوثوقية الملازمة لكل فعل إنساني ، فإن عنصر الغني يرتبط خاصة بوظيفة ، ليست أقل جوهرية ، هي وظيفة الحس النقدي وتجاوز القائم . بحيث إن التأليف بين الاثنين هو الذي يشكل مجموع كل الاعمال المقبولة و الكونية و الصحيحة في الوقت نفسه .

واخيرا ، فاذا كان الشكل الادبي بالمعني الضيق للكلمة ، لم يتم التعرض له في ابحاثنا ، واذا كنا نعتقد دائما بأن هذا المجال يجب أن نتركه ، في غياب التخصص ، للمختصين فاننا مقتنعين اطلاقا باستحالة دراسة هذا الشكل الذي بدا لنا مشتقا ، بشكل مغاير من الشكل الكلي المكوّن من بنية محيط العمل ، علي هذا المستوي ، فإن اكتشافا بالصدفة اثناء تحليلنا لعشرات الصفحات في زنوج Negres جونيه Genet ، قادنا إلي صياغة فرضية ، بالغة الهشاشة بدون شك ، بسبب قاعدتها التجريبية الصغيرة ، ولكن التي بإمكانها علي الأقل أن تقدم أهمية استثنائية ،

(د) إنها بالطبع ليست في كل رؤية للعالم ، ولكنها توجد دائما .

وقد يحدث أن ما نسمية عادة الشكل الأدبي بالمعني الضيق للكلمة ، بكون مكونا من مجموعة من البنيات الصغري الدلالية ، السوسيولوجبة ، الفونولوجية الخ ، ستكون في علاقة وظيفية ومعقدة قليلا أوكثيرا ولكنها تصاغ دائما مع البنية الكلية لمحيط العمل . ستكون لنا إذن في الإبداع الثقافي مستويات متعددة .

أ) اعداد الرؤيا للعالم ، العمل الجماعي للذات الفوق – فردية وتجربة ضروريتها ، وفي نفس الوقت خاصيتها الدلالية والاحباطات التي تتضمنها :

ب) نقل هذه الرؤية للعالم وهذه التجربة الي كون خيالي من الشخصيات والوضعيات الفردية المتماسكة أوقريبة التماسك :

جـ) التعبير عن هذا الكون في لغة مكونة من مجموعة من البنيات الصغري التي لها علاقات وظيفية مع البنية الكلية لهذا الكون ، بنيات صغري تجعل كل تفاصيل اللغة والأسلوب المستعمل من طرف الكاتب ، ضرورية بهذه الدرجة من التطور أو تلك . نضيف ، دون أن نستطيع الإلحاح علي هذا ، أن هذا الاحصاء ، من المحتمل أن يتطابق في الأغلب وفي نفس الوقت مع تعاقب زمني تاريخي (فالرؤية للعالم كواقعة جماعية يجب أن تكون قد أعدت مسبقا علي الأقل إلي نقطة معينة ، حتي يستطيع الكاتب نقلها في العمل) ومع تعاقب نفسي (من المحتمل أن الكاتب في الأغلب يري ويحس بالمحيط الكلي قبل أن يجد تفصيل التعبير) ، وإن لم يكن مع نظام البحث الذي ينجز عن طريق تأرجح مستمر بين المستويات المختلفة التي تتوضح بالتبادل ، فبالتأكيد مع النظام الأكثر صلاحية للعرض ، والذي ينطلق من الأساس الأقل شكلنة إلي المظاهر التي ، في نفس الحد الذي تكون فيه تقدما في الشكلنة ، تعبر عنه وتكمله .

مصطلحات وتعريفات

-A-

Absolu	مطلق
Authenticité	أصالة
Auto-réglage	ضبط ذاتي

B -

Biographique	بيوغرافية

-c-

Capitalisme	رأسمالية
Capitalisme d'organisation	رأسمالية التنظبم
Capitalisme en Crie	رأسمالية الأزمة
Catégorie	مقولة
Cohérence	تماسك / انسجام
Classe	طبقة
Communauté	تلاحم / محموعة
Comportement	سلوك
Compréhension	فهم
Confrontation	مواجهة
Conscience	وعى
" (Collective)	وعي جمعى
" (de Classe)	وعي طبقى
" (Fausse)	وعي مغلوط
" (Individuelle)	وعى فردي
" (Possible)	وعى ممكن
" (Réelle)	وعي قائم /واقعي
" (Vraie)	وعى صحيح
Concept	تصور
Contenu	محتوى
Contenu de vérité	محتوى الحفيفة
Création	إبداع
Création culturelle	إبداع تقافى
Crise	أزمة
Critère	معيار

-D-

Découpage	تقطيع
Dépassement	تجاوز
Desespoir	انتفاء الأمل / غياب الأمل
Devenir	صيرورة
Déstructuration	تفكك التبنين
Deviation	انحراف
Dialectique	دياليكتيك

Dieu	إله
Dieu Caché	إله مختفي
Dieu Spéctateur	إله متفرج
Donné	معطى
Drame	دراما
Drame Sacré	دراما مقدسة
- E-	
Equilibre	توازن
" " (Provisoire)	توازن مؤقت
Entendement	فهم
Espoir	أمل
Esprit	روح
Essence	جوهر
Esthetique	استيتيقا
Explication	تفسير
Expression	تعبير
- F-	
Fetichisme de la marchandise	فتيشية السلعة
Fin	نهاية
Fin de l'histoire	نهاية التاريخ
Fonction	وظيفة
Formalisation	شكلنة
Forme	شكل
-G-	
Genèse	تكون
Génétique	تكويني
Groupe Social	مجموعة اجتماعية
-H-	
Héros Prblématique	بطل إشكالي
Héros Tragique	بطل تراجيدي
Histoire	تاريخ
Homologie	تماثل /تناظر
-I-	مثالي / مثال
Idéal	تطابق
Identification / Identité	محايث
Imanent	غياب الأصالة
Inauthenticité	افرادنية
Individualisme	بنية تحتية / اساس تحتي
Infrastructure	تطلع
Inspiration	ذكاء
Intelligence	نية

Intention	نية واعية
Intention Consciente	داخل عالمى
Intra-Mondain	انعزال
Isolement	

-J-

Jansènisme	جانسيبة
Jansénisme Extremiste	جانسينبة متطرفة
Jansinisme Tempéré	جانسينية معتدلة
Je	أنا
Jugement de fait	حكم واقعي
Jugement de valeur	حكم قيمة

- M-

Macro	ماكرو
Macro-structure	ماكروبنية / بنية كبيرة
Maturité	نضج
Mécanisme	ميكانيزم / آلية
Médiation	وساطة
Micro	ميكرو
Micro-structure	ميكرو بنبة / بنية صغرى
Milieu	وسط
Milieu Ambiant	وسط محتضن
Modèle	نموذج

-N-

Noblesse	نبالة
Noblesse de robe	نبالة الرداء
Noblesse d'épée	نبالة السيف
Notion	مفهوم
Noumène	نومين
Nous	نحن

-O-

Objectifité	موضوعية
Oeuvre	نتاج / عمل (فني)
Opératoir	إجرائي
Ordre existant	وضع قائم

-P-

Parcours	مسار
Pari	رهان
Pari initial	رهان أولى
Phénoméne	ظاهرة
Phénoménologie	فينومبولوجيا
Praxis	براكسبس / ممارسة
Préjugé	حكم مسبق / قبلي
Processus	سيرورة
Progrés	تقدم

الفهرس

رقم الايداع	٩٦/٨٣٢٢
الترقيم الدولى	I. S. B. N.

مطابع لوتس بالفجالة تليفون وفاكس : ٥٩٠٩٣٦٣